أشجار البروتين

رواية من تأليف

محمود عبدالعزيز فرج

٤ شارع الشهيد محمود فؤاد ـ مصر الجديدة، تليفون: ٢٩٠٠٠٥٧ القاهرة.
ص. ب (٩) الصفاة الرمز البريدي 13001 الكويت، تليفون: ٥٣٣٨١٥٤ الكويت

موافقة إدارة الرقابة على فكرة وملخص هذه الرواية برقم ٤٧ بتاريخ ١٨/ ١١/ ٢٠٠٠

(بسم الله الرحمن الرحيم)

فَــمن يُرِدِ الله أَن يَهدِيةُ يَشرَح صدره للإِســـــلامِ
وَمن يُردَ أن يُضلَّهُ يَجعَلُ صَدرَهُ ضَيَّقاً حَرَجـــاً
كأَّنمَا يَصَّعَّدُ في السَّمَاء كَذَلِك يَجعَلُ الله الرِّجـــسَ
عَلَى الَّذينَ لا يُؤمُنونَ *

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد ،،،

فهذه ملامح نص روائي نحن بحاجة إلى مثله ، أكتب عنه معتزاً ، وإننا ننتظر مــــن مؤلفه العطاء الكبير . فقد أمتعني ما فيه من قيم تذكرنا بعهود كان فيها الاحترام قبـل الحب والحب قبل الطعام ، وكان شعار الناس فيها " ومن يتق الله يجعل لـــه مخرجـاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " .

هذا الحنين الجارف ، هذا الوفاء الصافي ، أنموذج رومانسي كلنا نعيش جانباً مـــن مشاعره في مراحل من حياتنا ، حيث تنكشف الطبائع الإنسانية بجوانبـــها الإيجابيـة والسلبية وتجد نفسك تديم النظر وتكمل القراءة من غير ضجر ولا ملل ، من اللحظـة الأولى حتى لحظة النهاية ، فقد نجح المؤلف في الإمساك باللحظة القصصية في بنائيـة لا تضيرها العناوين الفرعية ، ولا ذاك التقطيع ، إذ أنها تسير دائماً باتجاه لحظة التحـــول والتنويـــر .

وقد قام بتقديم شخوصه مغلفة بشعوره ، حتى جعلنا نحس بالألم لما نســـمعه مـــن معاناة ، نتيجة ظلم أو قهر أو حسد أو غيرة ، ولكنه تجاوز الألم وارتقى بنا إلى فضـــاء الثقة والأمل ، ثقة من وقر الإيمان في قلبه ، وأمل من وثق بنصر ربه .

وفيما يتعلق بهندسة الرواية وتقنية بنائها ، فقد اعتمد الكاتب على ركائز جعلـــت بناءه متماسك الأركان مثل : البداية القوية ، وازدياد قوة الدفع في الوسط ، والنهايـة القوية ، ولحظات التنوير التي تمنحنا الرغبة لمعرفة ما سوف يكون ، وامتدّ بنا الفضـــاء الجغرافي وكذلك الفضاء الدلالي ، لتحديد طبيعة الشخصية ومستواها الاجتمــــاعي ، والمفارقة ما بين اتساع الفضاء الداخلي وضيق الفضاء الخارجي ، وأما الترتيب الزمني

فقد استطاع الكاتب أن يتلاعب به عن طريق الخطف خلفا (الفلاش باك) ، وجـــاء الحوار بلغة تحاول التوفيق بين العامية المحلية والعربية الفصحى ، على أن هذه العاميـــة خدمت الرواية ولم تمس بجوهرها ، كما أنه لم يكن منها ضرر .

ويظهر الحب سيد المواقف ، وهو على طريقة ابن حزم " معاني الحب دقت لجلالتـها أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة " فهو حب عملـــي يظـــهر في تصرفـــات الأبطال أكثر من أقوالهم ، لأنه حب حقيقي بني على أسس راسخة وتربية متينة .

ويظهر لنا العطاء والتفاني والتسامي فوق الآلام في صور باقات من الورود ، ومـــع الورود لابد وأن ترى بعض الأشواك ، حيث الضد لا يظـــهر حســـنه إلا الضـــد ، فالأبطال يتصفون بالشهامة والرجولة والفداء والتفاني في سبيل الخير ، ومع ذلك فـــهم يتمتعون بقدرات فكرية وعلمية خارقة ، تجعل أحدهم يقدم رسالتي دكتوراه في فرعـين مختلفين من الفنون والعلوم في آن واحد وبنفس الفكر ، ومن خلال موضـــوع بحـــث متصل ، قد لا يكون هذا ممكنا في الحياة ، وربما في عالمنا العربي على وجه التحديـــد ، لكن المؤلف استن لنفسه قاعدة الخروج على مألوف ما تلقيناه مـــن معرفـــة ، ومـــا حفظنـــاه من نظم وسياسات وقرارات ، قد تصل في بعضها من الجمود إلى الدرجـــة التي قد تقـــتل الإبداعـــات ، وتقضي على التفوق .

وأما بطلات الرواية ، فقد آثر المؤلف إلا أن يكن مخلصات وفيات ، مـــن النـــوع الإسلامي الفطري التقليدي ، تشبعن بالشعور الديني ، حيـــث الله هـــو الرقيـــب ، وبـــذلك فلا يكون الحب إلا لرجل واحد ، وغيره يكون مستحيلا ، ويكون النظـــر إلـــى غير الزوج من أكبر المحرمات ، عقابه عند الله الرجم .

ولا غرابة أن تكون للغيرة مكانتها – فهي السمة الغالبة في عالم النساء – لذلـــك تراها تحرك كثيرا من أحداث الرواية ، ولكن بحدود تجعل للرجال قوامتهم ، وتقـــف عند حدود شرع الله .

ومهـما يكن من أمر فقد استطاع المؤلف ، أن يصور الإنسان في قمة إنسانيته وعطائه ، في مجتمع المؤامرات والأزمات التي تحيق به من كل جانب ، وأن يبرز القيم والمبادئ بأنها بضاعة غالية ، وأن يبرز الأخوة والصداقة وسائر العلاقات البشرية ، وأن يبرز قبل ذلك كله دور الدين المحرك الأساسي لمكارم الأخلاق وأفاضل القيم . صور هذا كله بأسلوب سهل بسيط ، تميز بالعفوية وعدم الكلفة ، وتخالطه الكلمات الدارجة في كثير من المواضع ، ويتخلله حوار عامي أغرق الرواية في الواقعية إلى أذنيها ، مما حشرها في نطاق الإقليمية الضيقة ، إلا أن القارئ لا يقوى إلا على مسايرتها ، لأسلوبها السهل الخالي من العقد والتعقيد دون ملل أو كلل ، ودون أن تتاح له الفرصة للتفكير فيما كان يجب أن تكون عليه اللغة ، ولا التأمل في مدى دقة التعبير .

وأخيراً فهذه لمحات سريعة ، حول عمل فني راق وأديب متميز ، يستحق منا أكثر من ذلك .

والله ولي التوفيق

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

جابر حمدان محمد

ماجستير نحو وصرف - جامعة دمشق

أستاذ في الأدب العربي

أشجار البروتين
رواية من تأليف محمود عبد العزيز فرج

المحتويات

١- الاكتشاف

ظهرت صحف الصباح ، وقد تصدرت عناوينَها أخبارٌ عـــن اكتشـــاف مثـــير ، أشـــارت إلى أنه سوف يقضي على الجوع في العالم ، وأعلنت عن عقد مؤتمر صحفـــي في اليـــوم التـــالي في قاعة المؤتمرات الكبرى تحت إشراف الجامعـــة والجـــهات العلميـــة والتنفيذيـــة الأخـــرى ، ولم يزد الخبر على ذلك ، مما يثير الكثير من التساؤلات الـــتي يرغـــب القـــارئ المتخصـــص – وربما غير المتخصص – لمعرفته ، حيث أن الخبر يهـــم الجمـــيع محليـــا وعالميـــا .

هذه هي سمة الجرائد اليوميـــة ، أمـــا نحـــن (محـــرري المجـــلات) فلنـــا دور الفحـــص والبحث والتمحيص لتقديم الخبر كاملا للقارئ ، وعلى هذا كـــان لابـــد لي مـــن التعـــرف على إجابات لمجموعة من الأسئلة مثل ، مـــن ؟ ومـــتى ؟ وكيـــف ؟ إلى آخـــره . والســـؤال الأكثر أهمية من كل ما سبق من أسئلة ، هو من أيـــن أبـــدأ ؟

ورأيت أن أبدأ بالذهاب إلى قاعة المؤتمرات ، ذلك أن المؤتمر ســـوف يعقـــد هنـــاك ، ولا بـــد من وجود خيط يوصلني إلى إجابات قد تكون مناسبة للأســـئلة العديـــدة الـــتي تمـــلأ رأســـي ، وغيرها الكثـــير مما يملأ فضولي الصحفـــي . ومـــا أن واتتـــني هـــذه الفكـــــرة ، حـــتى وجدتني أوجه السيارة إلى قاعة المؤتمرات ، ولـــم يخب ظني ، فمـــا أن ســـألت عـــن صـــاحب الاكتشاف المثير ، حتى اتجـــهت الأصابع إليـــه ، هنـــاك ، يقـــف في ركـــن مـــــن القاعة ، وقد أسند جسده إلى الحائط واستغرق في تفكـــير عميـــق .

أخذت أتابعه من بعيد . ليس له شكل العلماء ، فغالبيتهم قـــد أكـــل النـــهم للعلـــم كـــل مدخرات الغذاء السابق و اللاحق ، أما هو ، باسم الله ما شاء الله ، تكـــور جســـمه علـــى مـــا يحتويه من خيرات الله ، من شحوم ولحوم تكفي أكثر من عائلة لمدة تزيـــد عـــن أســـبوع .

أيعقل أن يكون هذا ال.. "رإلا بلاش " فكثيرا ما نخطئ الحكم علـــى البعـــض ، إذا أطلقنـــا لأنفسنا الحق في تعميم الأحكام . اقتربت منه بشيء من الحذر ، فقـــد شـــعرت برهبـــة صمتـــه ولم أشأ أن أخاطر بمقاطعته ، وحانت منه التفاتة ، فوجدني أمامـــه ، وقبـــل أن أبـــدأ الحـــوار ، راح يتفحصني ، وكأنما يستشف مطلبي فبادرته قبل أن تذهـــب بـــه الظنـــون .

- " أحمد الجوهري .. صحفي من مجلة كـــل العلـــوم ."

أجاب وقد تجهم وجهـــه :

- "تشرفنا يا سيد أحمد .. ربنا يجعل كلامنا خفيـــف عليكـــم . . "

حاولت أن أخفف من حدة اكتئابـــه :

- " سيادتك واخد فكرة حلوة عنـــا . "

فقال معاتبـــاً :

- " هي مش فكرة .. ولكنه .. سمه عتاب ."

علقت بهـدوء :

- " زى بعضه ، أنا فاهم قصدك ، ويمكن هذا اللقـــاء يغـير بعـض الشـيء من فكرتك عنـــا . "

قال مبتســما :

- " أرجو هـذا . "

أخرجت كتيب الملاحظات من الحقيبة ، والقلـــم ، وشمـــرت عـــن ســـاعديّ ، وكأنمـــا أنـــا مقبل على معركـــة :

- " نبدأ كما هو الحـــال دائمـــا .. س ؟ "

ولم ينتظر ، أجاب وكأنما هو يعـــرف الســـؤال :

- " الاسم .. سعيد الخوجه – مصري – بكـــالوريوس علـــوم ، وماجســـتير .. أمـــا عـــن السن .. فسأترك لك تقديـــره .. "

ولم أشأ أن أثقل عليه ، فقلت مداعبـــاً :

- " لا داعي .. أعتقد أن عمر الإنسان يقـــاس بالإنجـــازات ، وســـوف يتحـــدد ذلـــك في مؤتمر الغد إن شاء الله . وأدعو الله أن يرتفع قدرك بما يتناسب مع مـــا تقدمـــه للبشـــرية مـــن اكتشافات وعندما يكتشف العالم عمرك الحقيقـــي ، ربمـــا تدخـــل ســـجل جينـــس للأرقـــام القياســـية .. "

وهممت أن أوجه أسئلتي ، لكنه كعادة العباقرة ، الذين يعرفون ما تريده قبل أن تعلن عنه ، فأجاب بهدوء ، محاولا تجميع أفكاره ، أو لعل هناك ما يشغله ، فانصرف للتفكير فيه ، قبل أن تهاجمه أسئلتي اللحوحة .

- " لقد رتب لي أساتذتي في الجامعة المؤتمر الذي تقرر عقده غداً لمناقشة هذا الاكتشاف .. ولعل سؤالك الأول هو عن طبيعة هذا الاكتشاف الذي لم يعلن عنه حتى الآن .. "

وأجبته بحذر مفاكهاً :

- " هذا ما جاء بي .. حقيقة .."

أطرق برهة .. وداعب غليونه حتى أتم إشعاله .. وكأنما هو يجمع أفكاره :

- " معلهش اصل دي أول مرة الصحافة هي التي تسعى إلينا – لكن .."

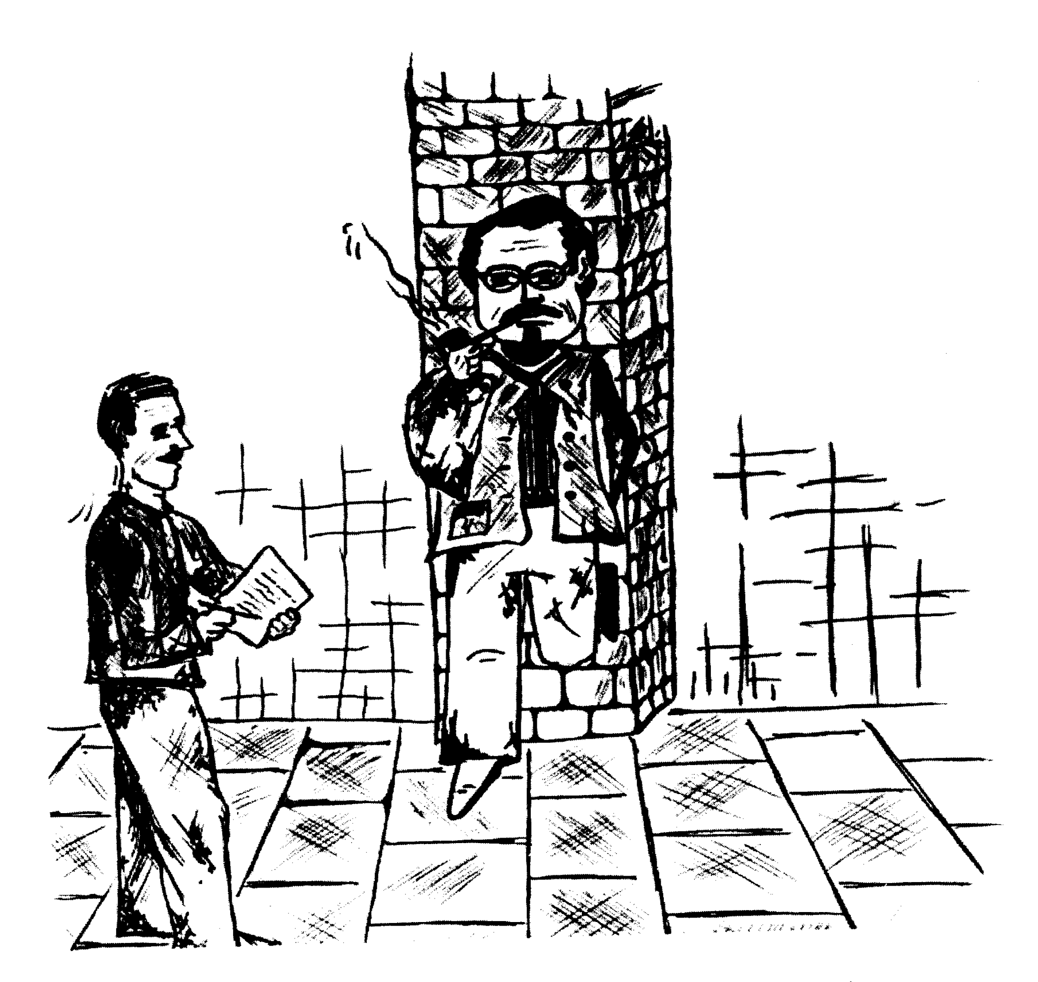
وبادرته قبل أن يكمل على أمل إزالة ما قد ظننته رهبته من الصحافة :

- " سعادتك .. خد راحتك .. اعتبرنا أصدقاء ."

أجاب كما لو لم يكن قد سمع تعليقي :

- " لقد توصلنا إلى نوع من الأشجار التي تحتوى على نسبة عالية جدا من البروتين ، بما يمكن أن تسميه قضاءً نهائياً على مشكلة نقص اللحوم ، ويعتبر فتحاً جديداً في عالم الغذاء ، وغداً إن شاء الله تعرف كل شيء في المؤتمر . . "

هذا معناه إنهاء اللقاء .. وما أن هممت بالاعتراض بتوجيه بعض الأسئلة التوضيحية ، حتى أسرع يلبي نداء منسق المؤتمر ، ناقشه في بعض الأمور التي أنهاها سريعا ، بينما اتجه مهرولا إلى الباب الخارجي ، ووقف أمام شخص لم أره من قبل .. احتضنه .. وقبل رأسه ووجنته ، وتهاوى على يديه محاولا تقبيل أي منهما ، بينما الآخر يحاول التخلص منه ، موجهاً إليه نظرات عتاب .. أو ألم .. أو مرارة وأسى ، وتركه وانصرف ، ولاحظت بعض العبرات في عيني عالمنا الهمام ، فوجدت أنه لا مجال لمزيد من الحديث .



وحانت منه التفاته ، فوجدني أمامـــه ، وقبـل أن أبـدأ الحـوار ، راح يتفحصـني ، وكأنمـا يستشف مطلـبي

٢- المؤتمر

حرصت أن أكون من أوائل الحاضرين ، لم يكــن هنــاك ســوى منظمــي المؤتمــر ، والعــالم سعيد ، هكذا كان يناديه الجميع .. وبما أننـــا في مصــر ، والألقــاب هامــة ، فقــد كــانوا يطلقون عليه سيادة العالم ، سيادة العالم جاء .. سيادة العــالم راح . وبــدأت أفــواج العلمــاء في الحضور ، الجميع متلهف لمعرفة ذلك الاكتشــاف الــذي سيغــــيــر وجــه البشــرية ، وربما يكون له أثر في الكثير من المفــاهيم العلميــة .

الأنوار تغمر المكان ، وقد تم تحديد مقاعد العلمــــــاء ، وكلمــا دخــل عــالم جليــل اتجهت إليــه الأنظار ، حتى يجلس في المكان المخصــص لــه ، ســواء المقــاعد الأماميــة ، أو منصة المناقشة والمتحدثين ، ثم المصافحة بإجــلال واحترام ، بإيمــاءة مــن الــرأس ، أو بنظــرة وُدٍّ تعبر عن سعادة الرؤية بعد طول غياب ، ومحاولة لتحديد لقــاء بعــد المؤتمــر ، إنهــا لغــة جديدة ، لا يفهمها إلا أربابها ، فلا هي لغة كلام ، ولا لغة صم ، وإنمــا لغــة علــم ، الكــلام يصمت ، والعقول هي التي تتكلم . وتعجبــت ، إن الأقــلام تظلمــهم ، والأفــلام كذلــك دائما تظهرهم في شكل مختلف عن باقي خلق الله وقد تناسوا أنفســهم فــهم غــير مــهندمين ، وقد طال الزمن والنسيان كل شئ ، الملابــس باليــه أو تكــاد اللحــى طويلــة أو تكــاد .. الشعر غير مهندم أو يكاد ...كل شئ يدخل من هذا الباب ، وقــد يتــم تصويرهــم باعتبــار ما اكتسبوه من عادات غربيــة ، الغليــون أو الســيجار ، والكلمــات الــتي يتخللــــها الكثير من التعبيرات الأجنبيــة ، والتحذلــق في الملابــس وكذلــك في الكــلام .. وكأنــه لا يكون عالماً إلا من تتلمذ على أيدي الأجانب ، ولا يكــون عالمــاً إلا إذا تشــبه بهــم . أمــا سيادة العالم سعيد الخوجه .. إنه بدون شك لا ينتمــي إلى أي مــن الفريقــين ، فهــو فريــد في وصفه ، البطن الممتلئ ، والشعر الأشعث غير المهندم بالرغم مــن كونــه عريــس الحفــل ، والملابس عاديه تضرب إلى سنوات قليلة مضــت لكنــها مهندمــة ، ولكــن هنــاك الغليــون الذي لا يفارقــه .

واكتملت المنصة بالمناقشين والمعلقين والباحثين والمنسق ورئيــس المؤتمــر ، والكــل .. الكــل تلميذ في وقار العلم وجلاله لا فرق في ذلك بين دارس وأســتاذ ، شــاب وشيــخ ، رجــل وسيده ، رجل دين ورجل دنيا ، وقد يكون للعسكريين نصيــب في الحضــور ولكــن بــالزي

المدني ، فلا عسكرة في العلم ، والعلم يجلل الإنســـــان بوقار وفخـــار وتواضـــع ، تنســـى معه أنك أمام عالم كبير ، وربمـــا يمر وقت طويل قبل أن تكتشـــف مـــن هـــــو إلا إذا قُـــدِّم إليك بالاسم واللقب العلمي . وقد اندس بين الحاضرين الكثـــيرون مـــن رجـــال الأعمـــال ، فقد يكون لهم فيما يتم عرضه نصيب لاستثماراتهم ، وكذلـــك بعـــض أدعيـــاء العلـــم ، ممـــن تراهم في كل مناسبة علمية وقد حضروا بالأوصاف التي ســـبق ذكرهـــا ، ويعمـــد إلى تعريـــف نفسه باسمه مسبوقا بلقب دكتور أو بروفيســـــور ، وهـــم لا يتحدثـــون إلا بعـــد أن ينتـــهي حديث العلماء ، فيقومون بالتحليل مرددين العبارات ذاتها الـــتي قيلـــت ولكـــن بطريقتـــهم ، وهؤلاء من أطلـــق عليهم تعبير ببغـــاوات العلـــم . .

بدأ المؤتمر بالقرآن الكريم ، واســـتمع الجميـــع وأنصتـــوا في خشـــوع ، ثم تـــولى المنســـق تقديم رئيـــس المؤتمر ، اسما ولقبا ووظائف علميـــة وعمليـــة ، وتـــولى رئيـــس المؤتمـــر تقـــديم العالم سعيد الخوجه .. مع بعض التقريظ الذي كان له أثر جميـــل في رفـــع معنوياتـــه ، إلا أنـــه أخجل تواضعه ، إضافة إلى أنه خجول بطبعه ، حيث يبدو ذلك مـــن انطوائـــه علـــى نفســـه ، وبدأ أطروحتـــه :

- " أساتذتي الأفاضل علماء هذا الجيل والأجيال القادمة ، إخـــواني شـــباب اليـــوم ، علمـــاء المستقبل ، السادة الحضور الكـــرام ."

وعلقت هامسا .. وكأنما وددت لو تسمعني الســـيدة الجالســـة إلى جـــواري :

- "وماذا عن النصف الآخـــر ؟ "

بينما العالم مسترســـلاً :

- " الشكوى التي بدأت تعلو نبرتها هذه الأيـــام ، وربمـــا هـــي موجـــودة قـــدم الوجـــود ذاتـــه .. نقص الطعام ، ويتحدد هذا النقص على وجه الخصـــوص فيمـــا أسمـــوه دول العـــالم الثالث في نقص البروتين ، ذلك النقص الذي يعزى إليه التخلـــف الـــذي تتوارثـــه الأجيـــال في هذه الدول . ولابد للعلمـــاء أن يقدمـــوا الحلـــول المناســـبة علميـــا وعمليـــا لمشـــاكل بلادهـــم ، فالعلم غالبا ما تكون لديه الحلول المناسبة للكثـــير مـــن المشـــاكل والصعـــاب وإن جاز لي القول ، بأن معركة البقاء هـــي المعركـــة الحقيقيـــة والطويلـــة الـــتي نواجههـــا

وتواجهها كذلك جميع شعوب المنطقة ، وشقها المدني يتركز في تدبير المعيشة الطيبة لأبناء هذا الوطن الحبيب إلى قلوبنا . "

وصمت قليلا كأنما هو ينتظر أن تلتهب الأيدي بالتصفيق الحاد الذي استشرى بين جميع الحاضرين ، لعله من رجال السياسة ، إن طريقته في الخطابة تتماثل مع طريقتهم ، فلنرجئ هذا للمستقبل حتى لا نخطئ في حقه أو نسئ الظن به . وبعد أن انتهت موجة التصفيق الحاد ، استطرد في حديثه :

- " ومع صغر المساحات المزروعة ، ومشكلات الجفاف التي تبتلى به المنطقة من حين لآخر ، ولعلنا نذكر أن أول جفاف في مصر حدث أيام نبي الله يوسف عليه السلام ، والتصحر الذي بدأ يأكل الأرض الخصبة ، إضافة إلى الزحف العمراني على حساب المساحات الخضراء ، فضلا عن ارتفاع منسوب المياه الجوفية بها ، وزحف البحار وتآكل الشواطئ ، كلها معارك شرسة ، على العلماء خوضها بكل ما يملكون من إمكانيات علمية وفنية وتقنية ، ولا بد للعلم أن يقدم لها حلولا عملية ، وبالرغم من حصيلتي العلمية المتواضعة ، فقد لعبت الصدفة وحدها دوراً كبيراً في هذا الاكتشاف ، حيث وقع في يدي هذا الكيس . . . "

وأخرج كيساً من القماش من مكان ما أسفل الطاولة ، ووضعه أمامه ، قام بفتحه بتأنٍ ربما كان متعمداً ، ثم أخرج منه مجموعةً من الأحجار على شكل حلقات تشبه أجزاء من فرع شجرةٍ متحجرةٍ ، ولكنها أحجار ، ثم استطرد :

- " هذه الأحجار أيها السادة والسيدات ، هي في مفهوم علماء الجيولوجيا أخشاب متحجرة ، لكنها ليست ككل الأخشاب ، إنها أخشاب متحجرة لأشجار أسميتها " أشجار البروتين " ولأبرهن لكم على ذلك ، هذه مجموعة من تلك الأحجار ، أضعها في هذا الإناء الذي يحتوى على " مياه شرب عاديه " وسأتركها لمدة عشر دقائق ، أترك خلالها المجال لأخي الباحث الجيولوجي مصطفى الخوجه ، ليحدثنا عن كيفية اكتشافه لتلك الأحجار ."

وضجت القاعة بتصفيق حاد للأخوين ، باحث العلوم وباحث الجيولوجيا ، وبكياسة المتمرس ، تمكن منسق المؤتمر من تهدئة التصفيق ريثما يتمكن مصطفى الخوجه من إلقاء بحثه :

- "بسم الله الرحمن الرحيم ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، صدق الله العظيم ، لطالما سحرنا ونحن طلبة ، ذلك البحر العظيم من الرمال ، الذي يعتبر بحق أحد أهم الموانع الطبيعية التي حبانا الله سبحانه وتعالى بها ضمن ملايين الملايين من النعم ، فكثيراً ما قرأنا عن جيوش حاولت محاربتنا من الصحراء الغربية ، وكان هذا البحر مقبرتها ، ولذلك فإنه بمجرد تخرجنا من الجامعة ، بدأت تراودنا أحلام التعرف على طبيعته ، ماذا يحوى ؟ ما هو سره ؟ كيف تكون وما هي أبعاده ؟ وما هي إمكانيات الاستفادة من رماله ، وما هي الثروات التي يمكن أن تكون مطمورة بداخله ؟ وراودتنا أحلام أكثر تفاؤلا ، لعله يحوى فيما يحوى كنز الإسكندر الأكبر .

- " إنه سر كبير من الأسرار التي تغرى أي باحث جيولوجي بمحاولة التعرف عليه والكشف عن أسراره ، لذلك فقد كونا فريقاً منا نحن خريجي قسم الجيولوجيا ، خلال فترة انتظار خطابات التعيين في الأجهزة أو الشركات الحكومية ، والتي لا يعلم إلا الله متى تصلنا ، خاصة وأن أغلبنا تقديراته " مقبول" والمقبول في التخرج .. غير مقبول في سوق العمل أو الدراسة ، وما وصل منها للبعض منا كان في جهات ، غالبا ما لا يكون لها علاقة بمواضيع دراستنا ..."

وعمت القاعة ابتسامة صوتها مسموع ! ابتسم لابتسامات الحاضرين ، ثم أكمل :

- " كنا نخرج في مجموعتين ، كل مجموعة في سيارة ونذهب لمدة شهر أو أكثر للبحث والدراسة ، وجمع العينات ونعود إلى المراجع ، ونسأل أساتذتنا ، ونقوم بعمل التحاليل ، حتى تكونت لدينا الآن بداية طيبة لموسوعة جيولوجية عن الصحراء الغربية ، وعلى وجه التحديد ، المنطقة المحيطة ببحر الرمال العظيم ، فقد أردنا التعرف على المنطقة المحيطة به أولا قبل النزول إليه ، ومعذرة لنظرات التهكم التي كان يستقبلنا بها أساتذتنا في بداية الأمر ، كلما حاولنا السؤال عن أي شئ يخص

هــذا الموضوع ، لذلك لم يكن أمامنا إلا الاعتماد على أنفســـنا في كــل شـــئ ، وعلـــى ما تقع عليه أيدينا من مراجع علمية ، وما يصل إلينا من نشـــرات الجمعيـــات العلميـــة والجيولوجية التي اشتركنا فيها محليا وعالميـــا ، ثم نعـــرض عليـــهم خلاصـــة مـــا توصلنـــا إليـــه ، مما كان يثير دهشتهم ، إذ كيف لهذه المجموعـــة مـــن الطلبـــة الفاشـــلين ، ذلـــك التميز ، ورويداً رويدا ، كانوا يتسارعون في إمدادنا بكل ما نســـأل عنـــه ، بـــل ويزيـــدون بالمعلومات الهامة لما قد يعنّ لنا أن نسأل عنها فيمـــا بعـــد ، ولا نـــبرئ أنفســـنا ، ففـــي الحقيقة أننا كنا مجموعة من الطلبة المشاغبين ، وكـــان للغالبيـــة العظمـــى مـــن أســـاتذتنا فينا رأى صريـــــح جارح ، ولكنهم كانوا علـــى حـــق . "

ولاحظت الضجر الذي بدأ يتسلل إلى الجميع ، خاصة أســـاتذة الجامعـــات ، لـــولا عبارتـــه الأخيرة التي ألقت باللوم على أنفسهم ، إلى جانب الصراحة والتشـــويق الذي لا يخلـــو مـــن بعض المفاكهة مما أدى إلى التسامح فيما أهدر مـــن وقـــت .

أشار إلى منسق المؤتمر إشارة خاصة ذات معـــنى ، فـــإذا بالإضـــاءة تعتـــم كثـــيرا ، وشاشـــة عرض كبـــيرة تظهر بجوار المنصة في مكان يمكن للجميـــع مشـــاهدتها ، وإذا بفيلـــم يعـــرض ، وقد بدأ بتحديد طريق ظهرت علاماته على أنه طريق السلوم ، وعنـــد إشـــارة الطريـــق الـــتي تبين المسافة الباقية ، بدأت الصورة تهـــتز اهـــتزازاً عنيفـــا ثم اختفـــت ، لكنـــني لاحظـــت أن التاريخ كان ١٢/١٠/١٩٩٢ – الساعة الثالثـــة وبضـــع دقـــائق ، لم أتمكـــن مـــن قراءتهـــا ، خاصة وأن الباحث الجيولوجي بدأ التعليق بصوت حاول جـــهده أن يكـــون ناعمـــا ، حـــتى لا يفاجئ الحاضرين الذين تركز انتباههم فيما يـــرون مـــن أحـــداث تعلقـــت حواســـهم بهـــا ، ومعها ، والرغبة في المعرفة تطغى على كل شـــئ :

- " انهار بنا الطريق ، وانزلقت السيارة دون سلطان مني عليـــها ، والســـيارة الأخـــرى التي كانت تسبقنا اختفت عن الأنـــظار ، ليست هي فقـــط ، بـــل جميـــع الســـيارات ، وبصعوبة استطعت السيطرة وحفظ التـــــوازن حـــتى اســـتقرت الســـيارة في مكـــان لا ندرى فيه أين نكـــون .. هـــل احتوانـــا بحـــر الرمـــال ..؟ كيـــف والشـــمس فوقنـــا ترســـل أشعتها ؟ فتصور البعض أنها ربما لا تكون شمســـنا .. آه .. إن لأفـــلام الخيـــال العلمي أثر كبير ليــــس فقط على صغار الســـن .. أو لعلـــــه الهذيـــان . وكـــان

لابد لنا من التحكم في أعصابنا ، فلو فقدنا الأمل ضاع كل شئ ، وتولينا تهدئة بعضنا البعض ، كل أدلى بدلوه ، والإيمان بالله سبحانه وتعالى هو خير ملاذ في مثل هذه الظروف ، يجنب الإنسان المهالك ، فإذا كان هذا هو قدره المحتوم ، فلم الخوف ..؟ وحفزهم على استغلال الفرصة ، وجمع أكبر قدر ممكن من العينات عن هذه المنطقة الجديدة علينا ، ودليلنا في هذا ، الذي يجنبنا الوقوع في بحر الرمال ، ويحافظ علينا من الحشرات والزواحف واللصوص ، وأشياء كثيرة أخرى .. هو كلبي مخلص ، تفحصنا الأجهزة ، وتفحصنا أنفسنا ، واعتمدنا على الله ، وفي يقيننا أن المجموعة الثانية لابد وأنها باحثة عنا .. هذا إذا لم يكن قد أصابها ما أصابنا ، وقمت بربط مخلص بحبل طويل ، ثبت طرفه تحت إحدى الصخور ، وهو يعرف مهمته جيدا ، وإذا تعرض لمكروه ، أو أصابه شئ ، أو اكتشف جديداً ، أو شعر بخطر.. أطلق أداة التحذير لديه ، نباحه " .

وعاد الإرسال .. أقصد الفيلم حيث ظهرت الصورة .. بينما مصطفى مستمر في التعليق :

- " أقبل الليل ، ولليل عدته من خيام وأكياس نوم وخلافه .. وفى الصباح بدأنا رحلة البحث ، وجمع العينات والتدوين ، ومخلص يسبقنا ونحن خلفه والحبل في يد واحد منا ، فإذا بدأ الغوص ، أخرجناه وبحثنا عن مسار آخر ، واستمر أول يوم على هذه الحالة ، وتبعه آخر ثم ثالث .. وهكذا . وفى اليوم الخامس أفطرنا بآخر ما تبقى لدينا من كسرات خبز وفتات جبن وآخر رشفة ماء ، وتغير الهدف .. فلم تعد العينات ، ولا الطريق ولا إصلاح السيارة ، هو شاغلنا .. لكنه الطعام .. إنها منطقة جدباء .. لا ماء فيها ولا حياة .. تحركاتنا محسوبة بدقة ، وإذا بمخلص يجرنا جراً إلى مكان ، اكتشفنا أنه كما الواحة الصغيرة ، بضع نخلات وحفرة بها ماء ، ليست بترا ولا جدولا ، ولكنها قد تكون بقايا مطر الشتاء ."

الحقيقة أن تعليق مصطفى في هذه المشاهد كان له أهمية محدودة ، فالصورة واضحة ، ولم تترك شيئاً دون تسجيل ، لكن التعليق كان توضيحاً أكثر للصورة :

- " حمدنا الله ، فها هو الماء .. ونظرنا إلى أعلى النخلة فوجدنا ثماراً تبدو طازجة إلى حد ما ، أصابها بعض الذبول ، حيث أن موسم البلح انتهى ، كما توجد بعض الثمار المتيبسة التي يستدل منها على أن المكان مهجور ، وأن النخلات ليست ملكاً لأحد ، وبسرعة البرق اندفع أحد الزملاء صاعدا إحداها ، وأخذ يلقى إلينا ببعض ثمرها ، بينما آخر يملأ أوعية الماء ، وثالث يجمع الثمار .. أما أنا ، فقد اصطحبت مخلصا عله يعثر لنا على صيد ، ولم يخب ظني ، فقد سكن فجأة خلف إحدى النخلات ، ثم انقض على أرنب كان قادماً إلى حفرة الماء ليشرب. وأخذت الأرنب ، ثم تفحصته حتى لا يكون أما ترضع أطفالها ، فاستقبلنا الزملاء بالبهجة والسرور وكأنه عرس ، وشمر كل منا عن ساعده ، وتولى عملا يتقنه ، فقمت أنا بالذبح والسلخ والتقطيع ، وتولى آخر التنظيف ، وثالث جمع الصخور وإعداد "كانون" الشواء ، وقام الرابع بإحضار الحطب ، وقمت أنا بإشعاله .."

وانطلقت أصوات انفجارات ، وظهر وميض خافت احتجزته أنوار النهار .. واختفت الصورة لفترة قصيرة ظهرت بعدها وهى تركز على كانون النار ، والشرر يتطاير منه وأصوات الانفجارات مازالت تدوي .. إنها ليست أصوات انفجارات بالمعنى الحرفي .. ولكن دعنا نقول إنها تشبه أصوات فرقعة ألعاب الأطفال النارية ، وأكمل مصطفى موضحا :

- " سمعنا أصوات انفجارات خفيفة ، ورأينا شظايا تخرج من "الكانون" وظننا أننا في حقل ألغام ، أو أن هناك بقايا طلقات أو ما شابه ذلك ، فانبطحنا أرضا ، بينما الانفجارات مازالت تدوي ، ورائحة شواء تفوق كل تصور تملأ المكان ، وكان لذلك غرابته ، فإننا لم نضع صيدنا على النار بعد ، ونبح مخلص لينبهنا إلى أن رائحة الشواء والانفجارات تنبعث من " الكانون " ، ورأينا عمودا من الدخان يتصاعد من الحجارة التي أعددنا منها الكانون ، التقطت قطعة منها ، وشممتها ، فثبت لنا أنها هي مصدر الرائحة ، سكبت عليها بعض الماء ، وذهبت أنا ومخلص نجمع أكبر قدر ممكن من تلك الأحجار ، وعندما عدنا .. فوجئت بمخلص يتشمم قطعة الحجر التي ألقيت عليها الماء ، وإذا بها في لون اللحم ، التقطتها فإذا

هي طرية ومتماسكة كما اللحم تماما .. قطعت منها قطعة بالسكين وألقيتها إلى مخلص ، فتشممها قليلا ثم التهمها ، ألقيت إليه أخرى ، وثالثه ، وأصبح من المؤكد أن لهذه الحجارة علاقة باللحوم ، وأنه ربما حان الوقت أن نصبح من المشاهير وندخل التاريخ من أوسع أبوابه بهذا الكشف المثير عن أحجار البروتين ."

وانتهى الفيلم الذي ركز في نهايته على مخلص وهو يلتهم قطع الحجارة اللينة التي يلقيها مصطفى إليه ، وصفق الحاضرون كثيرا .. إلا أن هناك تساؤلات كثيرة تجول في الخواطر .

أعلن رئيس المؤتمر عن شكره للباحث مصطفى الخوجه ، وأعطيت الكلمة للباحث سعيد الخوجه حيث بدأ حديثه بالثناء على أخيه ، مؤكداً على أنه لولا أحجار البروتين التي أحضرها من الصحراء الغربية .. لما كان له أن يكتشف أشجار البروتين ، واسترسل في بيانه :

- " أيها السادة والسيدات .. إذا كان علماء الجيولوجيا قد أثبتوا أن هذه الأحجار هي في حقيقتها نباتات متحجرة .. أو لنقل قطع من أشجار تحجرت .. وإذا كنتم قد لاحظتم أنها تتحول إلى ما يشبه اللحم بعد نقعها في الماء مدة من الزمن .. وإذا كان التصور العام أن تلك الأشجار ، تحتوى على نسبة عالية من البروتين النباتي ، فإن الأبحاث التي أجريتها وحققتها ، وشهد لي بها أساتذتي الكرام وقدمت اليوم لأعرضها عليكم .. هي أن البروتين في هذه الأشجار ليس بروتينا نباتيا .. إنما هو بروتين حيواني ."

وتصاعدت الأصوات بمجرد أن أنهى حديثه تعبيراً عن عدم التصديق.. وأكمل والعرق يتصبب من جبينه ، ويلهث ، وكأنما هو في سباق مع نفسه :

- " أجل .. بروتين حيواني .. وبنسبة مائة في المائة .. بل إن نسبة البروتين في لحاء تلك الأشجار في الطبقة التي تلي القشرة مباشرة تزيد كثيرا عن نسب البروتين في اللحوم الحمراء ، وتأكيداً لهذه الحقيقة إليكم هذه التجربة "

ومال سعيد على المنسق هامسا ، حيث أعطى إشارة لأحد العمـــال الـــذي أســـرع وأحضـــر طبقا به مجموعه من اللحوم المصنعة التي يدخل في إنتاجها كميات مـــن فـــول الصويـــا بنســـب مختلفة ، قد تصل في بعضها إلى أكثر من خمسين في المائـــة ، وأكمـــل ســـعيد :

- " هذه اللحوم المصنعة ، يدخل في تصنيعها إضافات نباتيـــه بنســـب مختلفـــة .. وحـــتى لا يداخلكـــم شـــك ، أرجـــو أن تتكـــرم إحـــــدى الحـــاضرات أو الحـــاضرين بفحصـــــــــها .."

ولما لم يتقدم أحد ، أخرج سعيد قفصا به مجموعـــه مـــن القطـــط ، ووضـــع لهـــا بعضـــا مـــن اللحوم التي بالطبق ، ومن العجيب أن القطط لم تتحرك إلا في محاولـــة للتشـــمم مـــن بعيـــد ، وفى أحسن الأحوال ، محاولة التهام حالما يتم لفظها ، وألقى سعيد بعضـــا مـــن اللحـــوم ممـــا في الطبق إلى مخلص ، فعافها هو أيضا ، فقط هز ذيلـــه دون أن يتحـــرك مـــن مكانـــه ، وأخـــرج سعيد قطع الحجـــارة التي كان قد نقعها في الماء .. وإذا بها قـــد تحولـــت إلى لحـــوم شـــكلا وليونة .. وفجأة تصايحت القطط في سيمفونية مواء .. بينما انتفض مخلـــص مـــن مكانـــه وقـــد اشرأبت أذناه .. وتدلى لسانه لاهثا فيما يعتبر طلبا لنصيبه من تلـــك اللحـــوم ، فـــألقى ســـعيد ببعض القطع للقطط التي انقضـــت عليـــها تتنازعـــها ، وتلتهمـــها بشـــراهة ، وأخـــذ يلقـــى للكلب القطعة تلو الأخرى والكلب يلقفها أولا بـــأول ، ويطلـــب المزيـــد ، والحـــاضرون في عجب مما يحدث ، وفى حركة اســـتعراضية .. أنهـــى ســـعيد العـــرض .. ووقـــف مشـــيرا إلى القطط وإلى الكلب وهم منهمكون في التـــهام قطـــع الحجـــارة البروتينيـــة ، وأحـــنى رأســـه بحركة استعراضية وكأنما هو على خشبة مسرح .. وضجت القاعـــة بتصفيـــق حـــاد .. فـــاق ذلك الذي حصل عليه أخـــوه مصطفـــى ، وانحـــنى ســـعيد محييـــا الجمـــهور الـــذي التـــهب بالتصفيق ليعلن على الملأ بداية عالم في سماء الأمـــن الغذائـــي ، نتيجـــة توصلـــه إلى البـــروتين الحيواني المستخرج من أشجار البروتين ، وتوجه مصطفى إلى أخيه محتضنـــا إيـــاه بكـــل الـــود والحب والأخوة والإعجاب ، والتصفيق يـــزداد حـــدة .. والدمـــوع تـــترقرق في المـــآقي .. والعبرات تملأ العيون ، وبينما الجميع في غمرة الإعجـــاب والدهشـــة .. إذا بمصطفـــى يلتقـــط الميكروفون ويقـــول :

• " نشكر لعالمنا الكبير البروفيسور سعيد الخوجه ، الجهد الكبير الذي قام به حيث أثبت أن نسب البروتين الحيواني في هذه الحجارة عالية جدا ، وقدم لنا تجربته العملية الواقعية ، ذلك أن القطط والكلب حيث الرفض للحوم المصنعة المضاف إليها قدر ولو ضئيل من الإضافات النباتية أقبلت على تلك الحجارة اللينة بشراهة ، ودون أدنى تحفظ ، ولعل ما يثير الدهشة حقا أن مخلصا سبق له التهام هذه الحجارة في الصحراء .. وقد يعزى ذلك إلى الجوع القارص الذي كان يعانيه ، أما الآن .. فلا أعتقد أنه يعاني مما كان يعانيه في الصحراء ، وأما الجديد الذي أريد إضافته ، هو أننا قمنا بتجارب زراعة هذه الأشجار المتحجرة بمعاونة زملاء من خريجي كليات الزراعة ، وقد كلل الله جهدنا بالنجاح ، واستطعنا استنبات واحدة فقط من تلك الأحجار ، وتجرى رعايتها ، ومحاولة استزراع غيرها . "

وأخرج من صندوق صغير معه .. نبتة صغيرة في أصيص صغير ، لها أوراق فاقت خضرتها ما نعرفه من نباتات ، والعروق تمر بينها ضاربة إلى الحمرة وكأنها شرايين وأوردة .

وانطلقت عدسات المصورين ، تصور كل شئ ، القطط وهي تلتهم قطع اللحم الحجري ، والكلب وهو يلقف كل ما يلقى إليه منها .. وسعيد وهو يحيي الجمهور .. ومصطفى وأمامه النبتة في الأصيص الصغير ، التي تبشر باكتشاف كبير لأشجار جديدة اسمها أشجار البروتين .

وأعلن المنسق عن بداية الأسئلة ، وارتفعت الأيدي .. فلما وجد أن العدد كبير ، اقترح أن تقدم الأسئلة مكتوبة ، وسوف يتم تجميع المتشابه منها ، للإجابة عليها باختصار .. ووافق الجميع بينما استغل الباحثان الفرصة للحصول على بعض الراحة .

اقترب سعيد من أخيه الأكبر يستسمحه في غالب الظن لإشعال غليونه ، بينما جرت بعض الحوارات الجانبية اشترك فيها رئيس المؤتمر ، ووردت الأسئلة للمنسق .. فاشترك معه الباحثان والرئيس في تجميعها .. وبدأ رئيس المؤتمر في قراءة الأسئلة ، وقراءة الأسماء التي تقدمت بها ، والجرائد أو المجلات أو الجهات العلمية أو الأفراد ، فقال :

- " السؤال الأول من السيد أحمد الجوهري ، جريدة كـــــل العلـــوم ..الحقيقـــة أنهـــا مجموعة أسئلة "

وقرأ رئيس المؤتمر أسئلتي ، وذكر أسمـــاء الجرائـــد والمجـــلات والهيئـــات العلميـــة والأفـــراد الذين توافقت أسئلتهم معها ، وأعطى الأسئلة للسيد سعيد للإجابة عليـــها ، حيـــث قـــال :

- " التحليل الكيميائي المعتمد من المركز القومي للبحـــوث ومـــن الجامعـــات المصريـــة معي ، ومن يرغب في الاطلاع عليه أهلا ومرحبا ، لكـــن أن يحصـــل أحـــد علـــى قطعـــه من الحجارة ، فأعتقد أن الأمر لم يحن بعد فهناك الكثـــير مـــن التحفظـــات الـــتي تحـــول دون ذلك في الوقت الحـــالي ، على الأقل حتى ننتهي مـــن أبحاثنـــا وتجاربنـــا .. "

وأعطى باقي الأسئلة لأخيه حيث قـــال :

- " نملك شركة صغيرة حصيلتها تكفى احتياجاتنا بالإضافـــة إلى الأبحـــاث الـــتي نقـــوم بها .. ثم أننا لا نعتبر هذه الأبحاث عبئا على ميزانياتنا ، أو حـــتى وقتنـــا .. إننـــا نعتبرهـــا إجازاتنا السنوية التي نقضيها في إرضاء رغبتنا في البحـــث والتحصيـــل العلمـــي . "

وكان السؤال التالي لأحد المراسلين الأجـــانب ، حيـــث ســـأل عـــن الدعـــم الحكومـــي أو الخاص للأبحاث التي يقومون بها ، وتولى مصطفى الـــرد عليـــه :

- " هذه هي المرة الأولى التي نعلن فيها عن أبحاثنا .. فقد آثرنا الصمـــت حـــتى نحصـــل على نتائج تستحق الذكر ، أما عن هذا الكشـــف ، فإننـــا مازلنـــا في مرحلـــة التجـــارب على الحيوانات ، ولن نسمح بتجربته علـــى البشـــر ، إلا بعـــد الاســـتزراع ، وإجـــراء المزيد من التجارب للتحقق من النتـــائج .. "

وكان السؤال التالي من مراسل أجنـــبي آخـــر .. عـــن الموســـوعة الـــتي هـــم في ســـبيلهم لاستكمالها .

- " أيضا لم نعلن عنها إلا اليوم .. ومن المؤكد أنـــه ســـيكون مـــن بـــين الشـــركات أو الأشخاص ، أو ربما الهيئات العلمية ، من يتبنى أبحاثنا ، إذا ثبـــت لهـــم أهميتـــها .. "

فاستأذن المراسل في استيضاح بعض الأمور ، وسمح لـــه رئيـــس المؤتمـــر :

- " لا أدرى ماذا أقول ، ولكن لو كانت مجهوداتكم هـــذه عندنـــا .. أقصـــد في بلدنـــا لكـــان لها ولكم شأن كبـــير .. "

ولم يعلق مصطفى ولكنه نظر إلى أخيه ســـعيد ، وتبـــادلا الابتســـام .. بينمـــا أطبـــق علـــى القاعة صمت قطعته إحـــدى الحاضرات طالبـــة الإذن بـــالحديث .. وســـألت مصطفـــى عـــن طبيعة الأعمال التي يزاولها . فقال بهدوء تبين أنـــه متعمـــد :

- " إنها شركة صغيرة للأعمال المهنية التي لا غنى لأي مـــترل عنـــها ، وهـــى تـــدر لنـــا دخلا متواضعا يكفى احتياجاتنا ويفيض بما يمكننا مـــن القيـــام بأبحاثنـــا . "

واستأذن المراسل الأجنبي حيث سأل عن إمكانيـــة مشـــاركة شـــركات أو دول أجنبيـــة في أبحاثهم ، فقال مصطفى بكياسته الواضحـــة :

- " نحن لا نفهم في الأمور الدولية .. لعله مـــن الأفضـــل أن يكـــون الحديـــث في هـــذه الأمور مع الجهات الحكومية المســـئولة . "

واندفعت إحدى الحاضرات متســـائلة :

- " بروفيسور مصطفى .. حضرتـــك مـــتزوج ؟ وإذا كنـــت .. فـــهل لديـــك أولاد ؟ وإن كان .. فأين هو الوقت الذي تخصصـــه لزوجتـــك وأولادك ؟ "

وأراد المنسق الرد عليها بما يفيد ضرورة إتباع النظـــام .. إلا أن مصطفـــى وجـــد أنـــه مـــن المفيد وقد يكون من الممتع الإجابة على أسئلتها ، فقد يكون ذلك درســـا لهـــا ولكـــل زوجـــة لا تقدر عمل زوجها وتفضل بقاءه إلى جانبها ، تبثه الضجر والنميمـــة ، وربمـــا ينتـــهي الأمـــر بخناقة :

- " لكل وقته يا سيدتي .. وزوجتي تقدر .. وتقدس اهتمامـــاتي العلميـــة .. إلى جـــانب واجباتها كزوجة وأم وهذا هو واجبها الأصلي والأهـــم ، ثم أنهـــا لا تشـــتكى . "

وأكملت السيدة بذات الاندفـــاع والعصبيـــة :

- " ولأنها لا تشتكى .. تتمـــادون !!! "

وتعمد مصطفى أن تكون الإجابة إما بأمثلة شعبية ، أو بحكمة شائعة ، هذا إذا لم يوفق إلى نص قرآني أو حديث شريف :

- " لابد لقاطف الشهد من لسعات النحل . "

واشتركت سيدة أخرى في المناقشة :

- " وهل زوجتك الصبورة .. معك هنا تشهد نجاحك الذي قمت ببنائه على إهمالك لها ؟ "

وأجاب مصطفى بهدوء ، والابتسامة تملأ وجهه :

- " الحقيقة أنها في مملكتها .. بيتها .. وبين رعيتها .. أولادها .."

وقبل أن يستفيض .. انفجرت السيدة في ثورة عارمة :

- " بل قل إنها في قصرك .. جارية لك .. وخادمة لأولادك .."

وأجاب مصطفى بنفس الهدوء ، والابتسامة مازالت .. بل ازدادت اتساعا :

- " كل ميسر لما خلق له ، فلا أنا أستطيع تربية الأولاد ، ولا هي تستطيع القيام بمثل هذه الأبحاث ، كما أن هناك من يساعدها في مملكتها ، فالجهد أكبر من أن تتمكن هي وحدها من القيام به ، فما بالك بمن يتركن بيوتهن لعمل أو لمؤتمر .. إلخ ، ويتركن أولادهن للخادمات أو لإهمال الحضانة المتعمد أو غير المقصود ، أو للشوارع أو لأصدقاء السوء .. "

وأصيبت السيدة ومن معها بالصمت حيث لاحت دلائل بعض الشعور بالتقصير في حق الأسرة والأولاد ، وتدخل رئيس المؤتمر ، معلنا ضرورة الالتزام بالنظام ، ومن يرغب في الاستفسار فليرسل سؤاله مكتوبا إلى المنسق ، وفي موضوع المؤتمر .

وتبادل الباحثان الرد على الأسئلة .. وقد يتدخل رئيس المؤتمر في بعضها شارحا جوانب علمية عامة .. ولم لا ؟ أليس عميدا لإحدى الكليات العلمية ؟

واختتم المؤتمر بسؤال أخير ، عن تفسير لعدم وجود شجر من ذات النوع في المنطقة ، بالرغم من توفر مياه الأمطار كما سبق وأعلن البروفيسور مصطفى .. وأجاب مصطفى :

- " الحقيقة أننا لا نعرف .. ولكننـــا ســنخصص الجولــة القادمــة إن شــاء الله لهــذا الهدف ، حيث سنصطحب معنا خبراء في الزراعة ، وتحليـــل التربــة .. ونقــوم بــالبحث والتحليل لكل ما يمكن أن يدلنا على سبب أو بادرة تعلل لنـــا هـــذا اللغـــز . "

وسمح لمقدم السؤال بالاستفســـار :

- " وكيف تم استنبات تلك النبتـــة ؟ "

وأجاب مصطفـــى :

- " إنها نبتة واحدة من بين أكثر من مائة محاولـــة .. ولـــولا عـــدم انتمائـــها للمعـــروف من نباتـــات هذا العالم في عصرنا الحالي .. لما أعلنا أنها مـــن أشـــجار الـــبروتين . "

وكان الجهد قد نال من الباحثين ، وكذلك الجمهور .. فقـــد اســتمر المؤتمـــر لأكـــثر مـــن ثلاث ساعات ، وبعد أن انتهت الأسئلة المكتوبة ، أعلـــن رئيـــس المؤتمـــر عـــن أيـــة أســئلة أخرى .. وبدأت بعض الأسئلة الشفهية الهامة الـــتي جذبـــت الانتبـــاه ، ثم فرضـــت الأســـئلة الشخصية نفسها مرة أخرى ، ربما بعـــد أن اســتعادت تلـــك النســـوة تنظيـــم أنفســـهن ، وتطور الأمر إلى هجوم جديد على مصطفـــى بشـــكل مكثـــف ، فـــأعلن رئيـــس المؤتمـــر ختامـه .

وتجمع عدد من المهتمين حول الباحثين لاســـتكمال مـــا طـــرح مـــن استفســـارات ، وهمـــا يجيبان برحابـــة وسعة صدر ، وانفض الجميع ، فتقدمـــت مـــن مصطفـــى أعرفـــه بنفســـي ، وأستأذنه في أن أسأله سؤالا شخصيا خشـــيت أن يحرجـــه :

- " أعذرني في هذا السؤال .. لكن ما بال هـــؤلاء النســـوة ؟ "

وأجاب بابتسامة كبيرة .. وبدون تحفـــظ :

- " كل يبكي على ليـــلاه "

لقد زاد الأمر غموضا !! فســـألته مســـتوضحا :

- " إسقاط لمشاكلهن الأســـرية ..؟ "

فأجاب بهدوء ، لكنه في الحقيقة فجـــر بركانـــا :

• " أو لتقل .. تار بـــايت .."

فتساءلت متعجبـــا :

• " تعرفـــهن إذا !! "

وأجاب مبتســـما :

• " ويعرفنـــني .. "

هذا هو اللغز عينه ، هذا الرجل وراءه سر كبير .. آه لو أتيحـــــت لي الفرصـــة لأعرفـــه .

وركبت سيارتي ، وإلى جواري المصــــور ، وخيــم علينـــا الســـكون ، فقـــد استرســـلت في إعادة كاملة لما حدث ، أحاول فيها ترتيب أفكـــــاري ، وأحـــاول كذلـــك أن أضـــع حروفـــا أبحث لها عن نقاط ، وأحاول أيضا أن أتصور ذلك الحـــدث ، وأصيغـــه في عبـــارات تكتـــب إلى جانب الصور ، حتى يمكـــن أن يخرج إلى القـــراء في العـــدد القـــادم ، تحقيقـــا صحفيـــا ، عن كشف مثير في مجال الأمن الغذائي .. تم على يـــدي عـــالمين مصريـــين ، وهكـــذا أصبـــح العلماء المصريون مصدرا للأخبار والاكتشافات العلميـــــة الـــتي يعلـــن عنـــها في مصـــر ، أي فخر هذا ، وأي مجد نستعيد به أمجاد الأجـــــــداد !! كلمـــا حـــاول المصـــور فتـــح مجـــال للحديث جاهدت نفسي أن أكـــون لبقـــا في الـــردود المقتضبـــــة الـــتي لا تعطـــى مجـــالا للاستفاضة ، فقد سيطرت على كل مشاعري أحداث ذلـــــك المؤتمـــر .

إننا لسنا جريدة يومية ، نطبع الأخبار كما تحدث ، ولكننـــا مجلـــة متخصصـــة في العلـــوم .. وليست علوما بذاتها ، وإنما كـــل العلـــوم ، وهكـــذا .. فـــإن المســـئولية ليســـت ســـهلة ، والمواضيع التي تحتاج إلى إيضاحات أكثر بكثير من تلك الـــتي طرحـــت في المؤتمـــر ، تبـــا لهـــن هؤلاء السيدات اللاتي تسببن في إنهاء المؤتمر بهـــذه الســـرعة قبـــل أن نتمكـــن مـــن الحصـــول على كل المعلومات الهامة ، لكن لا .. لقد قمن بعمـــل جليـــل حقـــا .. أعتقـــد أن مـــا يـــهم القارئ العلمي انتهى بانتهاء العرض الذي قدمـــه الأخـــوان وهـــذا مـــا ســـيقرأه القـــارئ في الصحف اليومية غدا ، أما الجديد المفيد ، الذي يجعل للأخبار حلاوتهـــــا هـــي تلـــك الأمـــور الأخرى التي يمكن منها استنباط العبر ، وأي عبر أكثر مـــــن هـــذه .. أخـــوان كـــان بينـــهما سوء تفاهم رفض معه الأخ الكبـــير مســـامحة الصغـــير، ثم يتـــم الغفـــران في المؤتمـــر . والأخ

الكبير هذا ، إنه في حد ذاته قصة كبيرة ، وراءها أسرار تملأ أكـثر مـن عـدد مـن أعـداد المجلة ، يكفي ما كشفته تلك السيدات بما أسماه هو تـار بـايت .. تـرى مـا هـو ؟ آه لـو أستطيع مقابلته مرة أخرى حتى أحصل منه على السبق الصحفـي الخـاص بحياتـه العائليـة ، هذا إن كان لديه الاستعداد لذلك ، وهذا هو أول الخيـط .. لابـد مـن مقابلـة مصطفـى الخوجـه .

ليس هذا فقط ، بل إن الكشف العلمي في حـد ذاتـه شـئ غـير عـادى .. الكشـف وقصته ، بروتـين حيواني من أشجار البروتين !! ياله من مانشـيت كبـير يجـذب الانتبـاه .. نحن نستورد الحيوانات ، أبقار من أنواع شتى .. فريزيـان ، بـلاك أنـد هوايـت ، رد أنـد هوايت .. إلخ من ألمانيا ، وهولندا ، والدانمرك .. حتى الجـاموس نسـتورده مـن السـودان والصومال .. نستورد الحيوانات مـن كـل مكـان في الدنيـا ، لكـي نـربي ، ونذبـح ، ونقطع ، ونصنع .. إلخ ، أما أشجار البروتين .. فإنها أشـجار تـزرع ، وتسـتمد قوتهـا مـن الأرض والسماد والماء والهواء ، وما أن تكبر ، تقطـع وتصبـح لحمـا حسـب الطلـب .. بوفتيك .. كولد بيف ، أما القشرة .. فقد يمكـن فرمـها بعـد إزالـة طبقـة الشـمع الـتي تكسوها ، وربما لا نحتاج إلى قطع الشجرة كلها ، يكفى قطـع فـرع منـها ، أو ربمـا جـزء من الفرع بحسب الحاجة ، وربما لن نكـون في حاجـة إلى نقعـها في المـاء ، فـهي ليسـت متحجرة ، وربما لن نكون في حاجة إلى وسائل الحفظ الحاليـة .. فالشـجرة يمكـن زراعتـها أمام العمارة ليستفيد منها سكانها ، وكلما احتاج أحـد السـكان لحومـا نـزل إلى الشـجرة فقطع فرعا تقاسمه مع باقي السكان وكل بحسب حاجته ، وربمـا زرعـت في الحدائـق العامـة بدلا من أشجار الزينة التي يتسبب أغلبها في بعـض أمـراض الحساسـية .. فمـاذا يمنـع أن تزرع هذه الحدائق بأشجار مفيدة تسـاهم في الأمـن الغذائـي ، إلى جـانب الجمـال الفـني والذوق العام والأوكسجين الهام والظلال .. إلخ . وقـد تخصـص هـذه الأشـجار للفقـراء والمساكين الذين يقطنون الأحياء الشـعبية ذات الشـوارع الضيقـة جـدا والـتي لا تصلـح لزراعة شئ فيها والذين يطلق عليهم محدودي الدخـل ، أمـا الأغنيـاء .. فسـوف يمكنـهم زراعتها في حدائق الفيلات والقصور ، وربما استلزم الأمـر سـن القوانـين الخاصـة لتنظيـم الزراعة والاستخدام ، وربما تم تشكيل مجلس إدارة لكل شـجرة ، حـتى يكـون الاسـتزراع والاستخدام تحت إشراف دقيق ، فلا يساء هذا ولا ذاك ، وحـتى لا تتحـول إلى مـا آل إليـه

مشروع الأشجار المثمرة ، حيث تترك الأشجار في الشوارع والحدائق العامة دون الرعاية اللازمة .. وتترك الثمار ليستولي عليها زارعوها أو من ليس له الحق في الاستفادة من خيرها منفردا ، وبالقطع ، فإن هذا يؤدى إلى احتمال تلفها ، لأن صاحب الشيء هو الوحيد الحريص عليه .

ياله من اكتشاف رائع حقا ، لقد قام هذان الأخوان بعمل عظيم ، والمؤتمر كان عرسا لهما ، توجا فيه بما هو أكثر من أي شهادة علمية .. ألا يكفى أن معظم إن لم يكن كل علماء مصر شاركوا فيه وصفقوا لهما .. ألا يكفى أن مديري الجامعات ، وعمداء الكليات العلمية ، وأساتذتها كانوا من أوائل الحاضرين ، بل إن منهم من تصدر المؤتمر وترأسه ، لكن ماذا كان يقصد ذلك الصحفي الأجنبي الذي عرض مشاركة بلاده في تكاليف الأبحاث ؟ لقد سأل سؤالا .. وربما هو نفسه يعرف جوابه ، فهل هناك حقا من الشركات أو الأفراد أو ربما الجهات الرسمية في مصر من سيتولى الاهتمام بهذا الكشف وتمويله والإشراف عليه ؟ أعتقد أن هذه هي مسئوليتنا نحن الصحفيين .. فلا بد من التنبيه إلى ذلك ، كفانا ما سرق منا .. خبراؤنا ، علماؤنا ، آثارنا ، أمجادنا .. حتى الكثير من تراثنا ، لقد كان رد مصطفى عليه ذكيا ودبلوماسيا .. وربما كان هذا هو السبب الذي جعله ينفرد بالرد على جميع الأسئلة التي لا تختص بالتحليل المعملي لنسب البروتين .

نعود إلى موضوعنا .. لو تحقق هذا الكشف .. وثبتت صلاحيته للاستخدام الآدمي ، لكان مصدر خير للبلاد ، حيث التوفير في كل شئ ، للمواطن المصري أولا ، فلن يثقل كاهله عبء شراء اللحوم ، اللهم إلا إذا فرضت عليها الضرائب والرسوم التي لا ندري من هذا الذي يتفتق ذهنه عنها بأسمائها المتعددة .. وللاقتصاد المصري عموما ، فلا بد وأنه سيؤثر على ميزان المدفوعات ، والوفر من العملات الأجنبية .. وربما أدى ذلك إلى ارتفاع قيمة الجنيه المصري ، إن لم يكن من الوفر الذي سيتحقق نتيجة انخفاض الإنفاق على شراء الحيوانات الحية واللحوم المجمدة ، فربما من بيع تلك الأشجار للدول التي هي في حاجة إليها .. وما أكثرها .. الصين بتعدادها الذي يفوق المليار ، والهند التي قارب تعدادها المليار ، وما أسعدهم بتلك الأشجار ، البروتين الحيواني من النباتات ،

وليس من الأبقار التي يقدسونها ، ولن نكون في حاجة إلى وسائل الحفظ التي تستنزف الكثير من العملات الأجنبية التي تعيينا الحيل في الحصول عليها .. إن صادراتنا من القطن .. (الذهب الأبيض) الذي كان رمز مصر وشعارها الاقتصادي والزراعي ، في تناقص كبير .. فمساحات الأراضي التي كانت تزرع قطنا في تناقص ، لاعتبارات كثيرة ، ربما انعدام الطمي الذي كان النيل يأتي به قبل السد العالي أحد أهم الأسباب ، فهو لم يكن يأتي بالخصب فقط .. ولكنه تبين أنه يحتوي على مواد مشعة .. ربما كانت هي التي تساعد في نماء المزروعات بالشكل الذي كنا نعرفه في الخمسينيات وما قبلها .. لقد تقزمت معظم المزروعات .. وما تعملق منها ، فهو من تلك السلالات المستوردة التي لا طعم لها ولا رائحة ، آه .. لشد ما أشتاق إلى حبة فراولة مسخوطة من أصل مصري .. تلك التي كانت لها رائحة تجعلك تشتهيها وتشتاق لطعمها بالرغم من مزازته ، أما الفراولة الحالية .. فإنما حجم فقط .. لا طعم ولا رائحة ، وكذلك المانجو .. حدث ولا حرج .. أين هي الآن ؟ ربما أصبنا في حاسة الشم والتذوق أيضا ..

وأما عن صادراتنا من البترول .. فإن الزيادة الرهيبة المطردة في السكان تلتهم الجزء الكبير من المنتج عاما بعد عام .. وإيرادات قناة السويس .. تواجه دوما إما بالحروب .. أو بالمنافسات التي تفسد علينا تفردنا بالسيطرة الكاملة على ذلك الشريان الحيوي .. ولم يبق لنا من مورد رائع نرجو له الدوام .. سوى تحويلات إخواننا العاملين في دول الخليج .. وحتى هذا المورد .. أصابه النضوب الكامل خلال فترة الاعتداء الغاشم على إحدى دوله .. فلم يضار منه أحد بقدر الضرر الذي أصاب العاملين في تلك الدول ... وبشكل أساسي ومباشر العاملين في الكويت .. العمالة المصرية عموما ، تسمى في مصر انفجارا .. الانفجار السكاني .. والساعة البيولوجية .. إنهم يعدون على المواطن لحظات السعادة الوحيدة التي ينعم بها .. بتكلفة محدودة .. وحلال .. لا .. إنها لم تعد كذلك في زحمة الحياة الحالية .. فالمهور غالية جدا ، وهدايا العرس ، والشبكة ، وحفل العرس .. كلها أرقام تبدأ من الصفر الرابع على اليمين .. أما عن السكن فإنه مشكلة المشاكل .. التي تدفع بعض الشباب الذين لديهم الاستعداد للانحراف .. إلى فعل أي شئ .. السرقة ، الرشوة الاختلاس ، الاتجار في السموم والممنوعات .. ولا أحد مرتاح .. فالمقاولون يواجهون بارتفاع الأسعار ، حقيقة أنه عالمي ، ولكن الدخول

في مصر ليست عالمية !!! وعلى هذا فإن أسـعار الشـقق تبـدأ بأرقـام كلـها مـن الصفـر الخامس على اليمين ومـا فـوق ، وقـد قضـى قـانون الإيجـارات ، وسـلوكيات غالبيـة المستأجرين ، على أي فرصة ليتمتع المواطن المصري بما يسـمى إيجـار ، إلا مـا نـدر ومـن يقدم من أصحاب العقارات على ذلك ، يعـاوده النـدم .. ولا يخلـو الأمـر مـن تعرضـه للدخول في مشاكل رسمية أو قضائية ، وربما تعرض لبعض أساليب البلطجـة الـتي قـد يلجـأ إليها بعض المنتفعين وقد فعلت السلطات التشريعية خـيرا بتحريـر عقـود الإيجـار الجديـدة من هذا الكابوس الذي جثم على صدر المصريين كلهم ، فالإيجـارات القديمـة لا تعـود علـى أصحابها بعائد يتناسب مع الفوائد البنكية ، بل تقل كثـيرا عـن تلـك الفـائدة ، أضـف إلى ذلك إهمال المنتفعين بشكل فاضح ، مما يعرض المبنى كله للانهيـار ، ولا توجـد مسـئولية عـن الصيانة والترميمات وخلافه ، والمنتفعون الذيـن تعـودوا علـى دفـع القليـل ، لا يمكنـهم التفكير فيما هو أكثر من ذلك ، مما أدى إلى تفاقم مشكلة الإسـكان ، حـتى وصلـت إلى مـا نحن عليه الآن ، إما تمليك بمئات الآلاف ، أو إيجـار محـدود بشـروط التعـاقد ، وبأضعـاف أضعاف الإيجارات القديمة ، فماذا يفعـل الشـباب ..؟

لكن المرأة هي المرأة ، لم تخل أسئلة أي من الحاضرات مـن التدخـل في الحيـاة الشـخصية ، وقد انصبت كلها علـى رأس مصطفـى .. لمـاذا مصطفـى وحياتـه العائليـة علـى وجـه الخصوص ؟ وكأنما يردن الإشارة بشكل غير مباشر إلى أنـه لـولا صـبر ومثـابرة الزوجـة ، لمـا أمكن لهذا الكشف العلمي أن يرى النـور .. وربمـا هـو تـار بـايت كمـا يقـول مصطفى .. آه لو أستطيع معرفة قصة التـار البـايت هـذا .

وتنبهت على صوت المصور ، لم يكن صوتا ، وإنما كان صراخـا .. يـا للمسـكين ، لعلـه ظل ينادى ، ولكن لا حياة لمن ينادى .. فلجـأ إلى الصـراخ :

- " إلى أين يا أسـتاذ .. ؟ "

وركزت في الطريق .. فوجدتني أنحرف ناحية البيت ، فقلـت لـه معتـذرا :

- " عزيزي حسن .. هل لك في أن تسـتقل تاكسـي إلى الجريـدة .. ؟ "

فصعق المسكين ، وثار مندهشـا :

• " والتحقيـــق !! "

فقلت بنبرة تعمدت أن تكون هادئـــــة :

• " لن أستطيع كتابته دون أن أرى الصور التي صورقما ، والتعــــرف علـــى مـــا كتبتـــه الصحف اليومية ، حتى لا نكرر أنفســـــنا .. "

فتساءل محـــذرا :

• " ورئيس التحريـــر !! "

وأجبته بغير اكـــتراث :

• " دعـــه لي . "

قال وكأنما يغـــني :

• " ماذا أقول لـــه .. ؟ "

فبادرته ســـريعا :

• " قل له إنني تذكرت أن لي زوجـــة تنتظـــرني .."

واندفعت بالسيارة بعد أن غادرها دون أن أتحقق من عثـــوره علـــى ســـيارة أجـــره تقلـــه إلى الجريدة ، وراجعت نفسي ، كيف انعطفت بالسيارة إلى البيـــت هكـــذا دون أيـــة مقدمـــات ، وتذكرت أنني دائما ما أبرمج ذاكرتي بالطريق الـــذي أســـلكه وصـــولا إلى أهـــدافي ، وذلـــك قبل التحرك بالسيارة ، لقد كان السؤال هاما حقا .. تلـــك الســـيدة اســـتطاعت أن تلمـــس موضوعا قد يصلح عنوانا لسلسلة من التحقيقات الصحفية ، إذ حقـــا .. أيـــن هـــو الوقـــت الذي يخصصه مصطفى لزوجته وأولاده ؟ .. ليــــس مصطفـــى فقـــط .. وإنمـــا الكثـــير مـــن علمائنا ، وكذلك كل مـــن يتـــولى مســـئولية تشـــغله عـــن بيتـــه وأولاده .. وعلـــى وجـــه الخصوص رجال السلطة التنفيذية ، وماذا عن رجال السلطة الرابعـــة ، وأنـــا منـــهم طبعـــا ؟ ولماذا نبعد كثيرا ، رئيس التحرير مثلا .. إنه لم ينجـــب ســـوى ابنتـــين .. وهـــو صعيـــدي .. والولد هام جدا في شريعتهم .. يحمل الاســـم .. ويـــرث الـــثروة .. ويكـــون عينـــا وعونـــا لأخواته البنـــات .

إن الكثيرين يزيدون النسل من أجل الولد .. وعلى سبيل المثال أخوه .. إنه موظف حكومي على قد حاله ، وليس في ثراء ولا أموال رئيس التحرير ، رزقه الله بالولد فسعد به أيما سعادة ، له الصدارة في كل شئ ، وعندما ثنى بالأنثى ، صمم أن يؤاخي ابنه بولد ثان وظل كذلك حتى تحقق مراده بعد بنات ثلاث . أما شكري بك رئيس التحرير ، فقد اكتفى بنصيبه من البنات ، لعله لم يجد الوقت لأسرته كي يأتي بالولد من بين خمس أو عشر بنات ، وربما زوجة واحدة لا تكفي ...



٣-سين وجيم

دهشت الزوجة عندما فوجئت بزوجها يحضر إلى البيت في ساعة مبكرة من مساء ذلك اليوم ، ليست هذه عادته ، فهو غالباً ما يأخذه العمل بالمجلة إلى ساعات متأخرة من الليل ، تظل خلالها وحيدة في انتظاره تعاني الملل حتى يحضر ، وتشتكي معاناتها لأمها المتزوجة من صحفي أيضا ، هو في الحقيقة رئيس تحرير المجلة التي يعمل بها زوجها ، وبما لها من تجارب في هذا المجال ، فإنها تواسيها وتوصيها بالصبر ، وتوضح لها أنه لولا اهتمامه بعمله ، وتأخره المستمر لإنجاز ما يتوجب عليه إنجازه ، لما صار رئيساً للتحرير ، والنجاح في العمل له مردود جيد ليس فقط له ولكن لجميع أفراد الأسرة بالطبع ، وهذا ما يفسر الفرق الكبير في دخلهم ومعيشتهم عن أعمامها ، كل منهم يؤدي المطلوب منه في وظيفته الحكومية التعيسة ، دون أن يفكر في تطوير نفسه ، وبالطبع كل منهم يعود إلى زوجته في مواعيد منتظمة ، وكأنما هو موظف في العمل ، وكذلك في البيت ، والحياة تحتاج إلى مال للإنفاق على الضروريات ، وبعض الكماليات ، والأسعار في ارتفاع مستمر ، سواء كان هذا الارتفاع عالميا ، أو كما فسره مصطفى يعود إلى الضرائب والجمارك ، وغداً سترزقون بأولاد ، والأولاد تحتاج إلى مصروفات ربما تزيد كثيراً عن مصروفاتهما ، وتدعوها للحضور عندهم كلما شعرت بالملل لتقتل الوقت معهم ، بعيداً عن رتابة الجدران الأربعة التي تلازمها ، ولا يمنع الأمر من قرصة موجعة فتعيد على مسامعها أمر الأولاد ، لكنها تصر على تأجيل الأمر بزعم الرغبة بالتمتع بالزواج بعيداً عن مسئولية الأطفال ، وحتى تنصلح الأحوال بزيادة مناسبة في الدخل بعد أن أمرها زوجها بترك العمل . بادرته متسائلة ، دون أن تستطيع إخفاء انزعاجها :

- " ماذا حدث في الدنيا ؟ تحضر مبكراً على غير عادتك ! لابد وأنك مريض .. أو حدث مكروه ، أو صدر قرار بإغلاق المجلة .."

يا لها من بداية غير سارة ، س و ج من أولها ، ألن تنسى وظيفتها السابقة بالمجلة ، أم أنها بعد أن تركت العمل وتفرغت للزواج ومسئولياته ، لا تجد سواه من تمارس معه هذا التسلط الذي تجد فيه متعتها . تصرف بطريقة طبيعية ، فألقى الحقيبة على أقرب كرسي ، وأسرع إلى الحمام ، ولم يجبها على سؤالها سوى بهمهمة لا يفهم منها شئ ،

فهو يعلم أن هذا السؤال ما هو إلا مقدمة لمجموعة متتابعة من الأسئلة التي لا تنتهي ، ذلك أنها تعودت الإجابات المسهبة التي تؤكد أو تنفي بالقطع ، وإجابته المبهمة التي تعمد أن لا تكون مسموعة ، لا تشفي غليلها ، وهو يعلم تماماً أن إجابته هذه ربما تؤدي إلى إشعال فتيل خلافات قد لا تنتهي ، لكنه يريد أن يكيد لها ، فقد أعد لها مفاجأة ستسعدها حتما ولا يريدها أن تفسدها ، والمفاجآت السعيدة لا يكون لها وقعها الجميل ما لم يقدم لها بما لا يفصح عنه ، حتى ولو كان إزعاجاً ، وكلما كانت تلك المقدمة من النوع المستفز ، كلما كان وقع المفاجأة أكثر إسعاداً ، هكذا علمه والدها رئيسه في المجلة ، لكنه أضاف شيئا ما كان ليفعله دون محايلة منها تصل في بعض الأحيان إلى درجة المعاناة ، حيث طلب منها أن تسرع بإحضار البرنس ومنشفة ، أحضرت المنشفة والبرنس ، وحاولت فتح الباب ، لكنه كان قد أغلقه بالمفتاح ، فأقسمت في نفسها أن تخفي مفاتيح جميع الأبواب ، وتزيل جميع الترابيس ، فلا يغلق باباً في وجهها مرة أخرى ، أعلمته بأنها أحضرت ما طلب ، ثم كررت سؤالها مرة أخرى ، فتح صنبور الماء على آخره ، ولم يجب باعتبار أنه لم يسمع ، فرفعت صوتها بأعلى ما يمكن ، مكررة السؤال ، لكن إجابته كانت مقتضبة جداً ، وكأنما حضوره المبكر أمر عادي :

- " لماذا تصرخين ؟ لم يحدث شئ مما ذكرتيه والحمد لله .."

قهقهت بصوت مرتفع ، ثم علقت بما يمكن أن يستفزه ليجيبها إجابة شافية :

- " ربما تكون قد نسيت أنني أعرفك ربما أكثر من نفسك ، وأنك سوف تحكي ، الآن أو بعد قليل ، لكنك ستحكي لي كل شئ ، وبالتفصيل الممل ، ما قصة حضورك المبكر أيها الصحفي الهمام ؟ "

شعر ببعض السعادة ، فها هو ينتصر عليها ، فليجعلها هكذا ، لا شئ يشغلها إلا قصة حضوره المبكر ، انتظر حتى خرج من الحمام ، وقال بامتعاض واضح :

- " قلت لاشيء ، وتعلمين جيداً أنني عندما أقول لا شئ ، فهذا ليس له إلا تفسير واحد ، أنه لا شئ والحمد لله .."

مال عليها يقبلها ، لكنها بدلا من أن تبادله مشاعر الحب ، أخذت تتحسس رأسه وجبهته ، فاحتضنها بحب حقيقي ، واستسلمت له بدلال ، ثم أفاقت من لحظات الرضا القليلة التي تنعم بها معه ، وأعادت الاستجواب :

- " عودتك المبكرة هذه ، والمشاعر الجميلة التي تحتويني بها ، ليست لها سوى تفسير واحد ، ألا وهو أنهم فصلوك من الجريدة ، وتريدني أن أتوسط لك عند رئيس التحرير ، فأنا أعرف والدي جيدا ، ورغبته الشديدة في التخلص منك ، فهو دائما ما يقول بأنك صحفي فاشل .."

تعجب من كل كلمة قالتها ، فهي تتهمه بأنه فاشل في عمله ، وأن رئيسه الذي هو والدها يتمنى التخلص منه ، فأراد أن يثبت لها أنه ثابت الأقدام في عمله ، وأن أباها لا يكنُّ له إلا كل الحب والمودة ، ويعامله لا كزوج ابنته ، ولكن كابنه تماما ، فقال بشيء من الغرور :

- " مع وجود هذا الوالد الرائع ، هل يجرؤ أحد على ما سبق وأن ذكرتيه جملةً وتفصيلاً ؟ حتى ولو كان ذلك بناء على تعليمات صاحبة السمو الإمبراطوري .. ابنة رئيس التحرير .."

فأجابته بتهكم لا يخلو من الدلال :

- " ألأنك تعلم أن صاحبة السمو اللي مش عارفة إيه ده .. لن تصدر تعليماتها بفصلك أو التخلص منك ، لأنها ستصبح صاحبة فقر دم وأمراض عديدة إذا أصبحت أنت بدون عمل ، وكذلك فإن أبا صاحبة السمو لن يفصلك ، ولا يجرؤ أحد في الجملة كلها أن يقوم بهذا الإجراء إن شاء الله ؟ ولذلك فأنت تتمادى في عدم الالتزام ، ما معنى أن تترك عملك وتحضر مبكراً إلى البيت ؟ ألا يعني هذا تسيباً يوجب المساءلة ؟ ألم تنس بعد أيام التسيب وعدم الانضباط الوظيفي أيام أن كنت أعزباً .. ؟ "

تأكد أنها لا تذكر المناسبة السعيدة التي أحضرته مبكراً إلى البيت ، فأراد أن ينهي هذا الجدال ، فقال بعصبية واضحة :

- " إذا كنت غير راغبة في وجودي .... أعود مـــن حيـــث أتيـــت .. "

شعرت بأنها زوّدتها ، فأرادت أن تـــبرر حيرتهـــا :

- " الحقيقة أنه منذ ما قبل انتهاء شهر العسل ، وأنـــا لا أكـــاد أنعـــم بقربـــك مـــنى ، ودائما تتعلل بالعمل ، أليس هذا حقـــا ؟ "

فسألها مستنكراً ، لكن بمكر يوحي لها بحســـاب المـــدة :

- " قلت منذ مـــتى ؟ "

فأجابت بتـــهكم :

- " لا أدري ماذا أقول ؟ لم تصل بعد إلى العمر الذي يفقـــدك الإحســـاس بـــالزمن ! "

واكتسى سؤاله بالجدية :

- " لا .. صحيـــح .. "

فتعمدت ملاعبته بالألفـــاظ :

- " هل أنت تعيس في زواجـــك ؟ "

أسقط في يده ، إنها تلاعبه .. ليته استجاب لتوسلات والدته في أن يتزوج من امرأة نصف مثقفة أو حتى غير مثقفة بالمرة .. لكنه الحب .. ما أجمله ، وما أقساه ، فرد عليها بجزء من أغنية الدكتور عبد الوهاب :

- " سؤال غريب ... ما جاوبش عليـــــه .."

قالها منغما إياها ... بينما كالت هي له الصـــاع أصواعـــا :

- " يراجع الإنسان نفسه في إحدى حالتين ، إمـــا الســـعادة المفرطـــة ، وإمـــا التعاســـة القاتلة .. ومادمت تريد أن تنسى عمـــر زواجنـــا ، فـــلا بـــد وأنـــك تعيـــس في هـــذا الـــزواج . "

فطأطأ رأسه مستنكرا ، وقـــال :

• " ولماذا لا أكون سعيدا ؟ ألن تنسى أبدا دراسة الحقوق الــتي تمارسـينها معـي بـين الحين والحين ؟ يا ستي والله العظيم أنا رجل بسيط ، مثـل آلاف وربمـا ملايـين البشـر ، لست مجرما ولست محتالا ، فقط أريد الحياة بعيدا عن السـين والجيـم .. ثم أنـني كنـت أتوقعها مناقشة رومانسية تنسيني كآبة المكاتب والصـور والأحـاديث الصحفيـة .."

وشعرت بالصدق في كلامه .. وأن أي إضافة ، قد يترتب عليها مـا لا يحمـد عقبـاه :

• " لكنك بدون شك تخفى شيئا ، ما هو ؟ قولـه وخلصـني .."

شعر بأنه كسب الجولة ، وبدأ يستعد لمـا بعدهـا :

• " وهل حدث من قبل أن أخفيت عنك شـيئاً ؟ بـل قـولي لي .. هـل أسـتطيع أن أخفي عنك شيئاً ؟ ألست أنا الإنسان المخلص الصريـح ، الـذي لم يتمكـن مـن اللـف والدوران معك عندمـا كنت مسـئولة التحقيقـات الوظيفيـة بالمجلـة ؟ ومـازالت والله هذه خصالي لم تتغير ، على الأقل منذ أن تركت بيـت أهلـي ، وسـلموني لـك رجـلاً مسالماً ، لا يهش ولا ينـش .."

لم تعجبها النغمة ، شعرت أنه يخفي عنـها شـيئاً مـهماً ، ولا يريـد أن يريحـها بالإفصـاح عنـه :

• " إن حضورك المبكر على غير العادة ، يدعـو إلى الريبـة .. أو لنقـل إن إحساسـي الداخلي يخبرني أنك تخفي شيئاً .. هو من الممكن ألا يكون ضاراً ، فـأنت لا يـأتي منـك ضـرر .. "

فقاطعها بهـدوء :

• " أليس هذا ما يجب أن يفعله كل زوج محـب لزوجتـه ؟ "

وانفجرت صائحـة :

• " منذ متى وأنتم يا معشر الصحفيين ، تعرفـون واجبكـم العـائلي ؟ "

وحاول التهدئة من تلك الثورة ، فاحتضنـها .. وقـال :

• " وماذا لو شذ أحدهم عن تلـك القـاعدة ؟ "

استجابت لمداعبة شفتيه لخصلات شعرها ، وقالت بنعومة تعبر عن سعادتها :

- " لا شئ ... ولكن والدي دائما ما يردد ذلك الشعار الذي أصبح مقدسا عند والدتي تصبرني به كلما شكوت من طول وحدتي في عش الزوجية ... أقصد زنزانة الزوجية .. "

فقال مدعيا الانزعاج :

- " آه ... تشتكين !!.. يا للهول !! "

قالها بطريقة عميد المسرح عليه رحمة الله ، ثم استدرك وقد شعر بحمرة الخجل تعلو وجنتيها :

- " وما هو هذا الشعار المقدس ؟ "

ابتسمت بخبث تحسباً من وقع الكلمات على مسامعه :

- " إن والدي كثيراً ما يردد مقولته الشهيرة ، الصحفي السعيد في بيته .."

ثم أمسكت عن الكلام ، وهي تخفي ابتسامة حذرة ، كأنما تخشى غضبه ، لكنه استحثها أن تكمل ، فقالت :

- " ما فناش من زعل .."

فهز رأسه بالإيجاب ، فضحكت ضحكة فيها من الدلال أكثر مما فيها من السخرية .. ومالت برأسها على صدره ، وهي تقول :

- "خائب في مهنته .."

وأسرعت مبتعدة ، وكأنما تخشى أن يقوم بتصرف يعبر عن سخطه ، لكنه قال بهدوء الواثق من نفسه ، المعتد بمكانته الصحفية ، المزهو بحب زوجته له :

- " لكنك كما ترين ، قد أثبتنا العكس .."

فتنهدت بحرقة المغلوب على أمره :

- " لولا أنني رأيت والدتي ومثابرتها في زواجــها مــن أبي .. لمــا قبلــت الــزواج مــن صحفي ، خاصة بعد أن ملك قلــبي .."

فأجابها إجابة الممنــون :

- " سأقبل يد والدتك بمجرد أن أراهــا .."

فقالت بدلال الزوجة المحبة ، مستغلة فيه الجانب العاطفي الــذي يتفجــر أمامــها :

- " يدها فقط ! ألم تنجب لك الزوجة التي تحبــك وتخــاف عليــك .."

فقاطعها مكمــلاً :

- " وجعلت أيامي كلــها سـعادة وهنــاء ... والله إنهــا لتســتحق أعلــى وســام في العــالم ... ليتني أستطيع أن أقدمه لهــا .."

واتجه إلى خزانة الملابس ليخرج البذلة اليتيمة الشــيك ، الــتي لم يتمكــن مــن أن يضيــف إليها غيرها ، ذلك أن جميع البدل التي كانت لديه قبــل الــزواج ، أصبحــت لا تصلــح لــه بعد أن ازداد وزنه عدة كيلوجرامات ، لكنه سمعها تهمــس ببضــع كلمــات ، فاســتحثها أن تعلن عن مكنونات ما تهمس به ، فقالت ببعــض الشــجاعة :

- " كنت أقول إنك لا تســتطيع تقــديم شــئ ، ربمــا عقــارب الســاعة في بدايــة الصيــف .. "

فردد بدهــاء :

- " تقديم عقارب الساعة في بداية أشهر الصيف .. فمــاذا عــن تأخيرهــا ؟ "

فسارعت :

- " أقول إن هناك حدث هام أدى إلى تغيــير كبــير فيــك ، وجعلــك تنســى أمــوراً كثيرة ، منها مثلاً أن موعد التأخير قد ولّى .. ومادامت حــالتك قــد وصلــت إلى هــذه الدرجة ، فإنه يخشى عليك الخروج في مثل هــذه الســاعة "

ثم أمسكت البذلة وانتزعتها منه ، ونظرت إليه شزراً ، وعيناها تتساءلان عن سبب إخراجها من الخزانة ، بمعنى أنه لم يأت إلى البيت مبكراً إلا ليخرج .. إلى أين ؟ لكنه لم يعرها انتباهاً ، وأكمل الحديث ، وكأن شيئا لم يحدث :

- " أعمل إيه .. مادامت الرومانسية مش نافعة معك ، والذكاء صفر في المائة ، خلينا نسأل السؤال مباشرةً ، ماذا لو أخرنا عقارب الساعة عدة شهور ؟ سنة مثلا .. ألم تفهمي بعد ؟ "

وأمعنت التفكير .. إنه الأول من ديسمبر .. يوم زواجهما .. وأفلتت العبارة منها ، وكأنها تحاول تأكيدها لنفسها .. هل حقا يتذكر عيد جوازهما ؟ هو الرجل لم ينسَ .. بينما هي لا تذكر .. وشعرت بأنه متأكد من أنها لا تذكره ، وسوف يتخذها نادرة يرددها في كل مكان ، وربما عمد إلى نشرها بأي شكل من الأشكال في مجلتهم .. ، كيف تتظاهر بأنه لم يأت بجديد ؟ وأنها كانت تظن أنه هو الذي لا يذكره ، وأخذت تتذاكر الأعياد التي مرت عليهما منذ زواجهما ، عيد ميلادها .. لقد تذكره .. وهل هي تذكرت عيد ميلاده ؟ نعم .. إذاً لا يوجد ما يدعوها أن تنسى عيد زواجهما ، إنه العيد الوحيد الذي يخصهما هما الاثنين ، لكنها لم تستعد له لا بهدية ، ولا بما يوحي بالإعداد للسهر ، ولو حتى بالمنزل ، لكن هذا لا يمنع من أن رائحة الكيكة التي كانت تعدها بالصدفة المحضة ، تفوح في أرجاء البيت ، حسنا أنه ذكّرها ، فلتتصل بوالدتها دون أن يشعر عساها تتدبر الأمر ، لكن هذا الصحفي .. يجب أن لا يشعر بأنها تنسى عيد زواجهما .. واجهته :

- " هل تريد أن تقنعني بأنك حضرت مبكرا من أجل عيد زواجنا ؟ "

وسارع بالرد عليها :

- " وهل هناك شئ في الدنيا ينسيني ذلك اليوم الجميل الذي حفر في ذاكرتي ، وقبلها قلبي ، اليوم الذي شرفني فيه الله بك زوجة محبة عطوفة ، جميلة ، رائعة ، تستحق كل ما في الدنيا من حب ، وسعادة ، و ... "

وأخذ يقترب منها مع كل كلمة يقولها ، حتى احتواهــا بــين ذراعيــه ، فاحتضنــها بحــب صادق ، وشوق من وجد ضالة طالت غيبتها ، ولكنها تملصــت منــه بلطــف ودلال ، وهــي تقول :

- " كفى .. كفى .. كأنك تريد أن تقنعني بأنك جئت مبكراً مــن أجــل ذلــك ! لــو كنت حقاً تذكره ، لكنت قبلتني صباحا ، مع سيل من عبــارات الحــب الجميلــة ، أمــا أن تنسى ذلك صباحاً وتأتي الآن فقط لتقول ما تقول ، وتفعــل مــا تفعــل ، لابــد وأن هناك من ذكرك به ، أو ربما وصل إلى أنفك بعضاً ممــا أقــوم بــإعداده لهــذه المناســبة ، فتذكرته ، ثم ما هذا التطور المفــاجئ الذي طرأ على تصرفاتك ؟ لهفتــك علــى الحمــام الذي كنت تتهرب منه كأنك ما زلت نونو ، ومــا قصــة هــذه البدلــة الــتي لازمتــك كظلك ، كلما هممت أمراً ذا أهميــة ؟ "

وتعجب من أمرها ، يا لها من مراوغة ، هــل يباغتــها بذلــك ؟ مــا هــذا الــذي تتحــدث عنــه ؟ وماذا أعدت لهذه المناسبة ؟ لكنه آثر أن لا يفسد عليها متعــة المراوغــة ، فيفســد بذلك متعة مفاجأة السهرة التي يزمع الترتيب لها بهــذه المناســبة ، ثم ألم تفــهم بعــد ؟ عيــد زواج لابد وأن يعني سهرة ، والسهرة عايزة بذلة ، والبذلة عايزة حمــام ، والحمــام عنــد ... قال لها ثــائرا :

- " مش عجبك لهفتي على الحمام ، يعــني إن امتثلنــا للأوامــر بإرادتنــا .. عوتبنــا ، وإن أردنا أن نكون في صورة جميلــة .. ارتبتــم في أمرنــا ، وإن صمتنــا .. اســتفززنا ، وإن تحدثنا .. اتهمتنا ، هل تريدينني أن أترك لــك البيــت ؟ "

قالت بهدوء من وقع على سر ، وقد أسعدها أنها استطاعت إقناعــه بأنهــا لا تنــس مناســبة هامة كــهذه :

- " اظهر على حقيقتك ، تريدها خناقة لكي تخرج إلى شــلة الصــايعين بتــوع زمــان ، الذين لا يحلو لهم الاتصال بك ، إلا وأنت خارج البيت ، كــي يؤكــدوا علــى اســتمرار علاقتك بهم ، ألا يعلمون أنني على دراية تامة بكل ألاعيبــهم ، وأنــني لــن أنســي لهــم قصائد التأبين التي ذرفوا عليها دموع عزائهم ليلة الزفاف ، وطبعــا هــذه مــن المفــترض أن تكون ليلتنا ، لكنهم لا يحلو لهم إلا أن تحتفل بها معــهم ، وكأنمــا ليؤكــدوا لي أنــني

لست أكثر من مدبرة بيت ، أو جارية لمعالي حضرة صـاحب السـلطان الآمـر النـاهي ، فوق يا أستاذ ، واعلم جيداً أنك لن تخرج من البيت هذه الليلـة إلا علـى جثـتي ، ولـن يكون هناك احتفال إلا معـي ، و.."

هو يعرف أنها تدعي أنها تذكره ، لا مانع .. فأجـاب مسـرعاً :

- " إنك دائما تظلمينني ! شلة إيه وصايعين إيه .. البدلة يـا هـانم علشـان السـهرة ، والسهرة يا هانم معاك ومع سبب سعدي ، الست والدتـك ، الـتي لم تكـوني تذكريـن عيد ميلادها أيضاً ويخيل لي .. بدلاً مـن اللجاجـة ، ورمـي النـاس بحجـارة الشـك وتأليف الأحـداث .. "

فقاطعته في محاولة يائسة ، حتى تؤكد له أنها لم تكن في غفلة عن تلـك الأعيـاد الـتي يحـاول أن يذكرها بها ، وأن تبعد تفكيره عن ضبطها متلبسة بتهمـة النسـيان فقـالت :

- " هل هذا أسلوب جديد في التكتيك ؟ هروب .. أقصـد خـروج إلى الشـلة ، فـإن فشلت ، افتعلت عيد الزواج ، وأنا على يقين أنك كنـت ناسـيه مثلمـا نسـيت أنـك متزوج ، وكمان أنـا متأكدة من أن غيابك عن البيت ليس كلـه في العمـل فقـط .."

وشعر برغبة في أن يعطيها علقةً ساخنة على هذا الافتراء الواضـح علـى الحقـائق ، هـي لم تكن تذكر ، فلتعترف وكفى ، لكـن أن تدخلـه في دائـرة اتهـام جديـدة ، وهـو القـادم للاحتفال معها وبها ، فتساءل حانقاً ، وقد اكتست لهجتـه بشـيء مـن المـرارة الواضحـة ، جعلها تندم على ما قـالت :

- " فماذا إذاً أيتها اللبيبـة ؟ "

فقالت بجرأة حسدها عليـها :

- " إن تليفوناتهم لا تنقطع عن السـؤال ، وتـرك الرسـائل باللحـاق بهـم في مكـان يحددونه ، غالبا ما يكون ذلك المقهى المفضـل لديكـم ، أظنـه في أوائـل شـارع ٢٦ يوليـو ، الذي يجب التوقيع فيه حضورا وانصرافا ، ثم لمـن تـترك تدخـين النارجيلـة ، والبوري ، وما خفي كان أعظـم .."

قال بمسكنة ، وكأنما يتوسل إليـــها أن تصدقـــه :

- " دائما تظلمينني ، لو سألت رئيس التحرير .. فسوف يؤكـــد لـــك أنـــني لا أدخـــن حتى السيجارة ، وكذلك سيقسم لك أنني من البيـــت إلى الشـــغل ، والعكـــس ... يعـــني الماهية من الصـــراف .."

فقالت بعفوية ، وقد أشفقت عليه من التوســـل ، وتريـــد أن تضـــع حـــداً للنقـــاش ، حـــتى تستطيع أن تتصل بوالدها لكي تدبر لها أمر الهدية ، فلا يكتشـــف نســـيانها الـــذي تحـــاول أن تخفيه :

- " لكي تقنعني بأنك صادق فيما تقول .. فلتقســـم قســـم الشـــرفاء .."

ولم يجد بداً من أن يقسم لها ويزيد ويعيد في القسم ، وأراد أن يثبت لهـــا صدقـــه ، فقـــال :

- " وهذا هو دليل صدقـــي .."

وأسرع يحتضنها ويبثها حبه ، فدفنـــت رأســـها في صـــدره ، والســـعادة تقفـــز مـــن بـــين أضلعـــها ، ظناً منها أنها استطاعت إخفاء نسيانها ، لكن المشـــاعر تغلبـــت عليـــها ، وغلبـــت سعادة الحب بالرجل الذي أحبته ووافقت على الزواج منـــه ، علـــى كـــل مـــا عداهـــا مـــن مشاعر ، وانطلقت من فمها الذي تعـــانق مـــع كـــل خلجـــات وجهـــه بقبـــلات وَجْـــدٍ ، كلمات الحب بكل النغمات التي يسعد بها الأحبـــاب ، مـــرددة إياهـــا وكأنمـــا هـــي تشـــعر بالحب لأول مرة ، وهو يردد نفس الكلمات وبنفس النغمـــات ، ويزيـــد عليـــها عبـــارات لم يسبق له أن قالها من قبل ، ولم يسبق لها أن سمعتها منه أو من غـــيره ، فـــإن تربيتـــها الصعيديـــة المتشددة في العلاقات بالجنس الآخر ، مهما كان ، والتـــار ولا العـــار يـــا ولـــدي ، والتديـــن الذي يرفرف على الكثير من تصرفات أهل البيت ، أكســـبها تفـــهماً واضحـــاً لحـــدود الله ، والمبادئ التي نشأت عليها ، أب محـــب لزوجتـــه وابنتيـــه ، يعاملـــهم بكـــل الرقـــة والحـــب والتقدير ، كل هذا جعلها بعيدة كل البعد عن التفكير في أي شـــئ غـــير زوج يتقـــدم إليـــها ، فإن تقبلته ، مجرد تقبل ، فهي على استعداد أن تحول ذلك التقبـــل إلى حـــب وإخـــلاص لـــه ، ولقد كان لأبيها موقفا في هذا الأمر ، فهو لم يفرض عليـــها أيـــاً مـــن أولاد عمومتـــها الذيـــن تقدموا لها ، ولا زالت تذكر كلمته التي تنصتت عليه وهو يقولهـــا لأي مـــن اخوتـــه :

• " الزواج مزاج .. مش بالعافيـــة .."

واحترم اخوته وجهة نظره ، فلم يعيدوا الكرة مـــرة أخـــرى ، لا بالنســبة لهـــا ، ولا مـــع مني . وتعجبت من هذه العبارات الـــتي دخلـــت قـــاموس علاقتـــهما الزوجيـــة ، لكنـــها لم ترغب في قطع رغبتها في التمتع بما تسمعه منه من تلـــك العبـــارات ، وســـعدت أنـــه لم يكـــن زواجاً تقليدياً كما بدا في أول الأمر ، فقد تقـــدم يطلبـــها مـــن أبيـــها ، وتذكـــرت أن أباهـــا تعجب من طلبه ، فقد كانت الخلافات بينـــهما كمـــا النـــاكر والنكـــير ، وتحقيقاتهـــا معـــه لا تنتهي ، وتوصياتها بالجزاءات التي تنهي بها رأيها في تلك التحقيقـــات ، لـــولا أن أباهـــا كـــان يلغيها ، لفصل المسكين من المجلة ، غير مأسوف على شبابه ، إذاً هـــو كـــان يحبـــها بصـــدق ، ولم يكن الأمر كما تصورته في بادئ الأمـــر مجـــرد تقـــرب مـــن رئيـــس عمـــل ، أو محاولـــة لتدليس مشاعرها نحوه ، فتنتهي بذلك حالة الاستنفار التي كانت دائمـــا تواجهـــه بهـــا ، لقـــد عابت عليه كل شئ فيه وفي تصرفاته ، ولم يبق إلا أن تعيب عليـــه ملابســـه ، وربمـــا طريقتـــه في الحياة ، وفي التعامل مع الآخريـــن .

ولن تنسى أن أباها كرر طلبه على مسامعها أكثر من مرة ، وهـــي في واد آخـــر بعيـــد عـــن هذا العالم تفكر .. كيف له أن يطلب الزواج منها رغم كـــل مـــا بينـــهما مـــن اختلافـــات في وجهات النـــظر ، وفي التحقيقات ، لكنها تذكـــرت أنـــه كـــان كلمـــا رآهـــا حملـــق فيـــها كالمشدوه ، وأنها أثناء التحقيقات كانت تعيد على مسامعه الســـؤال أكـــثر مـــن مـــرة حـــتى يبدأ في الإجابة عليه ، وأنها كانت تحملق فيـــه هـــي الأخـــرى ، بدايـــة كنـــوع مـــن أنـــواع استشفاف ما تخفيه نفسه من ألاعيب ، صورتها لهـــا تحقيقاتهـــا أنهـــا جـــزء مـــن لعبـــة اسمـــها الإهمال والتسيب ، لكنها لا تنســـى أن ملامحه بـــدأت تســـتهويها ، خاصـــة عندمـــا تســـأله سؤالا مباغتا عن الدوافع ، لقد كان يسرح بعيدا وهو يتأملـــها بكـــل مـــا تســـتطيع مشـــاعره الحبيسة أن تعبر عن حبه لها ، وكانت تسرح هي في عينيه ، فتراهمـــا في صفـــاء صبـــاح يـــوم صيف جميل تنعكس عليهما خضرة النباتات ، وتجيـــش بمشـــاعر لم تكـــن تعـــرف أنهـــا حـــب يكنه لها ، وتعجبت أن دوافعها في التحقيق معه لم تكـــن كلـــها عمـــل ، وإنمـــا لأنهـــا كـــانت تشعر ببعض الأنس في قربه ، كانت تعبر عن أحاسيسها بعصبية مـــن لا تريـــد أن تفقـــد مـــاء وجهها وحياءها ، فتخرج كل ذلك في كلمات جارحة زائـــدة عـــن الحـــد .

لكن أباها أخرجها من سرحالها بقوله أنه لا يريــد أن يفقــد مشــروع صحفــي ناجحــاً ، فقد هدد المسكين بالاستقالة إن لم توافق على زواجها منــه ، ولم تشــعر بنفســها إلا وأبوهــا يقول " على بركة الله " ، وعلمت فيما بعد أنها هزت رأسها بعلامــة الموافقــة ، وكأنمــا هــي في حالة من اللاوعــي .

وكلما اعتصــرها الذكرى ازدادت التصاقا به ، بينما هــو في عــالم آخــر ليــس فيــه إلا الحب ، ذاب الزمن كله فأصبح تلك اللحظات فقط ، ووقفت عقــارب الســاعة فمــا عــاد العمر يحصى بالسنين ، وتمنى لو استطاع أن يحتفظ بها في داخلــه ، تســتحوذ علــى وجدانــه ، على ذاته ، فلا يتنفس إلا برئتيها ، ولا يفكــر إلا بعقلــها ، ولا يحــب إلا بقلبــها ، كــان في حالة من الذوبان الوجداني حلق فيها إلى عنان السماء ، يلمــس الســحاب ، لا بــل يلمــس النجوم ، بعيداً عن عالم الحس والوجود ، لا لكل ما هــو مــادي إلا الحــب .

وفي غمرة هذا الإحساس اللذيــذ ، دق جــرس الهــاتف ، مــرة ..ثم اثنتــين ، فثــلاث .. وتنبهت ، فقالت برقة وعذوبة ، حرصت فيهما ألا تزعجه بما يفيقــه مــن تلــك الرومانســية الحالمة ، إلى واقع الحياة المــؤلم :

- " التليفــون .."

وجاءته كلماتها كهمس بعيد ، كصوت يأتي مــن الســماء ، فحــاول أن يســتعيد توازنــه الذي ضــاع مع لحظات الحب الجميلــة :

- " ما لــه .. ؟"

فقالت وهي ما تزال تعتصره إلى قلبــها :

- " بــيرن .."

وكان في سعادة لا يريد أن يبعده عنها أي شئ ، فقال بــلا وعــي :

- " خليه يــرن .."

ولأنها تخشى أن يكون الأمر هاماً ، فغالباً ما لا يكون رنين الهــاتف أثنــاء وجــوده إلا لأمــر هام ، لكن مع هذه اللحظات الجميلة ، لا شئ هاماً يعادلها ، لكــن عليــها أن تنبهــه ، فــإن

آثر عدم الرد أصبح هذا شأنه ، فلا يحملها المسئولية كما يفعل دائما ، فقالت وهي مازالت متشبثة به :

- " قد يكون الأمر هاماً .."

فقال بدون وعي ، وهو ما يزال متشبثا بها :

- " لا شئ أهم من الحب .."

لكنها بدافع من المسئولية ، ولأن صراخ الهاتف كان مدوياً ولم ينقطع ، وبتلقائية غير مدروسة رفعت سماعة الهاتف ، لتواجه بعاصفة هوجاء من السباب والسخط ، عرفت الصوت ، إنه صوت أبيها ، والسباب له ، فوضعت السماعة برفق في مكان قريب من أذنه ، وأفاق المسكين من أحلامه على صراخ رئيس التحرير :

- " لقد كان هذا رأيي فيك دائماً ، أنت لا تصلح أبداً لهذه المهنة المقدسة ، كيف بلاني الله بك صحفياً فاشلاً ؟ والمصيبة ، أنك أصبحت ملازما لي في العمل ، وفي الأسرة كذلك ، كيف الفكاك منك .. ؟ قال إيه .. وأنا الذي أعدك لتكون مسئولاً .."

وكلما حاول تهدئته زادت ثورته ، وحوى قاموس الصفات والنعات والتوبيخ كلمات لم يسمع بالكثير منها من قبل ، منه على الأقل ، فقد كان دائما عف اللسان ، دقيقاً في اختيار المعاني والألفاظ ، لكن الخطأ لا بد وأنه على درجة كبيرة من الخطورة ، للدرجة التي جعلته يخرج عن وعيه ، فلا يهتم بكونه موظفاً ليس بينه وبين المجلة إلا عقداً على كل من الطرفين احترامه ، هو أخطأ ، فالقانون والعقد يحكمان هذه الأخطاء ، لكن السباب والحط من كرامة خلق الله ، فهذا أمر مرفوض رفضاً باتاً ، حتى ولو كان من والد زوجته ، لكن الرجل لا يسبه من هذا المنطلق ، إنه يسبه من منطلق أنه ابنه ، ويحرص على أن يكون أداؤه قمة في الإتقان ، فإن أهمل يبقى يا ويله ، حتى لا يخطئ مرة أخرى ، وكذلك هو يرتب لترقيته لدرجة كبيرة ، وهذه تحتاج إلى رسم وإعداد ، وذلك بأن يكلفه بمواضيع هي أكبر كثيراً من مستواه ، وأعلى كثيراً من مستوى أقرانه وربما من هم أقدم وأكبر وأقدر منه ، ولا بد وأن يؤدي هذه الأعمال بكفاءة ، فإن

قصــر يبقى يا ويلــه ، والإعداد ، أن يمــده بكــل مــا هــو حديــث في علــوم الصحافــة والإعلام ، محلياً وخارجياً ، وينصحه نصائح ربما قالهـــا للجميـــع ، ولكنـــها بالنســـبة لـــزوج ابنته ، هي من النوع الغالي التي يجب أن يركز عليها ، فيعيد فيها ويزيـــد حـــتى يفـــهم مـــن لا يفهم ، وعلى رأي المثل " التكرار يعلـــم ... الشـــطار " .

لكنه نجح أخيراً في أن يوقف هذا السيل المتدفق من السباب ، ومـــا أن انطلقـــت مـــن فمـــه كلمـــــة " حلمك " حتى انطلقت قذائف من الوزن الثقيـــــل جـــداً :

- " بلا حلم بلا علم .. العمل عبادة يا أستاذ ، وحشتك قـــوي يـــا خويـــا ، مـــا أنـــت طول النهار والليل لازقلها ، وإلا عـــايز تفـــهمني انـــك صحيـــح بتكـــون في تحقيقـــات صحفيـــة .."

سعد بالشطر الأول من الكلام ، لكن ما تلاه كان ذماً ما كــــان يـــود أن تســـمعه ، لكنـــها سمعته متعمدة ، فنظر إليها نظرة المغلوب على أمره ، بينما ابتســـمت هـــي ابتســـامة مـــاكرة ، وتركته لتعد نفسها لسهرة عيد زواجهما ، قال بهـــدوء وبصـــوت خفيـــض :

- " إن لبدنـــك .. "

ولم يمهله حتى يكملـــها :

- " بدن إيه وزفت إيه ، دي صحافة يا أســـتاذ .. تحضـــر حـــالا ، وإلا اعتـــبر نفســـك مفصولاً من المجلة ، ومن بيت الزوجية كمان إذا مراتك تدخلـــت زي كـــل مـــرة .."

وسمعت العبارة الأخيرة ، عندما دخلت لتأخذ رأيـــه في فســـتان الســـهرة ، فـــامتنعت عـــن الكلام ، حيث لا مجال له ، فقط نظرت إليه لكي تشـــعره كـــم هـــي حاميتـــه مـــن غضـــب وسخط أبيها ، فامسك بها وجذبها نحوه يحتضنـــها ، وكأنمـــا ليقـــول لأبيـــها أنـــه لا يســـتطيع عمل شئ ، بينما هي استجابت لـــه وكأنما جمال حـــب أيـــام المراهقـــة الـــتي فاتتـــها ، قـــد عادت مرة أخرى ، لتكون للمساته طعم الشـــهد ، ولقبلاتـــه حـــلاوة العســـل ، ولكلماتـــه موسيقى أعظم عظماء الفن ، وقال كلمة صغيرة لا تشفي غليل رجـــل يفـــور كـــالمرجل :

- " لا أســـتطيع .."

وانطلقت الكلمات من الرجل صراخا ، وكأنما حلقومه قد خرج من فمه مع كل جهازه التنفسي ، ولا بد وأن يكون صاحب ذلك أمور أخرى ، لا داعي لذكرها :

- " لا ماذا .. يا حبيبي ، ليه .. عندك عذر شرعي يمنعك من الخروج من البيت ، ولدت حديثاً مثلاً ، وإلا عليك نذر ، وإلا العفاريت ركبتك وعامل زار .."

تعجبت وهو يشير عليها بسرعة الانتهاء من الاستعداد للسهرة ، فما هذا السباب بالشيء الذي يثير لدية الرغبة في سهر أو حتى ابتسام ، وما أن خرجت من الغرفة حتى همس بسرعة في أذن الرجل :

- " حتى ولو كان عيد جوازي ..! "

وأوقف الرجل سيل العبارات والسباب ، وهدأ قليلا وكأنما هو يحصي الأيام ، ليعلن بهدوء عجيب ، لا يتناسب مع ما سبقه من ثورة :

- " آه صحيح ، اليوم أول ديسمبر .. "

وتصيده الشاب سريعا :

- " لعلك لم تكن تذكره .."

فقال الرجل بهدوء ، وقد اعتصرته الذكرى :

- " وكيف لي أن أنسى اليوم الذي انتزعت فيه قطعة من قلبي .."

واستغل فيه ذلك الجانب العاطفي :

- " لو كنت تذكره .. لما سببتني .."

واستدرك الرجل سريعاً :

- " اسمع أيها الماكر ، لعلك لا تذكر أنه عيد ميلاد زوجتي أيضا ، حماتك ، يا نسيب الهناء ، وحتى لا نشعرها بنسياننا ، اتصل بها ، ورتب معها لتمر عليها ، وتحضروا جميعا ومعكم منى طبعاً إلى الكازينو إياه ، حوالي التاسعة ، والسهرة على حسابي .. تلاقيك منتش عامل حسابك لحاجة ، وإلاّ لقلت لي ذلك صباحاً .."

فقال أحمد بهدوء لا يكاد يسمع :

- " بل السهرة على حسابي أنا .. فقد نسيت شراء الهدية ، أرجو أن تشتريها لي ، ولا تنسى هديتي لحماتي أيضا .."

فأطلق الرجل قهقهة عالية ، وعلق بهدوء :

- " أنت أيضا .. يا خيبتك .. عايزها إيه ؟"

فقال أحمد بذكاء :

- " تختبر المرأة بالذهب .."

وعلق الرجل الذي يريد الخير لابنته :

- " ليه .. ألم يكن على أيامكم الماس .. ؟ "

فسايره سعيداً بتفهمه له :

- " فلتكن الماس .."

فسأله الرجل عن القيمة ، ولكنه عرج على الشكل والموضوع ، فقال :

- " ما رأيك في صورة الغلاف الأخير .. ؟ "

وصمت الرجل برهة وهو يقلب الأوراق التي أمامه حتى عثر على الغلاف الأخير ونظر إلى الصورة ، وعلق تعليقاً ظريفاً ، ثم قال له :

- " لا .. ذوقك طول عمره راقٍ ، ومن حسن حظك أن الجواهرجي صديق ، يعني حيكرمنا في السعر ، وكمان مش حياخد الفلوس دلوقتي .. لا .. يظهر أنك بتعرف تحدد أهدافك كويس .. "

وهم بأن ينهي المكالمة ، لكن أحمد استمهله :

- " لا تنسى هديتنا أنا وزوجتي لحماتي ، واختارها أنت على ذوقك ، بس راعي الرحمة .."

ورد عليه الرجل الطيب بســـــعادة :

- " طيب يا خويـــا .."

٤- السهـــــــــرة

استقبلنا مدير الكازينو استقبالا حافلا ، وأرشدنا إلى المكـــان الـــذي يحجـــزه لنـــا دائمـــاً ، فشكري بك والد زوجتي ، رئيس تحرير مجلة كل العلوم التي أعمل بهـــا محـــررا علميـــا ، ومـــن قبلها العديد من المجلات والجرائد ، معروف عنه حسن الخلـــق ، وكـــرم الأصـــل ، والنبـــل ، وصفات أخرى كثيرة ، جعلته محبوبا من الجميع ، لذلك .. فقد انهـــال علينـــا مديـــر الملـــهى بكل عبارات الترحيب التي تبين سعادته بحضورنـــا ، واســـتمر في ترحيبـــه بنـــا إلى أن جلســـنا بجوار النافذة المطلة على النيل ، فشكري بك يعشق جمـــال النيـــل ، نهـــاراً أو ليـــلاً ، وعلـــى وجه الخصوص ليلا ، فانعكـــاس الأضـــواء علـــى صفحتـــه وهمـــس أمواجـــه المتبـــاعدة في سيمفونية طبيعية تلهب المشاعر بالحب ، وصـــوت الميـــاه يحركـــها مجـــداف قـــارب .. كلـــها أمور ترتسم في ذاكرته بجمال لا يعادلـــه إلا جمـــال اجتماعـــهم علـــى شـــاطئه مـــع أقاربـــه وأصدقائه كلما سافر إلى سوهاج بلدته ، وهذا يعيده إلى أيام الصبـــا ورومانســـية الشـــباب .

وهو لا يحب الصوت المزعج لمكبرات الصـــوت ، خاصـــة وأن الأغـــاني الـــتي تقـــدم إمـــا الأجنبية التي يمقتها .. فما العبرة مـــن أن يســـتمع إلى أغـــاني لا يفـــهم الكثـــير مـــن معـــاني كلماتهـــا ، فضلاً عما تحتويه من أمور أخرى تحرمـــها الشـــريعة الإســـلامية ، وربمـــا تجرمـــها بعض القوانين . أما النوع الثاني من الأغاني ، فهي تلك الـــتي تصـــاحب الراقصـــات ، وهـــذه غالبا ما يمتزج فيها الفن .. وربما الرفيع جـــدا كأغـــاني الســـيدة أم كلثـــوم أو غيرهـــا مـــن مشاهير المطربين أو الملحنين ، بهز الوسط ، فيخرج العمل غير متناســـق ، فـــلا هـــو غنـــاء ولا هو طرب .. ولا حتى رقص ، وقد تعـــودت أذنـــاه علـــى الموســـيقى الكلاســـيك ، وأغـــاني الطرب التي قدمها عباقرة الفن الذين ولّى الكثـــيرون منـــهم .. ونـــادرا .. وربمـــا أبـــداً لـــن يعوضوا ، وعلى هذا ، فإن الأغاني الحديثـــة لا تعجبـــه ، وهـــو يحـــب الرقـــص الشـــرقي .. شريطه ألا يصاحبه تلوى الراقصة ، وكأنما هـــي تشـــكو مـــن ألم في المعـــدة .. أو أنهـــا علـــى وشك الولادة ، لكن هذا لا يمنع من أن المكان لابد وأن يكون أقرب مـــا يكـــون مـــن خشـــبة العـــرض .

بعد أن جلسنا .. وكلمات المجاملة ، والابتسامات العريضة .. التي لا يزال مدير الملهى يكيلها لنا في ترحاب يفوق واجبات الوظيفة ، وبعد أن استقر بنا المقام .. قال جملته المعتادة :

- " مشروبكم الأول .. على حسابي .. "

ورد عليه شكري بك .. وكالعادة أيضا :

- " طول عمرك كريم يا خليل . "

وكان خليل دائما ما يردد هذه العبارة ، حتى أصبحت إحدى لوازمه :

- " يا شكري بك أنا لو كنت أملك المكان . . "

وأيضا شكري بك يعرف أنه سيقول تلك العبارة ، ودائما ما يجهز له عبارة مجاملة تتناسب مع كرمه الحاتمي :

- " عارف يا خليل والله .. هو أنت مش حتبطل بكش .."

ويحاول خليل الاعتذار بكلمات تبين مدى حبه لنا واهتمامه بنا :

- " شكري بك إحنا بلديات .. يعني أهل .. وشوف أنت بقى كرم السوهاجية .. الأصيل .."

واستشاط شكري بك غضباً :

- " الله يلعنها .. "

واستفسر خليل متزعجاً :

- " إيه يا شكري بك !! فيه حاجة ضايقت سعادتك ؟ "

وانفجر شكري بك معبرا عن سخطه على عاداته التي تجلب له دائما المشاكل :

- " العادة المنيلة على عينها اللي تخليني أسأل كل واحد أنت منين ، ولازم أطلعه بلدياتي .."

وتساءل المسكين محتجـــا :

- " يعنى أنت مش من سوهاج يا شـــكري بـــك ؟ "

واستعاد شكري بك هـــدوءه :

- " لا يا سيدي من ســـوهاج .. "

فقال خليل مبتســـما :

- " يبقى ما غلطنـــاش .. "

وازداد تصميمه أن يكون الطلب الأول على حسابه .. بل وتمـــادى في نخـــوة كـــرم صادقـــة وصارمـــة .. ونادى على النادل وصمم على تلقى طلبـــات أول مشـــروب وســـجلها علـــى حسابه الخاص .. وليست على حساب المحل .. وعلق شـــكري بـــك :

- " طول عمرك كريم يا خليل .. بس يا ابني أنت ذنبـــك إيـــه ؟ "

وقال خليل معبرا عن سعادته بنـــا :

- " يا خبر يا شكري بك .. ده كفاية تشريفكم .. ثم إنكم صـــار لكـــم مـــدة طويلـــة غائبين عنا .. وخاصة الهانم الصغيرة .. يمكن منـــذ أن تزوجـــت .. "

ونَظَرَتْ إِلَيّ زوجتي من طرف عينيـــها .. وهمســـت بعبـــارات جـــاهدت التنصـــت عليـــها لتسجيلها ، ولكن نظرا لأنها تحدد المدة التي لم نخـــرج فيـــها ســـويا .. وكأنمـــا قـــد حســـبتها باليوم والشهر .. عشرة أشهر وثلاثة أيام بالتمام والكمـــال .. آه لعلـــها تقصـــد أنهـــا منـــذ احتفالنا بعيد ميلادها بعد الزواج .. لذلك آثرت عدم التعليق .. ولكنه أمـــر مـــا كـــان ليمـــر دون ملاحظتها ، فأضافت موجهة الكـــلام إلى مباشـــرة :

- " لو لم يبادر أبي لهذه السهرة .. لمـــا حضرنـــا .. "

وانزعجت .. من أين لها بهذه المعلومات .. هل استرقت الســـمع .. أم أنـــه مجـــرد تخمـــين ، حاولت أن أتجاهل الأمر ، ولكنها وكأنما هي تلح في معرفـــة الـــرد :

- " لا .. للصبر حدود .. لقد تحملت أكثر مما تحملته أمـــي مـــع أبي .. "

فعلقت بخبث :

- " وأجرك عند الله على ذلك أكبر بالطبع .."

وجاءقا الفرصة .. اقتربت من أذني بكل ما تملك من هجوم صامت :

- " هذا كل ما عندك .. لقد فاق الصبر كل حدود .. قطع الأثاث .. وخلافه التي استهلكت في الأفلام والمسلسلات ، أصبحت قديمة .. ولكنك تملني كما هي حلة عرسك ، بعد العرس مباشرة ، خلعتها واحتفظت بها في خزانة الملابس .. حتى أصبحت لا تصلح لك لأنك وسعت عليها .. "

فهمست في أذنها بشيء من الرومانسية :

- " نسيت شيئا هاما يا حبيبتي .. "

فانفجرت صارخة :

- " وما هو أيها العبقري .. "

فقلت لها بصوت متهدج ، معبرا عن فرط حبي وإخلاصي :

- " لقد وضعت قلبي في هذه الحلة قبل حفظها في الخزانة ، وأعطيتك المفتاح .."

وأنقذني شكري بك من هذا التحقيق الجانبي .. بصوته الأجش :

- " ما هذا أيها العفاريت ، هل دعوتنا يا أحمد بك لكي تعرض علينا ملامح من مشاهد الحب بينك وبين زوجتك .."

وهممت أن أوضح .. لكنه أكمل :

- " يا سيدي ولا يهمك .. لقد نسيت عملك أيضاً .. "

ووضع أمامي مظروفا كان يحمله ، وقال :

- " صور المؤتمر .. "

وغمز لي بعينه بحيث لا يراه أحد ، فأمسكت بالمظروف ، وأخرجت بعض الصور ، تفحصتها قليلا ثم أعطيتها لزوجتي حيث أشركت والدتها وأختها مني ، وانتهزت الفرصة ، لكي أنقل الهديتين إلى جيبي دون أن يلاحظني أحد ، سوى عمي شكري طبعا ، حيث هز رأسه علامة الاستحسان ، وكأنما يقول " برافو " ، وبعد أن اطمأن إلى أن الهديتين أصبحتا في جيبي ، نظر الرجل إلى زوجته وابنتيه وقال :

- " هل سنقضي الليل في رؤية هذه الصور ؟ "

وانتزعها منهن ، ووضعها مرة أخرى في المظروف ، وقال لي بلهجة جادة جدا مع الضغط على كل حرف ينطق به :

- " غدا إن شاء الله .. أريد الموضوع على مكتبي .. "

ولم أملك إلا أن أستسلم فرددت عبارة " إن شاء الله " وحمدت الله أنه لم يقل صباحا ، وإلا .. فماذا كنت أفعل ؟ ولكني نظرت إلى زوجتي ، وكأنما أشكوه لها .. إلا أنها لم تهتم ، فقد كانت الصور هي محور حديثها مع والدتها وأختها ، وفجأة .. علا الوجوم وجه منى حيث قالت والدهشة تكاد تعقد لسانها :

- " ألم تلاحظوا أن الرجل الجالس هناك في أقصى اليسار ، يشبه واحد من الباحثين في الصور ؟ "

وكنت أول من التقط الخيط ، ونظرت سريعا وأنا أهمس :

- " معقول .. الأستاذ مصطفى الخوجة !! "

وعلقت منى :

- " أنا لم أستطع أن أتبين وظيفته من الصور .. "

وخرج الجواب من فمي وكأنما أنا مسلوب الإرادة :

- " إنه باحث جيولوجي .. "

فعلقت منى ولهجتها كلها استنكار :

- " ولكنى أعتقد أنه يعمل في مجال آخر غـير البحـث الجيولوجـي .."

وأجبتها بـبراءة :

- " هذا صحيح ، إنه يمتلك شركة صيانة ، إنـك رائعـة يـا مـنى ، لا أدرى لمـاذا لا تعملين في الصحافـة ؟ "

ورمقتني زوجتي شذرا ، فقلت موضحـا :

- " إنها الضربة الصحفية التي ينتظرها كـل صحفـي ، ومـن محاسـن الصـدف أنهـا جاءت في وقتها تماماً .. إن التحقيـق الصحفـي لا يكتمـل إلا بـالحديث الخـاص مـع أبطال هذا الكشف العلمي ، آه لو يلبى دعوتنا وينضـم إلينـا .. .."

وهمت زوجتي بالاعتراض ، لكن شكري بـك سـارع مرحبـا بـالفكرة ، بينمـا عبـارات الاعتراض وهمهمة الرفض تصدر من الجنـس اللطيـف ، فـهن لا يـردن دخـلاء يفسـدن عليهن السهرة ، ومادام الأمر يتعلق بالمؤتمر ، فإن الحديث سـيكون حديثـا صحفيـا .. وبـين الأخذ والرد ، والإيجاب والقبول ، وقبل أن يسـتقر الـرأي علـى الرفـض ، تم بيننـا لقـاء بالعيون ، تلته إيماءة بابتسامة ، ثم تحية فيـها دعـوة للانضمـام إلينـا ، ولم أتـرك الفرصـة لزوجتي للتردد ، همست في أذنها وساعدتها علـى النـهوض . الحقيقـة أنـني كنـت أرفعـها رفعـاً ، وبالصدفة كان تركيز نظرها علـى زوجتـه الـتي بادلتـها بنظـرة باسمـة ، كـان النكوص عن الذهاب معي لدعوتهما ضربا من ضروب قلة الـذوق ، ووجـدت نفسـها أمـام أمر واقع فذهبت معـي .

وبعد تبادل التحيات والسلامات مع " حماي وحماتي " ومـنى ، نظـرت زوجـتي إلى زوجتـه متفحصة .. ثم صرخت بصمـت :

- " مدام صفيـه !! "

ونادتها مدام صفيه باسمـها :

- " مدام هدى !! ما هذه الصـدف السـعيدة ؟؟ "

وجلستا سويا تتجاذبان الحديث .. ثم وجهت هـدى الحديـث إلى والدهـا :

- " ألا تعرفها يا أبي ، إنها مدام صفيـــه الدهشـــان .. بلديـــاتك الـــتي كـــانت تتـــولى صفحة الأخبار الناعمة في المجلـــة .. "

ورحب الرجل بها وهو يلومها على انقطاعها عـــن المجلـــة ، فـــأبدت أســـفها ، بحجـــة أنهـــا تزوجت ، والتزامات الزواج تتعارض غالبا مع العمل ، إذ لابد مـــن حـــدوث تقصـــير إمـــا في حق الزوج ، أو في حق العمل .. وحتى لا تثقل عليهم قالت إنهـــا أوامـــر زوجـــها .

اشتبكت هدى مع صفيه في حديـــث طويـــل ، وتبـــادلت أنـــا الحديـــث مـــع مصطفـــى ، وشاركنا شكري بك ، وجمعت أكبر قدر من المعلومـــات عنـــه وعـــن أخيـــه ســـعيد ، وعـــن الاكتشاف ، وتطرق الحديث إلى مداخل عدة ، كانت مـــنى تتابعـــه باهتمـــام غـــير عـــادى ، كما أنني لاحظت أن مصطفى يعطى منى اهتماما خاصا ، وفجأة ســـألته مـــنى بحـــدة :

- " يا ترى .. ما هي أعمال الخدمات المترلية التي يزاولها عالم كبـــير لـــه وزنـــه مثلـــك ؟ أرجو أن لا يكون سؤالي محرجـــاً .."

ورد عليها مصطفى بكل هـــدوء :

- " حتى لا يتبادر إليكم الشك أننـــا مكتـــب تخـــديم مثـــلا .. فنحـــن نقـــوم بجميـــع الخدمات المترلية الأخرى .. مثل أعمـــال الديكـــورات .. وجميـــع أعمـــال الصيانـــات ، وكذلك أعمال الدهانـــات .. "

وتمادت في حدتهـــا :

- " صيانات ماذا .. غسالات .. نجـــارة .. ســـباكة .. ؟ "

وكانت إجابته لها بنفس الهدوء الذي يبدو أنـــه مصطنعـــاً :

- " تماما سباكة .. يا آنستي ، مش آنســـة برضـــه .."

لم تهتم بالإجابة على سؤاله ، رغم أنه كان يمعن النظر في يديـــها ، وهاجمتـــه بوقاحـــة :

- " ولماذا إذاً التخفي تحت هـــذه الأسمـــاء .. ؟ شـــركة خدمـــات مترليـــة .. لمـــاذا لا تقولون أعمال السباكة وخـــلاص ؟ "

يا لسليطة اللسان هذه .. ما الـــذي يجـبره علـى الصـبر عليـها ؟ وخشـيت أن يكـون لهجومها هذا تأثير كبير في انصرافه ، لكن العجيب أنه تمادى معـــها ، وبنفـس الهـدوء :

- " حقيقة أننا بدأنا بالسباكة .. لكننا الآن نقوم بالأعمال الأخـرى الـتي ذكرتمـا ! "

لكنها لم تكتفـي :

- " آه .. قل هذا .. فلماذا وضعـت الوظيفـة بـاحث جيولوجـي ؟ لمـاذا لم تضعـها سباك .. آسفة .. الدكتور السباك .. مش برضه السباك بقـى دكتـور دلوقـتي ؟ "

ونهرها شكري بك لهذا التطاول .. وهم أن يتخذ معها إجـراءً قـد يصـل لدرجـة طردهـا من السهرة وإعادتها إلى البيت ، لكن مصطفـى قـال :

- " بصراحة يا شكري بك .. الهانم عندها حق .. فالدكتور السباك أصبـح أغـنى مـن الدكتور الجيولوجي .. ولولا السباكة .. لما تمكنت من قضـاء هـذه السـهرة .. "

وعلقت حماتي بشيء من العفويـة :

- " يا ابني .. الشغل مش عيب .. مـادام شـريفاً .. "

وأضاف مصطفـى :

- " الذي لا تعرفه مني هانم ، أن السباكة قد تكون أهم مـن الجيولوجيـا أحيانـاً .. "

وتساءل الجميع .. فقال مصطفـى :

- " ما هو أهم شئ في أي مبـنى ؟ "

فأجاب شكري بـك :

- " المسلح طبعـا .. "

فقال مصطفـى :

- " وما الذي يتلف المسلح ؟ إنه الماء .. فلو تسرب ماء مـن أنبـوب ميـاه ، أو مـن الصرف الصحي لأتلف المسلح .. وربما هدم المبنى .. أليـس هـذا صحيحـا ؟ "

وأمن الجميع على كلامه .. فـــأكمل :

- " تبقى السباكة هي أهم شئ في المبنى .. وإلا إيـــه رأيكـــم ؟ "

قالها وهو يتعمد الابتسام كي يضفي جواً من البهجة على الســـهرة ، لكـــن مـــنى لم تتركـــه فعلقت ســـاخرة :

- " لم تضف أن أعمال السباكة تدر عائداً مجزياً عن ذلك العـــائد الـــذي تـــدره أبحـــاث الجيولوجيـــا .. "

ورد مصطفى بذات الهـــدوء :

- " صدقت .. فإن تكاليف أبحاث الجيولوجيا تمولهـــا أربـــاح الســـباكة .. "

وقال شكري بك محاولا إنهاء الحديـــث :

- " يا ابني أنا أحيى فيك هذا الكفـــاح .. "

وإذا بمنى تنفجر كالبركـــان :

- " أي كفاح يا أبي ! هل تسمي انخراط رجـــل علـــم في مهنـــة كالســـباكة كفاحـــاً ؟ ودراسة أكثر من ستة عشر عاما .. وترك باحث عبقري مثل الأســـتاذ مصطفـــى لأبحاثـــه ليعمل في هذه المهنة ، هـــل يعتبر هذا كفاحـــاً ؟ "

وهنا فقط أدركنا أن هـــذا الهجـــوم ، هـــو في حقيقتـــه تعبـــير عـــن الإعجـــاب المصحـــوب بـــالمرارة ، إعجـــاب بإصراره على الأبحاث العلمية ، ومـــرارة العجـــز المـــالي الـــذي يجعلـــه ينصرف عن هذه الأبحاث إلى مهنه تمكنه من الحيـــاة ، والإنفـــاق علـــى الأبحـــاث ، ربمـــا لـــو كان متفرغا للأبحاث فقط لكانت النتائج أكبر إثمـــاراً وأهـــم منفعـــةً ممـــا أعلـــن عنـــه هـــذا المؤتمـــــر .

وإذا بالسيدة حماتي ، تترك كل شئ وتسأله عن كيفية انخراطـــه في تلـــك المهنـــة ، وأجـــاب مصطفى إجابةً مســـهبةً :

- " الحقيقة إنها قصة طريفة جداً .. بعد عـــودتي مـــن اليابـــان ، عملـــت في التصديـــر والاستيراد ، وبعد عدة سنوات ، وجـــدت الضرائـــب تطـــالبني بمبـــالغ تفـــوق أربـــاحي

بكثير ، ومع مشاكل الفحص والتظلم ، وباقي المراحل ، تبخرت كل الأرباح وكذلك رأس المال ، فقد قامت الضرائب بالحجز على جميع أعمالي ، والمحاسب القانوني حصل على أتعابه من باقي السيولة المتوفرة .

- وفى أحد الأيام ، طلبت كوبا من الماء ، وإذا بي أراه عكرا ، صدئا ، فرفضته ، وتصورت أن العيب من الكوب ، ولكنى تأكدت أن الكوب نظيف ، فلم يبق أمامي سوى أن المياه نفسها هي العكرة ، بمعنى أنه لم يتم تكريرها كما يجب ، والله وحده يعلم ما يمكن أن تحتويه من ميكروبات وفطريات وأمراض ، فكان لابد من تركيب فلتر ، ولحسن الحظ ، أن الفيلا التي بجانبنا كان فيها أعمال سباكة ، فطلبت من صاحبها ، وهو صديق إضافة إلى أنه جار ، إرسال السباك لتركيب الفلتر ، فحضر السباك وأجرى المعاينة ، واستمهلني ريثما ينتهي من أعمال السباكة بالفيلا ، ثم يحضر لتركيب الفلتر ، وفى جلسة مع الجار ، علمت أن الدكتور السباك لن ينتهي من أعمال الفيلا قبل شهر ، نكون قد شربنا من الماء العكر الذي لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى أسباب عكارته ، وعلمت كذلك أنه يمتلك سيارة أوروبية شاع استعمالها في تلك الفترة ، وعندما حدد لي السيارة ، اكتشفت أنها أفخم سيارة في الشارع تقريبا ، ووجدتني أخبر جاري بإلغاء عملية الفلتر هذه ، فقد تصورت أن الدكتور السباك ، بالسيارة التي يستعملها في تنقلات عملة ، سوف يطلب أتعابا خرافية ، وقد تأكد لي ذلك من مبلغ الأتعاب المتفق عليه مع الجار ، فقررت الاستعانة بغيره .

- ذهبت إلى السوق ، وطلبت سباكا ، ولم أجد لأقربهم موعدا أقل من أسبوع ، وعندما وجد أحد أصحاب المحلات أن الصبي الذي يعمل بالمحل يهمس في أذني أنه على استعداد للقيام بهذا العمل وحدد الأتعاب ، ولم يبق إلا أن أوافق ، ناداه وكلفه بشراء سجاير ليبعده عن المحل ، وبعد انصرافه قال لي :

- " هو أي واحد يقول لك إنه بيعرف يعمل حاجة تصدقه ، ده واد صايع فشل في التعليم فجابوه يشتغل صبي ، يناول وبس ، وقدامه على الأقل سنتين يفهم فيهم الصنعة ، وكمان خمس سنين حتى يمكن أن يعتمد الواحد عليه في تركيب حاجات

صغيره زي الفلتر بتاعك ده ، وكمان خمس سنين علشان يقدر الواحد يعتمد عليه في شغل له قيمته .."

- فهممت أن أنصرف ، لكن الرجل استوقفني ليكمل حديثه :

- " أنا لا أقول لك هذا الكلام علشان تمشي ، أنا بأقوله علشان تعرف أنه في إمكانك أنت أن تركبه بنفسك ، وشغلك لنفسك حيكون أفضل من شغل واد خايب أو مبتدئ زي حالات الصبي بتاعنا .. "

- وكانت مفاجأة لي ، إلا أنه هون من الأمر ، وشرح لي كيفية التركيب ، ووضع أمامي كل المستلزمات ، فاشتريتها وقمت بتثبيت الفلتر بنجاح لم أكن أتوقعه ، وتصادف مرور إحدى القريبات ، ورأتني وأنا أثبت الفلتر ، فوقفت مشدوهة ، وكأنما هي معجزة ، وذهبت تزف الخبر لباقي الأقارب الذين أبدوا عدم التصديق ، وبمقارنة مياه الصنبور ، بالمياه من الفلتر ، سألوني عن تكلفته ، فأخبرتهم عن سعر الفلتر والمستلزمات الخاصة به ، وطبعاً لم أذكر المصنعية ، وإذا بالجميع يطلبون مني تركيب فلاتر لهم ، وبادروا بدفع المبلغ الذي حددته ثمناً للفلتر ومستلزماته ، وهم سعداء طبعاً لأن التركيب مجاناً .

- وبدأت بالاستعداد للعمل ، وأول ما تبادر إلى ذهني ، هو أن أرتدي بعض الملابس القديمة حتى تتحمل ما قد يصيبها من بلل أو خلافه ، لكنها أظهرتني كما العمال ، وعندما توجهت إلى السوق لكي أشتري عدداً من الفلاتر ومستلزماتها ، وجدته مدرسة كبيرة يتعلم المرء منها في كل لحظة أموراً لا يمكنه تعلمها في أرقى وأكبر المدارس والجامعات ، ومن لا يجيد لغته يضيع ، لكنك تستطيع أن تتعلم الكثير بمجرد وضع أولى خطواتك الصحيحة على أول سلمة .

- ذهبت إلى السوق وأنا بالهيئة التي ذكرتها ، وإذا بالجميع يسارعون في إمدادي بكل النصائح اللازمة لنجاحي في عملي ، وبعد أن توطدت علاقتي بهم ، بدؤوا يوصون بي ، ويأتون لي بالعمل ، وأول ما أثار دهشتي أن الأسعار التي يبيعون بها للصنايعيه تقل كثيراً عن تلك التي يتعاملون بها مع غيرهم ، و فوجئت بأن المبلغ الذي تكلفته في

شراء الفلتر الخاص بي ومستلزماته ، كان يعادل الضعف تقريبا لما تـلاه مـن فلاتـر ، ومـع الجملة التخفيض يكون أكـثر .

- وتفهمت الموقف ، أن صاحب المحل لم يعلمني طريقة الـتركيب مجانـاً ، وإنمـا ضـاعف السعر بما يعوضه عن مصنعيته ، وحتى أتأكد مـن الأسـعار الـتي يبيعـون بهـا للزبـائن ، أرسلت أخي سعيداً بملابسه العادية ، وأوصيته أن لا يشـتري مـن التـاجر الـذي أفـادني بنصائحه ، فاشترى الفلتر بنفس الأسعار التي اشتريتها بـه منـه ، فاسـتغفرت الله في ظـني بصاحب المحل ، ووجدت أنه كان نعم الصديق ، فعقـدت العـزم علـى توطيـد علاقـتي بـه ، وأصبحت لا أشتري إلا منه ، وعندمـا علـم أنـني أقـوم الآن بـتركيب فلاتـر للعائلة ، أوصاني بأن أحصل منهم على الثمن الذي دفعتـه في شـراء الفلـتر الخـاص بي ، وبذلك أكون قد حصلت على مقابل مصنعيتي ، دون أن آخـذ منـهم أكـثر ممـا كـانوا سيدفعونه ثمنـاً للمسـتلزمات ، ثم دوّن رقـم تليفـوني للاتصـال بي إذا طلـب أحدهـم تركيب فلتر أو صنبـور ، يعني العمليـات الصغـيرة اللـي زي دي ، وفي كـل عمليـة جديدة ، كان يدلني على طريقة العمـل .

- وعندما عرض على عملية من العمليات الكبيرة الـتي ليسـت لـدى الخـبرة اللازمـة لهـا ، أشار عليّ بالاستعانة بأسطوات ، بل وسـاعدني في الاتفـاق مـع بعضـهم ، وربنـا عندما يسبب الأسباب ، لا تسأل ، فقد عوضني الله بهذه المهنة ، مـا سـبق فقـده ، سـواء في التأميم ، أو في اليابان ، أو من الضرائب وتقييـد الاسـتيراد إلى آخـره .. .. "

وعلق شكري بـك :

- " إنها قصة كفاح رائعة يا بنى .. ليت كل الشباب الخريجـين الذيـن ينعـون حظـهم بالتسكع في الطرقـات منتظريـن خطابـات التعيـين في الحكومـة ، والحصـول علـى الجنيهات التي لا تتناسب مع عائد استثمار الأموال الـتي دفعـت في تربيتـهم وتعليمـهم يتخذونها عبرة لهـم .. "

وأكملت حماتي :

- " ربنا يوفقك يا ابـني .. والله ولا الأبطـال .. "

وتساءلت زوجتي هــــدى :

- " وهل أعمال السباكة تحقق الطموحات الكبيرة التي كنـــت تصبـــو إليـــها ؟ "

وأجاب مصطفى بهدوء وثقـــة :

- " الفرق بين الثقافة والجهل ، أن المثقف لديه القدرة على فلســـفة الأمـــور وفقـــا لمـــا حصل عليه من ثقافة ، ومعظم العاملين في المـــهن الحرفيـــة إمـــا أنصـــاف متعلمـــين ، أو أميون وربما جهلة ، ولذلك ، فالفهلوة قد تكون إحدى أهم الصفـــات الـــتي يتمتـــع بهـــا البعض منهم ، فالمواعيد غير مضبوطة ، والعمل غـــير متقـــن ، والأتعـــاب مغـــالى فيـــها ، بالإضافة إلى أن البعض يتصرف فيما تحـــت يديـــه مـــن مـــواد ومـــهمات وكأنهـــا مـــال ســـايب ، وهذا يزيد التكلفة ، فضلاً عـــن أن التأخـــير في إنجـــاز الأعمـــال يـــؤدي إلى تأخير الاستفادة من المبنى ، وكذلـــك الهـــالك المبـــالغ فيـــه ، وربمـــا اختـــلاس المـــواد والمهمات وربما إتلاف بعض الممتلكات بدون عمـــد أو عـــن عمـــد ، والمصيبـــة الأكـــبر الإكراميات ، التي يطلقون عليها " قهوتنا وشاينا " الـــتي تعتـــبر نـــوع مـــن الشـــحاذة ، يصل في بعض الأحيان أن يفسد الصنايعية بعـــض ممتلكـــات مـــن لا يدفـــع لهـــم هـــذه الإكراميات ، وتكون النتيجة ، أن من يتصف من الصنايعيـــة بمثـــل هـــذه الصفـــات ، لا يتكرر عليه الطلب ، ولا يطلبه إلا من لا يعرفه .. أو من لا يجـــد غـــيره ، ويتعـــامل معـــه بكل الحـــذر .."

وعلقت هـــدى :

- " والله يا مصطفى بك بنبقـــى عـــارفين كـــل الحاجـــات دى ، وبرضـــه بنطلبـــهم ، حنعمل إيه ، ما بنلاقيش غـــيرهم .."

ورد مصطفى ، وكأنما وجد في كلام هدى ما يشجعه على عـــرض وجهـــة نظـــره :

- " لكن لو لقيتم ، اللي شـــغله كويـــس ونظيـــف ، ومواعيـــده محـــددة ومضبوطـــة ، وكمان أتعابه مـــهاودة .. "

فأجابت زوجتي وقد شدها الحديـــث :

- " ده عملة نادرة اليومـــين دول .. "

فأكد مصطفى ذلـــك :

- " هذه هي المعادلة الصعبة التي أقدمها ، وهذا ما نقلني مـــن مجـــرد ســـباك إلى شـــركة مقـــاولات .."

وعلقت منى بسلاطة لســـانها :

- " ولكنك تصر على تسميتها .. الخدمـــات المنزليـــة .. "

وأجاب مصطفى مفاكـــها :

- " خوفا من الضرائب .. فلو أسميتها اسما كبيرا ، ووضعت كلمـــة مقـــاولات ، لفتـــح ذلك شهية مصلحة الضرائب ، وينخرب بيتنا مـــرة رابعـــة .."

واحتد عمي شكري بك في حديثه وهـــو يتســـاءل :

- " يعني سعادتك بتتهرب من الضرائب ؟ أمال فـــين الوطنيـــة .. فـــين ..؟ "

وقاطعة مصطفـــى :

- " تهرب إيه يا شكري بك .. المسألة لا تعـــدو البحـــث عـــن العدالـــة في التقديـــر ، والبعد عن إهدار الأموال في التظلمات ، وكل واحـــد يـــأخذ حقـــه .. "

- قبل أن تسألني عن الوطنية فلتسأل عن العدالة والحق ، هـــل مـــن العدالـــة أن يعفـــى البعض من الضرائب دون البعض ؟ هل مـــن العدالـــة أن تجـــبى الضرائـــب دون تقـــديم خدمات ، أو بتقديم خدمات تقل كثيرا ســـواء في الكـــم أو الكيـــف ؟ اللـــهم إلا تعيـــين المزيد من العاطلين الذين لا يقدمون شيئاً للوطن بـــل إنهـــم يعرقلـــون كـــل شـــئ ، فمـــا يتقاضونه من مرتبات لا يحقق لهم أقل الطموحـــات شـــقة وزوجـــة ، ولكـــي يتمكـــن أي منهم مـــن تحقيق ذلك وربما أكـــثر ، يلجـــأون إلى الرشـــوة أو الاختـــلاس .. إلى آخـــر الأمراض التي بلي بها المجتمع وتفاقمت وتتفاقم مشاكله يوماً بعد يوم ، بـــل ربمـــا ســـاعة بعد ســـاعة .

• أما عن الوطنية يـا شكري بك ، فنحن لا نتأخر أبداً عن نداء الواجب ، سنة ٥٦ ، اشتركت في الحرس الوطني والمقاومة الشعبية ، وتبرعت بدمي رغم صغر السن ، وليلا ، كنت ضمن فرق الدفاع المدني ، وسنة ٦١ سافرنا مع من سافروا إلى اليمن ، فيما كنا نعتقده دفاعا عن حق المواطن اليمني في حياة كريمة . . "

وعلقت مني :

• " وسنة ٦٧ .."

وأجاب مصطفى :

• " من سوء الحظ ، أنني كنت في اليابان .. وكذلك سنة ٧٣ مع الأسف الشديد ، لكن البركة في شباب مصر ، إن الوطنية ليست جنسية بلد ، ولا شعارات رنانة .. إنها كيان .. "

وتساءلت حناني :

• " كيف ؟ "

وفلسف مصطفى الأمر :

• " هل تعلمون السبب في تمسك الإنسان بأن يدفن في مسقط رأسه ..؟ "

وتساءلنا جميعا عن السبب ، فقال :

• " إنه أمر بيولوجي محض ، فالإنسان خلق من طين ، يعني تراب وماء ، والتراب ، تراب بلد ما بمواصفات ومغناطيسية معينه .. وبالتالي ، فإن مغناطيسية البلد تجذبه إليها .. وما تعبيرات وحشتني بلدي .. أو ما يسمونه بالإنجليزية HOME SICKNESS إلا تعبيرات تؤكد ذلك ، فالوطنية حقيقة هي تراب البلد الذي تكونت منه خلايا إنسان ومغناطيسيتها التي تفرض عليه الدفاع عنها ، والموت دونها .."

وعلق شكري بك مفاكها :

- " لم أكن أعلم أنك متعدد المواهب يا مصطفى بك ، لا .. دى السهرة حتحلو .."

وعلقت هدى :

- " ولم لا .. ونحن مع أحلى والد ، وأحن والدة .. "

وبعد فترة صمت ، قضتها وهي ترمقني بنظرات كسهام مصوبة ، رؤوسها تشتعل نارا ، خشيت معها انفجارا يدمر الابتسامة التي علت كل الوجوه .. إلا أنها أكملت :

- " وأروع زوج .. تصوروا إنه هو الوحيد اللي افتكر عيد جوازنا .."

وبالرغم من الهلع الذي انتابني عندما توقفت لترمقني بنظراتها النارية .. إلا أن ما قالته كان مدحا لم أتوقعه ، ونبهتها مني بشيء من الهمس ، أن تقول بضع كلمات مجاملة للضيوف ، حتى كأني شعرت بأن مني تعلن الهدنة ، وربما الاستسلام ، فقد تبين أن الرجل ليس مكافحا في مجال الحياة ، بل مواطنا غيورا على بلده ، وله فلسفته الخاصة التي تربط بينه وبين ترابها ، وقالت هدى بعض عبارات المجاملة مشيدة بصفيه زوجة مصطفى .. ثم رمقتني كي أقول بعض كلمات الترحيب والمديح لمصطفى .. فلا يجوز لها أن تتولى ذلك ، فأكملت حديثها بالقدر الذي يجعله يبدو متصلا :

- " وأشهر باحث في دنيا العلم ، وأفضل مكافح في دنيا العمل .."

فعلق مصطفى مفاكها :

- " بل قل في دنيا السباكة .. "

وضحكنا جميعا ، بينما أعلن مقدم البرامج عن بداية العرض ، برقصة شرقية ، واستأذن مصطفى حيث انسحب بهدوء ، وتساءلت هدى خشية أن يكون هناك ما كدره ، لكن صفيه أوضحت أنه لا يحب النظر إلى الراقصات ، ففي رأيه أنه حرام ، ثم أكملت :

- " إنه من عائلة متدينة جدا .. جده الخوجة باشا رحمة الله عليه ، كان من كبار العلماء .."

وأراد شكري بك التعليق ، لكنه أقلع مع دخول الراقصة ، وصدع الموسيقى ، وصوت المغنى ، وتلألؤ الأضواء ، والصمت الذي غلف الجميع ، فقد كانت الراقصة فنانة في أدائها ، بعيدة عن حركات الإغواء ، أو الإثارة ، وحضر مصطفى ، وجلس مطأطئ الرأس لا ينظر إلى الراقصة ، فهمست هدى في أذن زوجته :

- " مادام يعتبر الرقص حراماً ، لماذا حضر ؟ "

وأجابت صفيه :

- " أولا للتمتع بالبرامج الأخرى ، وكذلك بالعَشاء ، ثانيا وهو الأهم من وجهة نظره ، من أجلي أنا .. ففي رأيه أنه من المهم الترويح عن النفس في شيء يسعد ، وأنا الحقيقة أحب الرقص الشرقي جداً ، وأعتبره فناً لا تجيده إلا القليلات ، وربما القليلات جداً ، وهذا هو السبب في أن عدد المشهورات من الراقصات لا يتعدى أصابع اليد الواحدة .."

وتساءلت منى :

- " كيف ، ونحن لا نراه إلا هز بطن ، وتمايلات ، تجيدها الكثيرات من بنات جنسنا ؟ "

وأكملت حماتي :

- " دى البنت بتتولد بتعرف ترقص .."

وابتسمن بهدوء ، أما شكري بك فقد كان مندمجا مع التابلوه الراقص الذي شمل راقصين وراقصات ، تداخلت فيه رقصة التحطيب التي يحبها ، ويجيدها ، فهي البديل عن السيوف في رقصات العرب ، أو لنقل ، أنها التدريب على الدفاع عن النفس باستخدام العصا ، فهي بالنسبة لأهل الصعيد ليست رقصة ، بقدر ما هي تدريب ، وعند الجد ، تراها كرقصة ، لكن الحقيقة أنها قتال ، وعلقت صفيه على أداء الراقصة الأولى :

- " شوفي مثلا يا مدام هدى .. الراقصة الأولى .. ترقص رقصا أصيلا .. وليس تمايلا كباقي الراقصات ، إن هز البطن من الأمور الصعبة جداً .. ولا يمكن للراقصة أن تتقنها إلا بعد مران شاق ، ومهارة فائقة .."

وعلقت حماتي :

- " ويعنى هو ما ينفعش إلا بالعرى ده ؟ "

وأجابت صفيه :

- " وكيف يمكن أن نراه ، ما لم تكن منطقة البطن عارية ؟ أما ما عدا ذلك ، فهو تزيد يقصد به التعبير الشائع ، الجمهور عايز كده .."

وتساءلت النسوة عن مصدر هذه المعلومات ، وشعرت صفيه ببعض الإحراج ، فزوجها فيلسوف سباكة ، وهى فيلسوفة هز بطن ، فعلقت سريعا :

- " الفضل طبعا لشكري بك ، فلولا عملي في صفحة الأخبار الناعمة ، ثم صفحات الأخبار الفنية ، واحتكاكي المباشر بالفنانين والفنانات من جميع التخصصات والمواهب ، ومحاولة التعرف على تفاصيل فن ومهنة كل منهم ، لما كان لي أن أعرف كل هذه المعلومات ، ثم أنني قمت بدراسة واسعة عن الراقصات ، وعلى وجه الخصوص راقصات شارع محمد علي ونشرت بالمجلة ، وأثارت تعليقاتا وهجوما ، كاد يفقد المجلة الترخيص الخاص بها ، إذ كيف لمجلة كل العلوم أن تبحث في الفنون ، وهنا رد عليهم شكري بك ردا قاتلا ، فقال :

- " أليست الفنون علوما تدرس في الجامعات العالمية .. وخصصت لها الكليات والمعاهد في الجامعات المصرية ؟ .."

وانتبه شكري بك من اندماجه عندما سمع اسمه يردد ، وشارك في الحديث ، فأوضح أن الصحفي الناجح لابد وأن يلم بالتفاصيل الدقيقة لعملة ، وكان ينظر إلى وكأنما أنا المقصود بالحديث ، وأضاف :

• " إن المجلة شعرت بفراغ كبير بعد ترك صفيه هانم لهـــذه الصفحـــات ، فقـــد كـــانت كثيرة الموضوعات ، غزيرة المعلومـــات ، والحقيقـــة ، أننـــا فقدنـــا عـــددا كبـــيرا مـــن القارئات بعد تركها المجلـــة .. "

ونظر إلى شذرا وهو يقـــول :

• " عسى الله يعوضنا خيرا بالصحفي الهمام أحمد بـــك ســـبع البرمبـــة .."

وسارعت زوجتي معلنة احتجاجـــها :

• " طبعا سبع البرمبة ونص ، وبكـــرة تشـــوف التحقيـــق بتاعـــه عـــن الاكتشـــاف ، حيكسر الدنيـــا .."

وقاطعها شكري بـــك :

• " أيوه يا ستي .. من يشـــهد ..؟ "

وقال مصطفى بعض كلمات المجاملة يمتدحني ، ويمتدح عائلة شـــكري بـــك جميعـــهم حـــتى مني ، حيث اختصها بمزيد من المديح ، بصـــورة لم يتوقعـــها أحـــد ، خاصـــة بعـــد هجومـــها الشديد عليه ، وفجأة .. نهض واقفا ، واتجه بســـرعة ناحيـــة البـــاب ، وقـــد شـــدنا بحركتـــه المفاجئة ، فتابعناه رغما عنا ، حيث استقبل سيدة مسنة ، ســـارع يحتضنـــها ، ثم انحـــنى علـــى يدها يقبلها ، غير عابئ بمن ينظر إليه مستهجنا تلك العادة التي قضـــت عليـــها مدنيـــة القـــرن العشرين منذ أكثر من ٤٠ عاما ، وصحبها بكـــل الحـــب والوقـــار والاحـــترام ، مـــارا مـــن أمامنـــا ، فهمت صفيه بمسايرته ، إلا أن شكري بـــك اســـتوقفه ، وصمـــم علـــى جلوســـهما معنا ، ومع التمنع المبالغ فيه ، وإصرار شكري بـــك ، اشـــترط مصطفـــى تحملـــه لتكـــاليف السهرة ، وأمام إصراره ، لم يجد شكري بك بدا مـــن الإذعـــان ، خاصـــة وأن فكـــرة تحمـــل كل واحد بنصيبه ، رفضها مصطفى رفضا باتا ، فقـــط اشـــترط عـــدم وضـــع خمـــور علـــى الطاولة ، وكانت راحته الكبرى عندما علم أنه ليس من بيننـــا مـــن يقربهـــا .

وتساءلت عن سعيد بك العالم الذي بنى لنفسه صرحـــا في عـــالم الأمـــن الغذائـــي ، فأشـــار مصطفى إلى الباب ، حيث قدم سعيد وهو يتأرجح تحت وطأة ثقـــل جســـمه ، وثقـــل حقيبـــة كبيرة كان يحملها بصعوبة ، وفهمت سبب إصرار مصطفى علـــى تحملـــه تكـــاليف الســـهرة ،

فهو لا يريد أن يكون عبئــا بأسرته علينا ، وحتى يكون اســـتقبالنا لســعيد غــير مصحــوب بالغضاضة ، وقمنا بتوسيع الحلقة وأضاف خليـــل طاولــة أخــرى ، وجلــس ســعيد وهــو ينـــهج ، فبادره مصطفى معاتبا برقتـــه المعـــهودة :

- " الســـلام أولا .. "

وأجاب سعيد بصعوبـــة :

- " آخذ نفســي .. "

وبعد برهة ، قدم مصطفى سعيدا إلينا ، وقدمنا إليه ، وسلم ســـعيد علينـــا ســريعا ، لكــن يده التصقت بيد مني لفترة ، لاحظناهـــا جميعـــا ، ووكـــز مصطفـــى أخـــاه ، فــترك يدهـــا وجلــس ، بينما نظرت مني إلى مصطفـــى نظـــرة فيـــها بعـــض الغضـــب ، وقـــالت بتحـــد واضـــــح :

- " مش كنت تقول إنه جـــاى !! "

وأجاب مصطفى بهـــدوء :

- " لم أشأ أن أفسد المفاجأة جمالها ، ثم إن كـــل شـــروطك تم اســـتيفاؤها ، وأعتقـــد أن الأوان قـــد آن ، الآن . "

وهممت بالتعليق على بلاغة جملتـــه الأخـــيرة ، لـــولا أن شـــكري بـــك تســـاءل بجديـــة ، أخرجت الكلمات من فمه وكأنما هـــو غـــاضب :

- " إيه الحكاية يا مصطفى بـــك ؟ "

ولما كان كلام شكري بك قد اتصف بالرسميـــة المطلقـــة ، فـــهو لا يســـتخدم الألقـــاب إلا عندما يجد الجد ، خشيت أن تحدث كارثة ، إلا أن مصطفـــى قـــال موضحـــا :

- " شكري بك ، أقدم لك أخي ، العالم سعيد الخوجـــه ، وطبعـــا هـــو الآن غـــنى عـــن التعريف ، فكل مصر ، بل كل العالم يعـــرف مـــن هـــو ســـعيد الخوجـــة منـــذ الليلـــة ، وبالنيابة عن والدتي ، فنحن نطلب الآنسة مـــنى لـــه .. "

وابتسم شكري بك ، ووجه بصره إلى مني التي اكتسى وجهها بحمـــرة الخجـــل ، وقـــال :

- " هـو ده !! "

وهزت منى رأسها بالإيجاب ، ووجهها إلى أسفل ، وقـال شـكري بـك :

- " مع السكوت الذي هو علامة الرضا في هذا الأمر علـى وجـه الخصـوص .. ومـع علمي السابق بالموضوع ، وتحرياتي المكثفة عن العريـس ، لا أملـك إلا الموافقـة .. "

وانفرجت الأسارير ، وقمت مـن مكـاني أفسـح لسـعيد مكانـا للجلـوس إلى جـانب خطيبتـه ، إلا أن حماتي العزيزة ، أبت إلا أن تجعلـها دنـدرة ، فقـالت :

- " إيه يا مصطفى بك ، ده حضرتك رجل الأصول .. هـي الأمـور دى بتـم برضـه في الكازينوهات .. وسط السكارى .. والراقصات .. اللـي أنـت لا تحبـهم ؟ "

وتكهرب الجو ، وهم مصطفى بالتعليق ، لكن شـكري بـك بكياسـته المعـهودة ، زجـر زوجته بلطف قاس ، مفاكـها :

- " يا ستي المكان مش مهم .. المهم الفرحـة الـتي أدخلـها علينـا مصطفـى بـك ، وسعيد بك ، ومـنى بنتنا ، شوف يا مصطفى يا ابـني ، دلوقـت بـس ، وتعبـيرا عـن سعادتي المطلقة بهذا الخبر ، وبهذا النسـب ، أعلـن ، أن السـهرة دى علـى حسـابي ، ومفيش مناقشة .. أحسن أغـير رأي .. "

وتحرك من مكانه بعفوية شديدة ، لم يراع فيها احتكاكه بالكراسـي الـتي مـر بهـا حـتى أن البعض كاد يقع ، واتجه إلى منى يقبلها بحب وحنان وسعادة ، ثم تركـها ليقبـل سـعيد بنفـس الحب والحنان والسـعادة .

وتذكرت تلك اللحظة منذ أكثر من عام ، عندما فاتحتـه في أمـر خطوبـة هـدى ، لقـد نسى الرجل التحقيق الإداري الذي كانت تجريه معي ، والحدة الـتي كـانت بيـني وبينـها ، بل والتشاجر الذي حدث أكثر من مرة ، واستمهلني لأخذ رأيـها ، وبعـد الموافقـة ، كـانت ذات الأحضان وذات القبل ونفس الحنـان .

يا له من أب رائع ، ذلك الذي ينسى كل شئ في سبيل سـعادة ابنتيـه ، وتعـاقبت التـهاني من جميع أفراد العائلتين ، وكنت أنا آخر مـن قـدم التـهاني ، وهمـت والـدة زوجـتي أن

تزغـــرد ، لولا النظرة الحارقة التي وجهــــها إليــها شــكري بــك ، وتكشــفت لي أســباب هجوم مني على مصطفى ، ومروره هو ووالدته أمامنا وكأنمـــا لنطلـــب منـــه الجلـــوس معنـــا ، وإصراره على دفع الحساب حتى يكون وجود سعيد معنــــا مقبـــولا .

اجتماع ما كان ليتم لولا إرادة الله ، وصدق الله العظيم " ومن آياتـــه أن خلـــق لكـــم مـــن أنفسكم أزواجـــا .. "

وجدتني وحيدا وسط هذا الجمع الغفير ، شكري بـــك مـــع حمـــاتي ، ومـــنى مـــع ســـعيد ، وزوجتي مع صفيه زوجة مصطفى ، ومصطفى مــــع والدتـــه ، وتصـــورت الأســـئلة الكثـــيرة التي ربما تدور في رأس عمي شكري بك ويريد لهـــا إجابـــات حاســـمة ، فـــالرجل الصعيـــدي فجأة يكتشف أن ابنته تحب بوله ، وأن المحبـــوب ليـــس دون جـــوان ، ولا حـــتى نـــص دون جوان ، أكبر الظن أنها أعجبت بشخصيته ، ولا حتى هذه ، فهو ليـــس بـــالفذ الـــذي لم تلـــد مثله النساء ، فما هو السر ، لقد رفضت الكثيرين الذين تقدموا لها ، ربمـــا مـــن بينـــهم مـــن يفضله كثيرا ، فإن كان العلم الذي هو وليد ذلك المؤتمر ، فقـــد تقـــدم لهـــا مـــن يفضلونـــه علما ، وبأقدام أكثر رسوخا ، أما عن الشكل ، فإنه لم يحـــاول التجمـــل ، وهـــو يعلـــم أنـــه قادم ليقابل حبيبته وأهلها لأول مرة ، وربما كانت فكرة الخطوبة هـــذه ســبق التدبـــير لهـــا ، لا.. لا إن الشكل العام لا يوحي بذلك ، وكيف لهـــم أن يعرفـــوا أننـــا قـــادمون للســـهر في هذا الكازينو ، وفي هذه الليلة على وجه التحديد ، إن سهرتنا ذاتهـــا كـــانت وليـــدة الصدفـــة المحضة ، ولم يتم الترتيب لها إلا بعد انتهاء المؤتمـــر ، وشـــكله عمومـــا يوحـــي بأنـــه لم يكـــن مستعدا لا لسهر ولا لخطوبه ، ولكـــن كيـــف تم ذلـــك ؟ إن مفتـــاح الســـر كلـــه في يـــد مصطفـــى ، ذلك الساحر الذي يأســـر العقـــول .

لعلها تلك الفترة التي اختفى فيها عنا حيث قام بالاتصـــال بأخيـــه للحضـــور ، وهـــذا غـــير معقول ، إن الكازينو في شارع الهرم ، وحتى لو كـــانوا مـــن ســـكان منطقـــة الهـــرم ، فـــإن الاستعداد ، والخروج ، والحضور إلى هنا ، يحتاج إلى زمن لا يقـــل عـــن الســـاعة ، حـــتى لـــو حضروا بسيارتهم الخاصة ، ناهيـــك إذا كان الحضور بسيارة أجـــرة ، ســـاعة أخـــرى لكـــي يجدا سيارة أجرة على استعداد للوقوف ، وإن وقفت ، فقـــد يرفـــض الســـائق توصيلـــهما إلا إذا كانا في طريقه ، ليتني أستطيع معرفة هـــذا الســـر .

أما زوجتي ، فقد اندمجت مع صفيه زوجة مصطفى في حديـــث طويـــل ، ذكريـــات ، علـــى أمور شخصية ، على وصفات لأكلات ، ومصطفى في حديـــث طويـــل مـــع والدتـــه ، ربمـــا بشأن سعيد ، وخطبته ، وأنا وحيد أضـــرب أخماســـا في أســـداس ، ولا أدرى مـــاذا أفعـــل ، أخرجت مذكرة صغيرة يحرص شكري بك أن يحملها كل صحفـــي ، لكـــي يســـجل الخواطـــر التي قد تعن له في أي وقت ، وفي أي مكان ، وأخذت أدون فيها بعضـــا مـــن العبـــارات الـــتي ستدخل في التحقيق الصحفي ، وبعضا من الأسئلة التي أرى أهميـــة الإجابـــة عليـــها ، ســـواء من مصطفى ، أو من أبي نسب الجديد ، سعيد بك ، لقد أصبح هـــو ســـبع البرمبـــة ، بعـــد أن خطف الأضواء منـــي .

ما هذا ؟ هل أحسده ؟ وهل من هـــو في حالتـــه يحســـد ؟ إن مـــنى معـــروف عنـــها أنهـــا كشـــريه ، وتواجه كل إنسان بعيوبه حتى قبل التعرف عليـــه ، ولا أعتقـــد أن هـــذه الزيجـــة ستنجح ، لعلها لم تجد سواه يتمسك بها رغم ما تتمتع به من فظاظـــة أول علاماتهـــا ، عريـــس طازة ، تشرك أهلها معها فيه منـــذ اللحظـــة الأولى ، المســـكين بـــدلا مـــن أن يســـمع منـــها عبارات الحب والدلال ، يجيب على العديد من أسئلة عمى شـــكري بـــك ، وعفويـــة حمـــاتي ، والله إني لأشفق عليـــه .

لكنهما خيبا ظني .. لحسن الحظ ، فما أن اندمـــج شـــكري بـــك وزوجتـــه مـــع مصطفـــى ووالدته في حديث هام ، ربما عن تجهيزات الفرح وترتيباتـــه ، أو شـــئ مـــن هـــذا القبيـــل ، حتى فوجئت برأسي سعيد ومنى يقتربان ، وحديـــث هـــامس حرصـــت أن أتنصـــت عليـــه ، عادة ذميمة اكتسبتها منذ الصغر لعنها الله خادمتنا ، هـــي الـــتي مرنتـــني عليـــها ، وتفـــاقمت مع وظيفـــتي كصحفـــي ، فالأخبـــار لا تكـــون أخبـــارا إلا إذا كـــانت ممـــا يـــدور خلـــف الكواليـــس ، وما يدور خلف الكواليس لا يعرف إلا بالتنصت ، لكـــن همســـهما كـــان مـــن النوع الذي يصعب التقاطه .. لكن علـــى مـــين ...

قالت له معاتبـــة :

- " استطعت أن تنساني طوال هذه المـــدة !!!"

وأجاب بقلب يلهث حبـــا :

- " ما كان لي أن أنساك ، فأنت أمامي دائمـــا .. في يقظـــتي .. وفى أحلامـــي .. "

فقاطعتـه :

- " سيف مسلط عليك ، يلهبك بالبحث والتقـــدم والعمـــل .."

وحاول معها أن تخفف من حدة حوارهمـــا :

- " لا بل طاقة من النور البهي ، تلهمني الصواب في كل ما أقوم بـــه مـــن عمـــل .."

وتساءلت بتـــهكم :

- " ما هذه الشاعرية .. إنك حالة خاصة يا سعيد .. رجل علــــوم ، يتواجـــد دائمـــا في كلية الفنون ، وشاعريته هذه تؤهلـــه لكليـــة الآداب .."

وأفلتت منه بعض العبارات ، ربما يكون قد حرص فيها على إظـــهار براعتـــه ، أو يعـــبر بهـــا عن حبه لـــها :

- " سوف أسمعك بعضا من الشعر الذي كتبته لـــك ، وفيـــك !! "

وعلقت بتـــهكم :

- " وشاعر أيضـــاً .."

ولما كان صوتها همسا ، فإنه لم يستطع تبين نبرة التهكم فيه ، فظنـــها مدحـــاً ، فقـــال :

- " إذاً .. يجب أن تشاهدي ما رسمته لك من ذاكرتي التي لم تغيـــبي عنـــها أبـــدا .."

وعلقت ســاخرة :

- " ورسام كذلك .. وماذا بعــــد ؟ "

فأراد المسكين أن يظهر لها مدى ما شغله بـــه حبـــها :

- " فماذا لو شاهدت التماثيل التي جسدتك فيـــها ، نصفيـــة ، وكاملـــة .. "

كانت تظنه يؤكد لها أنها معه دائما ، في ذاكرتـــه ، وفى خيالـــه ، وفيمـــا هـــو أمامـــه مـــن ورق ، أو أي شئ ، لكنه ، ومع شعوره بعدم تصديقـــها لـــه ، فقـــد كـــان لوقـــع كلماتهـــا

الأخيرة عليه ، ما أكد له ذلك ، إذ ماذا تعني بتعجبها من رجل العلـــوم الـــذي يقـــول شـــعرا ويرسم ويشكل تماثيل !! فنان شامل بل أكثر من ذلك ، فـــهو عـــالم أيضـــا .. فانكفـــأ علـــى حقيبته العجيبة ، وأخرج منها بعضاً من الأوراق الملفوفة حـــول بعضـــها ، وفردهـــا أمامـــها ، متحفظا حتى لا يراها أحد ، فقد كان الخجل مسيطرا عليه بشـــكل يدعـــو لارتباكـــه في كـــل ما يقول ، وفى كل ما يفعـــل .

لكن زوجتي تنبهت عندما تحرك بصعوبة أثناء محاولتـــه الانحنـــاء علـــى الحقيبـــة ، وحملقـــت فيما حوته الأوراق من أشكال تحمل وجه أختها ، إنها ليست أشـــكالا ، إنهـــا صـــور ، أيـــن تم تصويرها ؟ فسحبتها زوجتي كما رجـــل البوليـــس يكمـــش دليـــلاً علـــى مجـــرم متلبـــس ، وعرضت الرسومات عليّ ، فصدرت عني آهة إعجـــاب مـــا كنـــت أســـتطيع أن أخفيـــها ، كيف له بهذه الدقة فيما رسم ، ولفت ذلك نظر والدها ووالدهـــا ، فطلبـــا مـــنى إطلاعـــهما عليها ، ومن ثم باقي الحفل الكريم ، والدته وأخيه ، وزوجة أخيـــه ، وتســـاءل الوالـــد كأنمـــا ابنته ارتكبت إثما ، كيف ، ومتى ، وأيـــن ..؟

وكان لارتباك منى ، وتلعثم سعيد وهو يعلن أنها من الذاكـــرة ، ويحلـــف بـــأغلظ الأيمـــان ، وهمت زوجتي أن تستخدم ما تلقته من علوم القانون ، وتمارس عمـــلا أتقنتـــه ســـابقا ، لكـــن موقف سعيد ومنى ، وكأنهما مجرمان في قفـــص الاتهـــام ، جعلـــني أمســـكها مـــن تلابيبـــها ، وكأني أرجوها أن لا تفعل ، فاستجابت علـــى مضـــض ، ولكـــن ابتســـامة مكـــر لم تخفيـــها زوجتي عن الجالسين ، فها هي سليطة اللسان التي لم ترحمنا في خطوبتنـــا ، تقـــع في المحظـــور ، وبأدلة دامغة ، يا فضيحتك يا شكري بك ، ماذا يقولـــون عنـــك في ســـوهاج كلـــها ..؟ وإذا كان قد استطاع تصورها فيما نراه من رسومات ، فكيـــف تـــراه تصورهـــا فيمـــا لا نـــراه ؟ لكنه لم يهتم ، فقد واتته شجاعة غير عادية ، نســـى معـــها خجلـــه ، وأخـــرج مـــن جعبتـــه مجموعة تماثيل نصفية وكاملة ، وصلت من الدقة الفنيـــة درجـــة غايـــة في الروعـــة ، وعلّقـــتْ هامســـاً :

- " وهذه أيضا من الذاكـــرة ! "

وكاد شكري بك أن يصب غضبه ، لولا أن التف حولنا لفيـــف ممـــن في الصالـــة ، وأخـــذوا يحملقون في التماثيل ، وانطلقـــت منـــهم عبـــارات الاستحســـان المبـــالغ فيـــها ، وكلمـــات

الإعجاب بالفنان المبدع ، ثم إنه خطيبها ، فماذا يضير إن كان قد سبق تلك الخطبة حب أو لقاءات نتج عنها رسومات أو تماثيل ، وجذبته زوجته لتهدئ من ثورته ، ونظرت إليه نظرة حانية رجته فيها ألا يكدر على المحبين ليلتهما .

وكملت ، فوجئنا بواحد ممن التفوا حولنا يخطف تمثال نصفي تميز عن باقي التماثيل بدقة تكاد تطابق الواقع ، وحملق فيه بمبالغة لا تصدر إلا عن خبير ، ثم عرض شراءه ، وفوجئنا بالجميع يحملقون في التمثال ، وقد شد انتباههم دقته وشاعريته ، واشتركوا بعفوية مطلقة في التزايد على شرائه ، ووصل المبلغ إلى رقم عشرة آلاف ، عرضها أخيرا خبير الفن إياه ، فانسحب الباقون من المزاد ، وهم يتابعون النتيجة ، فوكز الرجل سعيدا حيث كان في واد آخر ، وقال له :

- " هيه .. إيه رأيك .. عشرة آلاف ثمنا لهذا التمثال ، الحقيقة إنك فنان رائع ، لم أر في حياتي دقة ومهارة تصل إلى هذا الحد .. فأنا صاحب صالة فنون .. وأنا فنان أصلا .. "

وهمست في أذن سعيد :

- " أظنه مبلغا مناسبا في ظروفك الحالية .."

وأفاق سعيد على كلماتي ، ونظرت مني إليه بهلع .. إن التمثال يخصها .. يحمل ملامحها .. إنه لها .. إنه هي ، هل حقا سيبيعه .. هل حقا سيبيعها ؟ ورأس سعيد تهتز يمنه ويسرة .. والرجل يظنه يرفض السعر .. فيزيد ، ويزيد .. حتى بلغ أقصى ما يريد الرجل دفعه ثمنا للتمثال ، فقال :

- " عشرون ألفا .. ولن أزيد .."

صدرت عن الجميع آهة دهشة .. وتركزت كل العيون على سعيد لتعرف قراره ، ومنى بين الخشية من أن يسقط سعيد من نظرها بتفريطه في تمثال يخصها ، حتى وإن كان الشاري لا يعرفها ، ولم يرها ، ولا يعرف أنه يخصها ، يكفي أنها هي تعرف أنه يخصها ، وعينها على مبلغ كبير كهذا ، يساعد في كثير من أمور الزواج والفرح وشهر العسل .. إلى آخره .. وإذا بسعيد يعلنها همهمات غير واضحة ، أخذت تعلو وتعلو حتى صارت صراخا ..

• " ولا بكنوز الدنيا .. ولا بكنوز الدنيا .."

وتعجب الحاضرون ، فقد ظنوا أنه فنان يعرض إنتاجه ، وانسحب الرجل وعلامات الحسرة بادية عليه ، وأعلن وهو يبتعد عن رغبته في الشراء في أي وقت يشاء ، وبالسعر الذي أعلنه ، وبابتعاده عنا ، تبعه الآخرون ، بينما تهاوى سعيد على الكرسي وكأنما بذل مجهودا كبيرا في صراع مميت من أجل حبيبة عمره ، وتهللت أسارير منى ، رغم الخسارة المالية الكبيرة التي منيا بها في تصريح شجاع صدر عن قلب حبيبها بكل الصدق ، والود ، والنقاء .

وتقدم عمى شكري بك .. ونظرات الفخر والإعجاب التي تقطر حبا وحنانا بهذا الشهم الذي يستطيع أن يأتمنه على ابنته ، فمن لم تغره كل هذه الأموال ثمنا لتمثال يحمل ملامحها .. لابد وأنه سيكون أمينا عليها .. مد يده إلى سعيد مصافحا ، فنهض سعيد باحترام مبالغ فيه ، وأطبق على يد الرجل ، وكادت اليدان تذوبان حرارة وودا ، وبيده الأخرى ، أخذ يد منى ليضمها إلى يديهما .. وبدأ الرجل في قراءة الفاتحة .. ونحن نرددها معهم .

وكان لهذا الحدث وقعه ، وله الأولية على باقي الأحداث التي قدمنا للاحتفال بها ، فنظر إلى شكري بك نظرة ذات معنى فهمته ، ووافقته على ما يجول بخاطره ، فناديت على خليل ، حيث أسر في أذنه ببعض العبارات ، تهلل على أثرها وجه خليل ، وأسرع مهرولا ، وإذا بزفة المشاعل ووسطها طاولة عليها كيكة على شكل دبلتين متشابكتين ، كتب على إحداها اسم سعيد ، وعلى الأخرى اسم منى .. والمغنية تشدو بأغاني الخطوبة ، والراقصة تتمايل ، بينما سعيد ، وبسرعة غير معتادة ، انكفأ على حقيبته العجيبة ، وأخرج منها علبة قطيفة أنيقة ، أعطاها لوالدته ، التي قدمتها لشكري بك ، الذي سلمها لحماتي ، لتفتحها ، وتطلق زغرودة مدوية ما كان لشكري بك أن يمنعها ، فقد كانت في وقتها ، وأخرجت حماتي محتويات العلبة ، وتبادلت هي ووالدة سعيد تسليمه محتوياتها ليضعها حول عنق منى ، وفي أذنها ، وحول معصمها ، وكلها من الماس ، كذلك الدبلة المحبس الماس بعد الدبلة الذهب ، والخاتم ذو الفص الكبير من الماس والذي

يطلقون عليه سوليتير ، أما نصيبه من هذه العلبة ، فقد كـــان دبلتـــه الفضيـــة ، الـــتي ســـلمها شكري بك لابنته كي تضعها في إصبـــع ســـعيد .

وواصلت الزفة الأغاني والرقص ، بينما تشابكت أيـــدي ســـعيد ومـــنى في قطـــع الكيكـــة ، وانقلبت الصالة إلى عرس ، وتهاني ، وقبـــلات ، وتصفيـــق ، وضحكـــات .

اكتشفت اختفاء مصطفى بعد تقبيله أخيه ، وهنئته منى ووالديها ، وعاد بعد فترة من الوقـــت ، يتبعه الرجل خبير الفن ، ليعطى سعيدا شيكا بمبلغ عشرين ألف جنيه ، هدية خطوبه ، شـــريطة أن يصيغ له تمثالا ، في دقة وروعة تمثال خطيبته ، وأبدى أسفه لعدم علمه بأن التمثال يخص زوجـــة المستقبل ، ونظر سعيد إلى أخيه ، بينما هز مصطفى كتفيه وهو يقول :

- " رزق ربنا ساقه لك .. ترفضـــه !!"

وكان لكلماته وقع صادق ، لا يستطيع أحد أن يخالفه الرأي ، فنظـــر ســـعيد إلى مـــنى الـــتي أيدت رأى مصطفى ، وأخيرا وافق سعيد ، فقـــال مصطفـــى :

- " خير البر عاجلـــه .."

وصعق ســـعيد ..

- " الآن .. "

وتعجبت منى ، ولكن مصطفى أشار إلى الرجل الذي كان قـــد اســـتعد ، وبحركـــة تلقائيـــة ، انحنت منى على الحقيبة العجيبة لتخرج منها دفتر الاسكتشـــات ، وتعطيـــه لســـعيد ، الـــذي ذهب إلى الرجل وكأنما هو مسير بقوى خفية ، وطـــالت جلســـته مـــع الرجـــل لأقـــل مـــن نصف ساعة ، نظر الرجل فيما رسمه سعيد له خلالها ، وفغر فـــاه متمتمـــا بعبـــارات الدهشـــة من دقة الرسم ، بينمـــا انـــتزعت زوجتـــه الصـــورة ، ولم تســـتطع إلا أن تصـــدر صرخـــة إعجـــاب ، تجمهر على أثرها جمع غفير ممـــن في الصالـــة ، وانهـــالت الطلبـــات ، ومصطفـــى يسجل ، ويعطى مواعيدا للجلسات ، مع بطاقاته التي تحمل العنـــوان بعـــد أن غـــير الاســـم ، ويجمع شيكات العرابـــين .

وبعد أن أبدت السيدة إعجابها بما رسمه سعيد لزوجها ، أصرت على عمل تمثال لها هي أيضا ، وكانت الرهبة قد زالت ، فكان أكثر دقة ، وأقل وقتا ، وعاد سعيد ، لكن مصطفى لم يحضر إلا بعد مدة ، وقدم لسعيد بيانا بالراغبين في عمل تماثيل وطلب منه تحديد مواعيد للانتهاء منها وتسليمها لهم ، ثم إنه دس في يده مجموعة من الشيكات يبلغ مجموعها رقما من ذوي الأصفار الخمسة . وكان تعليقي الذي أبديته بدون تحفظ :

- " سبحان الله ، سهرة تتحول إلى عرس ، نتيجته مئات الآلاف من الجنيهات ، لابد وأن هذه العائلة مباركة .."

وهمست في أذن زوجتي :

- " ومش عاجب الست منى إن مصطفى بيشتغل سباك ، طب أهو سبع البرمبة طلع نحات .."

فعلقت زوجتي :

- " بس بقى تفرق ، سباك يحمل ماجستير في الجيولوجيا ، ونحات يحمل ماجستير في العلوم .."

رأيت خليلا يمر بجواري .. وكان المنقذ لي من حالة العزل الانفرادي التي وضعت فيها ، فناديته ، وأسررت في أذنه ببعض العبارات ، وانصرف الرجل ، لتحضر بعد فترة وجيزة زفة طويلة وعريضة تحمل المشاعل ، وتدفع في الوسط طاولة وضعت عليها كعكة عيد الميلاد ، وفي وسطها بعض الشموع التي لا تدل على شئ ، سوى التقليد الأعمى لطقوس الاحتفال ، وأطفئت أنوار الصالة ، وعزفت أنشودة عيد الميلاد ، ووصلت الطاولة إلينا ، والكل في دهشة حتى حماتي ، فالكل نسى عيد ميلادها ، ولم يتذكره سوى الرجل العجوز الذي رافقته رحلة حياته ، وكان لوقع المفاجأة على الجميع أثر جميل ، وكنت أعتقد أنه لم يكن من بين الموجودين من استعد لهذه المناسبة سواي ، وعمى شكري بك طبعا ، وبعد الغناء بالعربية والإنجليزية ، وجميع من بالصالة معنا ، أطفأت حماتي الشموع ، وتقدم عمي شكري بك ، فقبلها مهنئا ، وأخرج هديته وقدمها لها وسط تصفيق الجميع ، وإعجابهم بالرجل الشرقي الذي لم تنسه السنين حبه

لزوجته ، إلا أننا فوجئنا بوالدة مصطفى تقبلها مهنئة ، وتقـــدم لهـــا هديـــة ، لا أدرى ، هـــل كانت تعرف ؟ أم أنها كانت مستعدة لمثل هذه الظروف ، وبالطبع كـــان لهـــذا التصـــرف مـــن جانب النسب الجديد وقع ، وأي وقع ، لم ترفع حمـــاتي عينيـــها عـــن تلـــك الســـيدة المســـنة المهذبة ، قليلة الكلام والحركة ، فيما عدا حركـــة خفيفـــة مـــن الشـــفتين لا تغيبـــان عنـــها ، حتى لكأنى ظننتها مرضا ، وغمزت زوجـــتي ، وأعطيتـــها هديـــة والدتهـــا لتقدمـــها باسمينـــا ، وكانت أمينة في ذلك ، فقالت لوالدتها وهـــى تقبلـــها :

- " هديتنا يا ماما .. كل سنة وحضرتك بـــألف صحـــة وســـعادة . "

بينما أفسحت لي المجال لتهنئتها وتقبيلها ، أما سعيد المســـكين ، فقـــد أســـقط في يـــده مـــن اللحظة الأولى ، فلم يجد سوى زهرة من زهرية الطاولة ، يأخذهـــا بخجـــل ، ويقدمـــها لهـــا في حنان ، وهو يتلعثم في عبارات التهنئة ، ولم تملـــك الســـيدة حمـــاتي إلا أن تطبـــع قبلـــة علـــى جبينه الذي كان يتفصد عرقا ، وكان لتصرفه العفوي الجميـــل وقعـــا زاد مـــن محبـــة الجميـــع لـــه ..

آه إذا هذا هو سر تمسك منى به ، البراءة ، إنه إنسان برئ ، عفـــوي في كـــل شـــئ ، يالهـــا من أروبة منى هذه ، لقد عرفت كيف تختار ، مثل هذا النوع رجـــل بيـــت وفقـــط ، زوجتـــه وأولاده ولا أحد غيرهم ، طبعا وعائلته ، لكنه على كل فقـــد كســـب الجولـــة ، أمـــا أنـــا فقد مالت زوجتي تحيى شـــهامتي ، وتذكـــري لعيـــد ميـــلاد والدتهـــا ، وأشـــادت بذاكـــرتي الحديـــد ، عيد زواجنا ، وعيد ميلاد والدتها .. مـــا هـــذا ؟ أمـــا مـــنى ، فمـــن الواضـــح أن المناسبة لم تكن مفاجأة لها ، فقد قبلت والدتها وهنأتها وهى تشـــير أنهـــا المـــرة الثانيـــة ، يعـــنى سبق لهـــا التهنئة ، وبالقطع ، سبق لها تقـــديم هديتـــها .

وتعالت أصوات الطبول ، لتدخل راقصـــة إلى البلاتـــوه ، وتقـــدم رقصـــة خاصـــة ، بينمـــا المغنى ينشد جميع أغاني عيد الميلاد ، وكانت سعادة حمـــاتي لا توصـــف بهـــذه الحفـــاوة الـــتي لم تكن تتوقعها في مناسبة سعيدة تخصها ، تذكرها الجميع ، وشـــارك فيـــها الجميـــع .

ثم هدأت الصالة ، وقدمت نمرة جديدة ، كانت تبلوها فكاهيـــا ، أســـعد الجميـــع ، مـــا إن انتهى ، حتى تمت إشارات غير مفهومة لأحد ، ســـواي أنـــا وخليـــل طبعـــا ، وســـرعان مـــا قدمت الزفة من جديد ، والطاولة تتوسطها شمعة واحـــدة ، ولحـــن عيـــد الـــزواج ، واتجـــهت

الزفة ناحيتي أنا وزوجتي ، حيث حيانا الجميع بعيد زواجنا ، وأخرجـــت مـــن جيـــبي هديـــتي وأعطيتها لزوجتي مع قبلة هنئة جميلة ، كـــان لهـــا وقـــع جميـــل في نفـــس زوجـــتي ، وعنـــد الجميـــع ، وقدمت رقصة خاصة بهذه المناسبة ، والمطرب بجميـــع أغـــاني الأفـــراح ، وأســـقط في يد الجميع ، فلم يملك أحد تقديم هدايا ، سوى عمي شكري بـــك طبعـــا ، وفوجئنـــا جميعـــا بوالدة سعيد تقدم لنا هدية متواضعة من وجهة نظرها ، لكنـــها بـــالطبع كـــانت غاليـــة جـــدا بالنسبة لنا ، أن تتذكرنا هذه السيدة بتلك الهدية ، الـــتي بـــالقطع لم يكـــن لهـــا أي ترتيـــب ، اللهم إلا إذا كانت مني قد أطلعت سعيدا على كل ما يخصنا مـــن أعيـــاد وخلافـــه ، وقـــامت صفيه بتقبيل هدى ، بينما انحنى كل من سعيد ومصطفـــى مـــهنئين ، وطبعـــا قبـــلات حمـــاتي ومنى لكلينا أنا وزوجتي . إلا أنني فوجئت بهدى تلتصـــق بي وتهمـــس :

- " حتى آخر لحظة لم أكن متأكدة من تذكـــرك لعيـــد زواجنـــا إلا بالصدفـــة المحضـــة ، فلم تكن هناك أية مقدمات لذلـــك ، لا في الصبـــاح ، ولا ظـــهرا ، ف .."

وقبل أن تكمل .. قلت لها وقد ألهمني سعيد بعضا مـــن شـــاعريته :

- " كيف أنسى اليوم الذي وصل فيه قلبي إلى شـــاطئ الحـــب والأمـــان ؟ "

لكن على من .. ؟ خبيرة السين والجيم لا تنسى أبدا مهنتـــها ، حـــتى في العواطـــف :

- " هذا الكلام لا يخيل على ، أنا فهمك ربما أكثر مـــن نفســـك .."

وما كان أمامي إلا أن أتمســـكن :

- " إذا .. تظلمينـــني .."

فقالت بحـــدة :

- " فلأعلنها على الملأ .. وبصوت عال ليســـمعه الجميـــع .."

وحاولت منعها ، ولكنها ســـارعت :

- " أيها السيدات والســـادة ، إن اليـــوم كشـــف لنـــا عـــن اثنـــين مـــن الصحفيـــين الفاشـــلين ، وللأسف الشديد .. أنهما حبيبـــاي ، أبي وزوجـــي .."

ونظر إليها الجميع بدهشة التساؤل ، حيـــث استرســـلت :

- " القاعدة العامة التي يقدسها والـــدي ، في بـــلاط صاحبـــة الجلالـــة الصحافـــة ، أن الصحفي الناجح هو الذي ينسى كل شئ إلا مهنته ، ومـــا حـــدث اليـــوم يـــدل دلالـــة قاطعة على فشل الوالد والـــزوج .."

وضحك الجميع .. إلا أنا ووالد زوجـــتي طبعـــا ، فقـــد كـــان تصريحـــها ضدنـــا بشـــكل واضـــح ، اتهمتنا بالفشل ، فماذا بعد ذلك ، وهمـــس والـــد زوجـــتي في أذني :

- " أنت صحفي فاشل .. لذلك ســـأزيد راتبـــك .. "

وبالطبع شاركنا الجميع الضحك ، وأعاد والد زوجتي الهمـــس مـــرة أخـــرى :

- " أنت مدين لي بالكثـــير .. أولا إنقـــاذك مـــن ورطـــة الهدية .. ثم .. وهـــذا هـــو الأهـــــم .."

فقاطعته بسرعة حتى لا يظن أنني نسيت ، أو أتناسى .. مما جعل الجملـــة تصـــدر عـــن كلينـــا في آن واحـــد :

- " ثمن الهديتـــين .."

وضحكنا مرة أخرى ، بينما زوجتي ، والباقون ينظـــرون إلينـــا بدهشـــة ، إذ كيـــف لنـــا أن نضحك ، بينما هناك من يتهمنا بالفشـــل . وأطفئـــت الأضـــواء ، وقدمـــت فـــرة جديـــدة ، أغاني شعبية بالمزمار البلدي ، والربابة ، وآلات النفـــخ البلـــدي ، والتحطيـــب اللـــي علـــى أصله ، وشارك الجميع بـــدون تحفـــظ ، مـــن نهـــض لـــيرقص ، ومـــن هـــم بالاشـــتراك في التحطيـــب ، وكان عمي شكري بك علـــى وشـــك النـــهوض للمشـــاركة لـــولا أن حمـــاتي جذبته في اللحظة الأخيرة ، فشـــارك الرجـــل بـــالتصفيق بحمـــاس ، ومصطفـــى مســـتغرق في ضحك صامت ، فقد اكتشف أن ذلك الرجل الوقـــور ، جعبـــة المعلومـــات والحنـــان ، هـــو رجل شعبي بسيط ، يسعد جدا حيثما تجب الســـعادة ، ولا يمـــانع مـــن التعبـــير عـــن هـــذه السعادة حتى لو وصل الأمر لدرجـــة المشـــاركة .

وانتهت المراسم التي أقامها الملهى للعروسين ، ولحمـــاتي ، ولنـــا ، وانتظمـــت الأمـــور وفـــق ما سبق رسمه من برامج ، وحضر خليل بنفسه ليطمئـــن إلى أن مـــا قـــام بـــه كـــان موضـــع التقدير منا ، ومن شكري بك بلدياته على وجه الخصوص ، ونـــادى علـــى النـــادل ليســـجل

طلباتنا ، وجاء دور سعيد وعبثا حاول النادل تنبيهه لكنه كان في واد آخر ، اشتبك مع منى في حديث طويل ، هل هو حديث ذكريات ؟ أم شاعرية حب ومناجاة محبين .. ربما كليهما .

وتنبهت منى ، فطلبت عشاءها ، وتناغما في طلب عشائه .. وزوجتي تنظر إلي من طرف خفي ، وكأنما تقول لي تعلم ، فما كان لنا أن نفعل ذلك في أيام خطوبتنا ، أمام عمي شكري بك وحماتي ، لا أدرى لماذا ؟ ربما لعلاقة العمل التي تربطني بشكري بك ، وربما لأن حبي لهدى لم يكن وليد مشاعر وأحاسيس بقدر ما هو تدبير عقل وإعمال تفكير ، فقد اكتشفت فجأة من خلال ما كانت توجهه لي من أسئلة وتلح في طلب الإجابة عليه بكل الدقة وبكل التفاصيل ، ونشاطها الزائد عن الحد ، واهتمامها بكل صغيرة وكبيرة ، وصرامتها في تطبيق القوانين والتعليمات ، والتنظيم الرائع لأعمالها ومكتبها ، وملفاتها ، وانضباط موظفيها ، وتسلسل العمل وانسيابه بما لا يسبب أية اختناقات أو عراقيل ، إضافة إلى رشاقتها ، وأناقتها ، وتناسق القوام ، ونعومة بشرة وجهها دون مساحيق أو بهرجة تطفئ بشاشة البشرة وتطغى على براءتها .

لم تكن عيونها خضراء ولا زرقاء ولا حتى بنفسجية ، ولكنها عيون مصرية ، كحيلة بكحل رباني تذكرني بعيون نفرتيتي ، أو حتشبسوت ، واسعة ، كاملة الاستدارة ، طويلة الأهداب ، معبرة ، فهي تستطيع أن تسلطها فتصبح سهاما فتاكة ، تردع كل من تسول له نفسه خداعها أو اللهو معها ، حتى ولو كان بريئا ، وحنونة أسرت قلبي ، فما بقى لي من عمل سوى إمعان النظر إليهما ، ومتابعة رشاقتها وأناقتها وتناسق خطواتها في الذهاب أو الإياب ، وأكثرت من مخالفاتي لكي تطول فترات قربي منها ، ويسعد فؤادي بدفء وجودي معها ، وذهبت تشكوني لوالدها ، فأنا غير منضبط ، كثير الأخطاء ، غير متعاون أثناء التحقيق ، حيث إنني كنت لا أعمل شيئا خلال التحقيق سوى النظر إليها ، تسأل فلا أجيب ، وتجيب هي نيابة عني ، فلا أعترض ، وتوقع العقوبات واحدة تلو الأخرى ، ولا شئ إلا الاعتراض من ماذا ؟ ولماذا ؟ المهم الاعتراض لأعاود القرب منها ، وأمتع النظر والنفس بشفافية جمالها وعذوبة صوتها أريج عطرها .

وواجهني شكري بك بكل هذا ، وأنا مطـــأطئ الــرأس كتلميــذ بليــد ، فنــهرني الرجــل بقسوة ، فهو لا يحب الخنـــوع ولا البــلادة ، ووجدتــني أنتفــض أمامــه وأنــا أردد كلمــة بحبـــها .. بحبها ، وفوجئ الرجل الأب ، والرئيس في العمــــل .. واســتدركت نفســي :

- " يعني لو مفيش عند حضرتك مـــانع .. نتجـــوز ! "

وازدادت دهشة الرجـــل :

- " إنها تشكو منك مر الشكوى .. فهل تتصور أنهـــا تحبـــك ؟ "

وإجاباتي كلها مبهمة ، مشوشة ، ثم وضعته أمام الأمـــر الواقـــع :

- " إما زواجي منها ، أو استقالتي ، فلن أســتطيع العمــل معــها في مكـــان واحـــد .. دون أن يربطنا الـــزواج .."

وكانت دهشة الرجل أكبر ، فأنا من وجهة نظرة مشـــروع صحفـــي نـــاجح ، فضـــلا عـــن صداقته لوالدي ، بالإضافة إلى أنه كان يختصني بمشاعر أبوة صادقة ، ربمـــا لأنـــه كـــان دائمـــا ما يقول لي إنه بالرغم من غبائي .. إلا أن دمي خفيف ، كـــان يقولهـــا كلمـــا أراد أن يقـــرص أذني لخطأ مهني ، فسبابه لموظفيه حظوة لا ينالها إلا المقربـــون ، والعجيـــب حقـــا ، أن الرجـــل فوجئ بموافقتها .. وتبين لي فيما بعد ، أن القسوة التي كانت تعاملني بها ، مـــا هـــي إلا قنـــاع تخفي به مشاعرها ، والحدة التي كانت تواجهني بها ، كانت سلاحا تـــواري بـــه ضعفـــها .

ثم تم أسرع زواج ، أسبوعان فقط ، فقد كنت مســـتعدا لهـــذا اليـــوم ، والـــدي أطـــال الله عمره ، اشترى لي الشقة ، وأودع لي مبلغا مناسبا لمتطلبات الشـــبكة والمـــهر وخلافـــة ، وأنـــا استطعت تدبير الأجهزة الكهربائية والسجاد والمطبـــخ والســـخان وخلافـــه ، زيـــارة واحـــدة لشقتي ، ومقابلة في مساء ذات اليوم بين العائلتين ، والدعـــوة بـــالتليفون ، وفســـتان فـــرح في اليوم التالي ، وحفلة بسيطة في فيلا شكري بـــك ، والعروســـة للعريـــس .

شعرت بالسعادة لانتهاء الفقرة التي كانت تقدم ، ربما لأنهـــا كـــانت مـــن النـــوع الـــذي لا أجد له قبولا ، لا أدرى .. فقط أنهـــا لم تســـتحوذ علـــى انتبـــاه الكثـــير مـــن الموجوديـــن ، واكتشفت أن الوضع كما كان قبل شطحتي الطويلة التي عـــبرت بهـــا الزمـــان عـــام وبضعـــة

أسابيع ، وما قبلهما بأشهر ، سعيد مازال يهمس ويهمس ، ومنى تعيد وتزيد ، وزوجتي مع أمها وصفيه وشكري بك مع مصطفى ووالدته ، وأنا مع وحدتي .

وقدم خليل بهمة المدير ، وكرم الصديق ، واهتمام البلديات ، وأخذ يصف الأطباق واحدا تلو الآخر ، كل أمامه طلبه ، ومجموعة من السلطات والمخللات والمقبلات وكل ما يخطر على البال ، وفوق كل هذا ، هدية المحل ، ديك رومي مشوي بالخلطة ، وهو ما أسال اللعاب ، ولم ننتظر ، لولا أن شكري بك بكياسته طلب من خليل تقطيعه لأعملنا المخالب والأنياب ، والعجيب أن الطريقة التي قدم بها الرومي كانت مشهية لدرجة الهيال الطلبات من معظم الموجودين ، وانشغل الجميع في الطعام ، وتبادلت مع زوجتي بعض العبارات .

لكننا فوجئنا بانتقال صفيه إلى جوار مصطفى ، تختار له ، وتجهز له ، وتطعمه .. أي والله ، تطعمه وهو مهتم بوالدته ، يطعمها ، ويطعم صفيه ، والأدهش من ذلك ، تحرك حماتي لتقليدهم ، حتى أصبحت القاعدة العامة أن كل منا يطعم الآخر ، حتى سعيد ومنى ، وكأنما وضعت حلاوة الدنيا كلها في هذا الطعام ، الحب مختلط به ، وتمنيات الصحة والسعادة تسبق لقيماته ، ياه ، إنها عادة قديمة أحيتها فينا هذه الأسرة العريقة ، من منا لديه الوقت ليطعم نفسه ، فما باله بإطعام الآخرين ، حتى ولو كانوا فلذات أكباده .

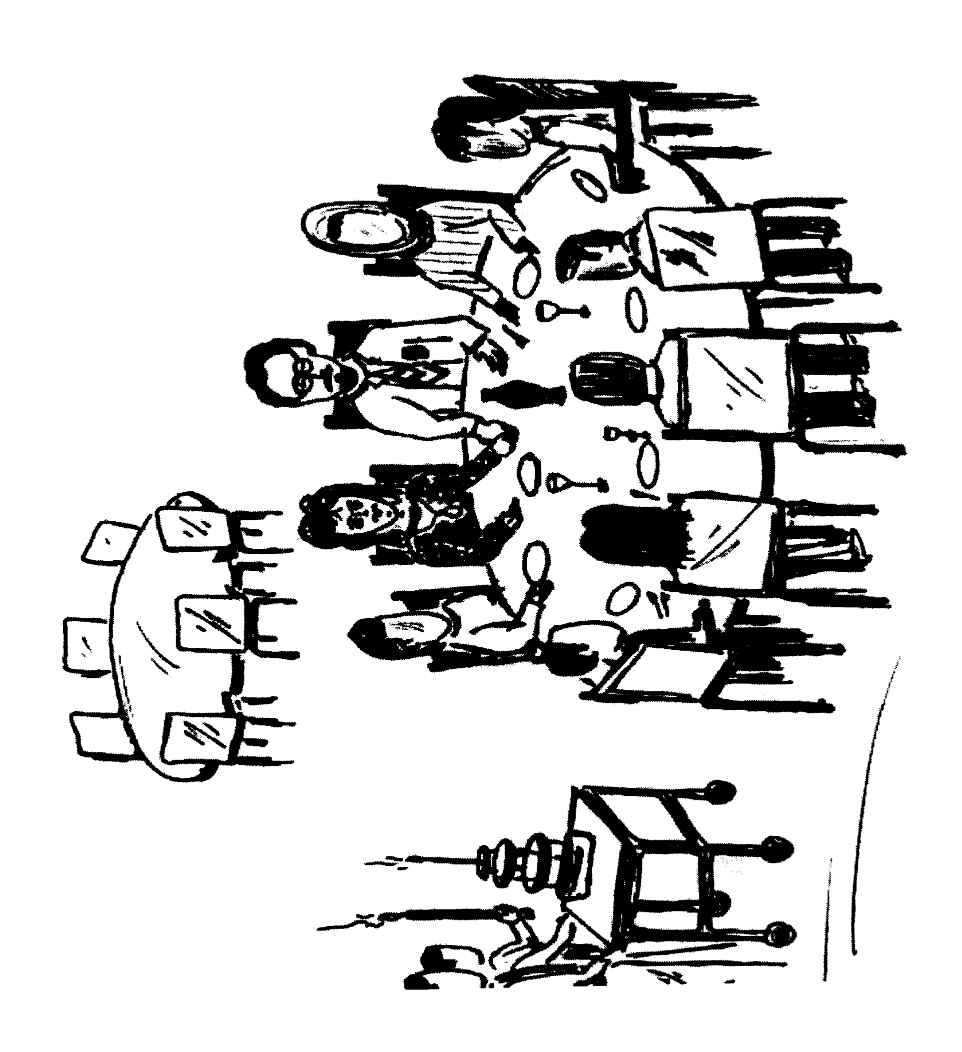
ولفت ذلك نظري إلى أمر هام ، ذلك الحجاب الذي تبشنقت به صفيه ، إنما صغيرة نوعا ما على ارتداء الحجاب ، حقيقة أن معظم السيدات المسنات التي أعرفهن محجبات ، لكن قليلات هن الشابات ، خاصة إن كن في جمال صفيه ، لابد وأن هذه العائلة متدينة جدا ، تذكرت أن صفيه قالت أن جد مصطفى الخوجة كان من العلماء ، لكنها لم تحدد أي نوع من العلماء ، لكننا درجنا على إلصاق هذا اللقب بعلماء الدين ، فلابد وأنه كان عالم دين ، وطبعا ابن الوز عوام ، وكذلك زوجته ، ولابد وأن حركة شفاه والدتهم ما هي إلا تسبيح ولا شئ غيره ، ذلك أنها اختفت أثناء الطعام ، وكذلك أثناء الكلام ، تسبيح في مرقص وملهى ، إنه الإيمان ، ليس مهما أين تكون ؟ المهم ماذا تفعل ؟ ودرت ببصري في أرجاء المكان ، هل هناك محجبات أخريات ؟ وعجبت أن هناك

أكثر من محجبة ، إذا ليس معنى الحجاب اعتزال الحياة ، ولا معـــنى التديـــن اعـــتزال النـــاس ، سبحان الله ، لكم دينكم ولي ديـــــن .

وفوجئت بزوجتي تضع في فمي هبره من لحم الرومي اللذيــــذ الطعـــم ، فتقبلتــــها بســـعادة ، ونبهتها إلى وزني الذي يتزايد بسرعة نتيجة طعامها اللذيـــــذ ، فضحكـــت بـــبراءة وعذوبـــة ، وهي تردد عبارتها المعتـــادة :

- " تعلمنا في المدرسة أن المعدة طريق المرأة إلى قلـــب الرجـــل ، ثم إن إتخامـــها ، يقفـــل الطريق على أية امرأة أخـــرى ."

ونبهتني إلى حالة الهيام التي تعيشها أم لسان طويل ، تقصد أختها مـــــني ، فقـــد كـــانت لنـــا بالمرصاد خلال فترة خطوبتنا القصـــيرة جـــدا ، لم تـــترك صغـــيرة ولا كبـــيرة دون تعليـــق ، فدعت عليها زوجتي أن تعاني حرقة الحب وعذابه ، وربمـــا تكـــون قـــد اســـتجيبت دعوتهـــا ، لكن هل بدأ الحب بينهما منذ تلك الدعوة أم قبلـــها ؟ شـــغلني هـــذا الســـؤال المحـــير الـــذي يشغل كل من لا شغل له إلا مشـــاكل النـــاس وأحوالهـــم ، فـــأوحيت إلى زوجـــتي التنصـــت عليهما ، حتى نسجل لهما مثلما كانت تسجل هي لنا ، وراقـــت لزوجـــتي الفكـــرة ، مذكـــرة إياي بأيام الشقاوة عندما كانت صغيرة ، فقلت في نفسي .. إنهـــــا عـــادة ذميمـــة مارســـتها في الصغر ، وتفاقمت مع وظيفتي كصحفـــــي .



وإذا بزفة المشاعل ووسطها طاولة عليها كيكة على شكل دبلتين متشابكتين

٥- دردشة عائلية

قاد أحمد سيارته بعد انتهاء الحفل ... وما أن استعد للتحرك ، حتى وصلته أصوات بائعي الجرائد ينادون على صحف الصباح ، ويركزون على المانشيت الرئيسي فيها الذي أثار عجب كل من سمعها ، حتى السكارى استشكل عليهم الأمر فنفض ما تبقى من آثار خمر سلبت لبهم ، زراعة اللحوم ، هل هذا ممكن ، اشترى كل ما صدر من جرائد رغم أنها تأتيه يوميا على مكتبه مجاناً ، وتصفحها سريعاً قبل أن يتحرك بسيارته ، لكن لم يكن يخطر على باله هذا العنوان الذي غلف اكتشاف أشجار البروتين بأسلوب رجل الشارع وحتى المثقفون واسعي الاطلاع .

تصفحها بسرعة ، فقد استولت على تفكيره مجموعة التساؤلات التي أثيرت في وجدانه ، لعلها حاسة الصحفي ، أو لعله الفضول الذي يفرض عليه معرفة الأجوبة لكل الأسئلة . وأول هذه الأسئلة هو ، هل ما حدث الليلة كان وليد الصدفة ؟ أم أنه القدر الذي له أقلام تكتب إرادة الله ، أم أنه تدبير ، وإن كان ، فمن هو صاحب هذا التدبير ؟ هل هو مصطفى ؟ لقد كان كثير الحركة ، كثير الغياب ، لعله رتب لكل هذه الأحداث ، ربما حتى قبل أن يدعوه للانضمام إليهم ، ولو كان ذلك ، فهل كان يعلم أنهم سيطلبون منه الانضمام إليهم ؟ فلو كان قد خمن ذلك ، فهو بدون شك فلته من فلتات الزمان ، ولم لا ؟ إن ما توصل إليه وكشف عنه مؤتمر اليوم ، يؤكدان كم هو إنسان شديد الذكاء ، ألمعي ، وهذا النوع من البشر يستطيع أن يعرف ما يجول في الخاطر قبل الجهر به ، أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات ، ولن يهدأ له بال حتى يحصل لها على تفسير مقنع لكن كيف ؟ هذا هو مربط الفرس .

ولاحظت زوجته ذلك الصمت الرهيب ، ماذا حدث لزوجها الذي لم يكن يترك ثانية واحدة دون أن يكون له تعليق ، أو رأى ، أو هجوم ، أو ملاطفة ، وفيما يختص بكلمات الحب ، فقد كانت أشعاراً وأوزاناً منذ الخطوبة وكذلك أول أيام الزواج ، أما بعد ذلك ، فقد باتت شحيحة ، لا تقال إلا في المناسبات ، ولكن ما يحدث الآن حالة فريدة ، ذلك الشرود الذي انتابه ليس من طبعه ، هل حدث هذا التغيير نتيجة خطوبة منى المفاجئة ؟ هل تشتعل نار الغيرة من وجود زوج لأخت زوجته ، عديله يعنى ؟ وهل حقاً ما يشاع عن الخلافات الدائمة بين العدلاء حقيقة ؟ وكان لابد لها أن تعرف حقيقة الأمر ، فالكارثة الحقيقية ، أن يجتمع القانون والصحافة في مكان واحد ، بل وفي بيت واحد ، والذي لا يمكن تحمله أن يكونا زوجا وزوجة ، هو تحقيقات صحفية فيها

بالقطع س و ج ، وهى تحقيقات قانونية فيها أيضا س و ج ، حقيقة أن أسلوب كل منهما يختلف ، لكن الهدف الأساسي هو الصدق والحقيقة ، فالأول يهدف إلى تقديم الصدق والحقيقة على صفحات جريدته أو مجلته ، بينما الثاني يهدف إلى تقديم الصدق والحقيقة تحقيقا للعدالة ، الحقيقة والصدق بالنسبة للأول قد تؤدى إلى إثارة الرأي العام ، وما قد يستتبع ذلك من أمور قد تؤدى بالبعض إلى الإعدام ، والثاني حقيقته وصدقه قد يؤدى أيضا إلى الإعدام ، إذاً .. تعددت الوظائف ، والإعدام واحد .

وكان لا بد لها من أن تنبهه ، فهي لن تقبل به إلا زوجاً لها وحدها ، ملكها .. على الأقل في اللحظات القليلة التي تنفرد به ، لا يجب أن تأخذه منها شاردة ولا واردة :

- " أحمد ... أحمد ... "

قالتها بهدوء حتى لا تزعج أفكاره ، ولما لم ينتبه ، اضطرت إلى رفع صوتها وكلما تلكأ في الاستجابة ، رفعته أكثر ، حتى تنبه لها أخيرا :

- " ما هذا ؟ منذ أن انتهت السهرة وخرجنا من الكازينو وأنت صامت ! هل أعجبتك الراقصات والمغنيات ؟ أم وقعت في غرام جديد !!"

لقد تعمدت توجيه الاتهام إليه ، هكذا هو عمل رجال القانون ، الهجوم خير وسيلة لاستخلاص الحقائق ، فنظر إليها محدقاً وقد أذهلته التهمة ، ثم انصرف عنها دون أن ينبس ببنت شفة ، واستمر في صمته ، فعمدت إلى إثارته بتهمة أشد وأنكى :

- " لعلها صفيه .. فهي جميلة حقا ، وقد زادها الحجاب جمالاً .. فأنا أعرفها جيدا قبل الحجاب ، أو لعل الزواج قد زادها جمالاً أيضا ، فهذه هي القاعدة .. "

وازداد تحديقه فيها ، فقد تطاولت أكثر مما ينبغي ، وكأنما أراد إغاظتها ، فما دامت لا تزال تزاول معه هذا الأسلوب البوليسي ، فليدعها تضرب أخماساً في أسداس ، ويتركها على شكوكها ونارها ، هكذا يكون التعامل مع أمثالها ، لكنها لم تتركه ، كالت له اتهاماً جديداً .. ربما أقسى وأشنع :

• " أو لعلها والدة مصطفى .. إنها حقا سيدة مسنة ، ولكنها مازالت تتمتع بجمال سـنها ، وأنا أعرف أنك حرمت من حنان الأم صغيراً ، فربما كان في حنانها ما يعوضك حنـان الأم ، عقدة أوديب .. "

وانفرجت عقدة لسانه ، فقال مستنكرا :

• " يا شيخه حرام عليكِ ، عارفه ده في الشرع اسمه إيه .. اغتياب ورمى أعراض ، وأنـت طبعا عارفة العقوبة الشرعية ، والتي أيدها القانون الذي درستيه ، والا فاكره إن أنت فقـط التي تجيدين ذلك .. "

فقالت وكأنما أرغمت على ذلك :

• " أعمل لك إيه .. ربع ساعة مضت دون كلمة واحدة ، مش كفاية بعدك عنى ، وحتى في قربك منى ، سايبنى وحيدة . "

فوجدها فرصة .. لماذا لا يشركها معه ، والنساء خير من يأتين بالأخبار ، فقال :

• " هل تظنين أن ما حدث اليوم كان صدفة كما يبدو ، أم أن هناك ترتيب ؟ "

وتساءلت باهتمام يتناسب مع جدية الأمر :

• " أي حدث تقصد !! "

وأجاب وكأنه مازال يعصر فكره باحثاً عن إجابات :

• " خطوبة منى .."

وأجابت بعزة نفس تدافع عن أختها :

• " منى أختي كالبدر في تمامه ، لولا دراسة الدكتوراه التي تصمم على مناقشتها قبل أن تبلى بالزواج ، لكانت الآن أما لدستة من الأولاد ."

فقال مسترحماً ذكاءها الذي يجعلها تسقط مشاكلها معه في كل مناسبة ، وتفسر الأمـور وفقـاً لهواها :

- " يا حبيبتي والله العظيم أنا عارف ده كويس ، فانتم يا آل جهينه .. خصكم الله بجمـــال طبيعي ، اختلطت فيه الدماء العربية ، بالحضارة المصرية ، ومن حسن حظي أن الله خلقـك لي زوجة حنونة مخلصة ، أمامها نفرتيتي وحتشبسوت .. بل وفينوس نفسها لا يساوين شيئا .. "

وابتسم ابتسامة ماكرة ، يعلم تماما أنها ستثيرها ، وقد حدث ، فقالت بانفعال :

- " ياه وليه الكرم ده .. زى ما يكون تعطف عليَّ بالزواج منى .. الله يرحم ، تحب أفكرك إن كنت ناسي ... وإلا يعنى مكنش فيه غيرك !!"

كيف يتعامل معها ، إنها فكرة غبية أن يشركها معه في هذا الأمر ، وعاد إلى صمته مرة أخـــرى مادام الكلام سوف يأتي له بالمشاكل ، لكنها أبدا لا تريده صامتا ، في رأيها أن المشاكل هي ملـــح وفلفل الزواج ، وفى رأيه أنه تزوج لكي يرتاح من المشاكل ، ولذلك فهو يؤثر الصمـــت كلمـــا أرادت أن تزيد الملح والفلفل ، ولكنها تفضل الشجار عن الصمت ، فكفاها صمتاً طوال غيابـــه عنها ، ومن حقها أن تنعم ببعض الكلام ، هي التي تخرجت من كلية .. الكلام هو صناعتـــــهم ، فقالت في هدوء وكأنها تحدث نفسها :

- " يعنى لو مكنش بسلامته ، كان زماني عانس ."

فقال بانزعاج :

- " ومن قال هذا ، وهو يعنى أختك منى عانس ؟ أعوذ بالله من ألفـــاظك ، لا .. مؤكـــد السهر أثر على أعصابك .. "

ثم قال بعد فترة صمت:

- " عيد جوازنا .. وكلمات الحب والغرام مفروض تكون هي وسيلة التفاهم اليوم ، وليس الدخول في مهاترات .. سؤال برىء تقلبيه بقدرة قادر إلى قضية .. منى عانس !! "

لقد أراد أن يوقعها في شر أعمالها .. وأن يشدها إلى ملعبه .. وما كان أمامها إلا أن تدافع عـــن أختها حتى لا يزلف لسانه أمام منى بشيء من هذا ، فيوقع بينهما :

- " منى جاءها أكثر من مائة عريس .. لكنها كانت ترفضهم جميعا بسبب سبع البرمبـــة .. سعيد أفندي بتاعك .."

شعر بنشوة الانتصار ، فكالها لها سخرية :

- " إذاً كنتم تعلمون بقصة الحب التي بينهما .. عيني يا عيني على الصعايدة !! "

سلمت بأنه قهرها بسخريته هذه ، لكن لا .. لابد له أن يعرف الحقائق ، حتى لا يتطاول أكثر مما ينبغي ، فلو أنه لم يوقف عند حده ، صارت مضغته التي يتلسن بها ذهاباً وعودة ، فقالت له :

- " طبعا كنا نعلم ، لقد قلتها لك من قبل ، أن منى لا تخفي عنا شيئاً ، لقد طلب منها أن يتقدم لخطبتها ، وكنا نتباحث في الأمر ونرجئه لحين انتهائه من دراسته هو على الأقل ، خاصة وأنه كان متفرغا لها ، ولا عمل له .."

وعاجلها قبل أن تظن أنها انتصرت عليه :

- " لكنها كانت في انتظاره ، وكنتم توافقونها على ذلك . "

وتعجبت من تساؤلاته التي لا معنى لها :

- " ولم لا .. لقد قام أبي بالسؤال عنه وعن عائلته ، واقتنع به كرجل شهم وشجاع ونبيل ، ولكن الزواج يحتاج إلى ما هو أكثر من الحب والشجاعة والشهامة والنبل ، إنه يحتاج إلى عمل ، ومستقبل وفلوس ، ويا حبيبي أنت تعلم جيدا أنه إذا دخل الفقر من الباب ، خرج الحب من الشباك ، يبقى من الأفضل أن نقفل الباب أمام الفقر بالضبة والمفتاح .. ومنى تريده عالما ثريا نبيلا شهما كريما .. والحقيقة أن سعيداً فيه كل الصفات ماعدا حكاية الثراء هذه . "

وتحير من إجابتها ، كما أنه أراد ألا يخرجها من دائرة الدفاع ، فسارع :

- " لكن عائلتهم ثرية .. إن الشبكة التي قدمت اليوم ثمنها يفوق عشرات الآلاف .."

فصمتت برهة كي ما تجد له إجابة شافية :

- " إنها أموال أخيه ، فقد أممت أموالهم كلها في أوائل الستينيات ، ولم يبق لهم سوى الخمسين فداناً في كفر الغلابة المؤجرين بتراب الفلوس ، وكام عمارة إيجارها لا يكفي مرتب الخدم عندهم . "

واستمر في سخريته :

• " أخوه السباك . "

وأثارها سخريته من مصطفى ، الرجل الذي ثبت لهم أنه أقوى من الزمن ، وأمضى من القهر ، وأصلب من أن تثنيه عن عزمه بعض سلبيات المجتمع ، أو صمت القادرين على تغيير مجرى الأحداث ، لخوف زرع في قلوبهم ، أو لقهر تسلط على عقولهم ، أو لوهن تسرب إلى نفوسهم ، فقالت له بقسوة واضحة :

• " لا تقل ذلك على مصطفى بك .. إنه كتلة من الشرف وعزة النفس .. "

وشعر بما تختزنه في نفسها ، وأنها قد تستغل هذه الفرصة لتفرغ كل ما يمكنها من دفاع عما اعتبرته تشهير بعائلتها ، أو بعائلة سعيد ، فقاطعها متعمدا محاولة إسكاتها :

• " أمال إيه حكاية السباكة دى ...؟ "

وبدأ السأم يتسرب إلى نفسها ، فما هكذا تكون الأحاديث ، ولا هكذا يكون الحوار ، ولا هكذا يكون التفاهم ، فقالت متعمدة استفزازه :

• " لا أعرف عنك النسيان .. ألم يقصها أمامك ؟ "

فقال بتهكم ، ليرد لها عصبيتها :

• " لكن أختك كالتها له كما الإهانة ، وأكثر .. لولا كلام والدتك ، وتعنيف والدك .."

فهدأت قليلا ، فقد صور لها تصرف أختها على أنه جريمة :

• " أنا لا أعرف الكثير عن مصطفى إلا من خلال كلام سعيد لمنى .. وأعتقد أن منى من زمان وهى تتألم لهذا الضياع الذي يعيشه علماؤنا .. ففي رأيها أن الموهبة تقتل إذا لم يتم تنميتها بالتشجيع المعنوي والمادي يعنى الفلوس .. ونظرا لأن رسالة الدكتوراه بتاعتها عن اختلاط الأجناس وتأثيره على الحضارة المصرية القديمة وإفرازاتها الحالية ، والمفارقات الكبيرة بين تخلفنا اليوم مقارنة بتقدم أجدادنا المصريين القدماء زمان ، حيث يتبين أن العقل المصري شئ أكثر من رائع ، لكن هناك خلل ما ، هناك شئ أضاع هذا العقل في البحث عن لقمة العيش وطوابير السوبر والمواصلات والفراخ ، خاصة وأن قصص أبناء مصر الذين تركوها إلى الدول الأوربية أو الأمريكية ، تثبت أن هذا العقل مازال بخير ، ولكن الظروف المحيطة به هي

التي تجعله غير مجدٍ في مصر ، وحالة مصطفى ، تعد من أهم الحالات التي تركز عليها مـنى ..
فقد وضعتها في رسالتها كأهم أسباب تخلفنا ، ولذلك فقد كانت هذه هي المرة الوحيدة الـتي استطاعت أن تتحاور مع مصطفى وجها لوجه ، وفكرا لفكر ، وزي ما سعادتك عـارف أن الهجوم خير وسيلة للحصول على الحقائق ، فقد بادرت بالهجوم عليه ، وهى في الحقيقة تدارى أمراً على جانب كبير من الأهمية .."

وسألها مستفسراً :

- " ما هو ؟ "

واسترسلت ، حتى لكأنها بدأت قبل أن ينهي سؤاله :

- " إن زوجته السابقة ، تطلق على هذه الأسرة إشاعات ، كفيلة بأن تجعلهم في عزلة عـن الناس ، وقد تأكد ذلك لوالدي عندما بدأ السؤال عنهم ، فقد كانت كل المعلومـات الـتي وردت له ، تؤكد على أنها أسرة عريقة ، ولكن أبناءها خائبون ، واحد سباك ، والثاني معتـق في كلية العلوم منذ زمن طويل ، ولم ينه دراسته . "

وعلق بعفوية :

- " لكنها تعرف مصطفى .. وهذا معناه أنها قابلته .. "

وأجابت بسؤال ، ربما لتؤكد له عدم تركيزه :

- " وهل إذا رأته مرة أو اثنتين ، ستسأله عن سبب امتهانه للسـباكة ؟ ثم أنهـا أرادت أن توضح الأمر لوالدي ، حتى لا يعارض في أمر زواجها من سعيد ، فقد كان ما قيـل عنـهما كفيل بأن ترفض أي عائلة مصاهرتهم . "

فأراد أن يستوضح ما يعلم سلفاً أنه واضح :

- " ولكن مصطفى كان يتعمد الإطناب في الإجابة على أسئلتكم ؟ "

وأرادت أن تشعره بأن ملكة الاستنتاج عنده قد أصابها العطب ، أو ربما هو سكر مـن رائحـة الخمر دون أن يقربها :

- " ذلك أن والدي لم يوافق نتيجة ما وصله من أخبار عن هذه العائلة ، وهذا كان من أهم الأسباب التي أجلت الخطوبة ، وقد تعمد مصطفى الإسهاب حتى يصحح ما قد يكــون قــد وصل للعائلة من معلومات مغلوطة ، فلا تتصور أن واحداً في ذكاء وألمعية مصطفى ، ســيغفر لنا أو لغيرنا تأجيل طلبهم مصاهرتهم ، لابد له بالقطع أنه استفسر وتقصى وجمع المعلومــات ، وعرف بسموم زوجته أو أقاربها التي كان لها هذا التأثير .. "

وسأل سؤالا ، سبق لها أن أوضحته :

- " وهل تقدم سعيد ورفض ؟ "

فقالت وقد تأكدت من عدم تركيزه ، أو ربما أنه يتعمد إغاظتها :

- " لا أدري ماذا أقول ؟ هل أصابك شئ ، ألم أوضح لك ذلك مسبقاً ؟ ومع ذلك فســـوف أقولها مرة ثانيـــة ، عسى أن ينعم الله عليك بالألمعية التي دائماً ما تستغلها في غير محلها ، لا .. لم يتقدم ، ولكن متى أخبرت الوالد بطلبه ، وبعد أن تم تحديد موعد للقاء العائلتين ، تم إلغــاؤه في آخر لحظة ، بسبب تلك الإشاعات التي أطلقتها زوجة مصطفى السابقة . "

وكأنما ليشعرها أن سؤاله له أهميته ، في تحديد مواقف والدها ، فقال :

- " ما أعلمه عن والدك .. أن هذه الأمور ليست لها هذه الخطورة ، ألم يقم بحاسة الصحفي وهمته بالتحقق من مدى صحتها ودقتها ، ثم يقرر بعد ذلك ما يجب عليه اتخاذه من قرارات ، أليست القاعدة في العمل الصحفي أن نواجه الضحية بما روج عنها من إشاعات أو أقــاويل ، ثم نستنتج الحقائق بعمل المقارنات واستنباط النتائج ، في اعتقادي أن والدك أخطأ في انســياقه وراء إشاعات هذه السيدة وأذنابها .. "

وقبل أن تهم بالدفاع غاضبة عن سبه لوالدها ، أضاف :

- " أتدرين .. أن هؤلاء الأذناب كانوا سببا مباشرا لإنهاء مؤتمر اليوم ، لقد وجهوا لمصطفى مجموعة من الأسئلة عن حياته الشخصية ، ثم انفجرت فيه أكثر من واحـــدة ، تبــين مــدى تقصيره في حق زوجته ، والنتيجة ما نشرته صحف الصباح التي أمــامك ، وكلــها ســباب وتشهير به وبعائلته .."

فقالت وقد تفهمت وجهة نظره ، وحمدت الله على أنها لم تكن فترة من فترات الغباء البشـــري المؤقت ، ولا نشوة خمر تشممها في الكازينو دون أن يقربها ، ولا هو عدم تركيز :

- " حمداً لله ، فقد ظننتك نسيت الصحافة ، وهناك أمور أخـرى تبينتـها مـن أسـئلتك السـاذجة ، ولعلمك ، إن كل ما قلته صحيح ، ولكن أنت تعلم أن والدتي جدهـا كـان باشـا ، وقد رفضت مجرد ذكر اسم سعيد في الفيلا ، فقد اعتبرت أن الغباء والكسل صفتان لا يجب أن نلوث بهما نسل عائلة جدها الباشا ، ولعلك شعرت بمدى سعادتها عندما علمـت أن جد سعيد كان باشا ، لكن خيبته في الكلية ومهنة أخيه ، كانا سببا أساسيا لرفضها لـه في البداية ."

وشعر بأنها تتربص به رغم السهر ، ورغم تعبها ، فأراد أن يعتذر ولكن بأسلوب لا يظهر فيـه ضعفه ، فقال عاتبا على والدتها تصرفها هذا ، الذي يضع للألقاب والجذور العائلية ذلك القدر من الأهمية ، في زمن تساوت فيه الكثير من المعايير ، وعلى وجه الخصوص تلك التي تتعلق بـالجذور العائلية هذه ، فقال :

- " أمر جميل حقا ، أن ترفض الخطوبة في بادئ الأمر ، بسبب مجموعة من الإشاعات التي لم يتم التحقق من صدقها ، وممن ؟ من صحفي عتيد مثل أبيك ، ثم تقبل بعد ذلك لأن الجد كان باشا ، لماذا ؟ لأن الوالدة جدها كان باشا ، ولا تريد لنسله أن مش عارف إيه .. "

فقالت لكي تؤكد على أن الرفض السابق كان في محله :

- " لعلك لم تلاحظ العبارة الخطيرة التي قالتها أمي واصفة تصرف مصطفى عندما طلب يـد مني في الكازينو ، بأنه تصرف غير لائق ، لا يصدر إلا عن سباكين ."

وبدأ يندمج معها في تحليلها للمواقف :

- " ولذلك كان مصطفى حريصا على أن يوضح أسباب انخراطه في مهنة السباكة ، وركـز كثيرا على عودته من اليابان ، وعلى أعمال التصدير والاستيراد التي كان يزاولها ، والضرائب التي خربت بيته .."

فأضافت ، وقد زال التوتر الذي سببته عباراته السابقة :

- " ليس هذا فقط ... فكما رأيت أن الشبكة كانت أكثر من رائعة ، وغالية جدا .."

وقصت هدى لزوجها قصة شراء الشبكة :

- " عندما علم مصطفى بأسباب رفضنا سعيد ، رتب لهذا الأمر منذ مدة طويلة ، فأوعز إليه أن يطلب من منى اختيار ما تريده الوالدة كشبكة ، وطبعا ذهبت الوالدة مع منى عند الجواهرجي الذي نتعامل معه ، واختارت ما ثقل وزنه وغلا ثمنه لتعجزهم ، والخائبة منى أخذت سعيداً وعرضت عليه اختيارات والدها ، فأحرج المسكين من أن يفاتح أخاه في هذا الأمر ، لكنه أخذ والدته يوما ، وجعلها ترى هذه الشبكة ، وصممت والدته على شرائها حتى ولو رفض مصطفى ، وعندما علم مصطفى بأن والدته على استعداد أن تبيع جواهرها وحليها لشراء شبكة سعيد ، أسرع مصطحبا سعيداً واشتراها ، بل وزاد هدايا لكل أفراد أسرتنا ، يعني لي ولوالدتي ، فقد اعتبر أن المسألة مسألة كرامة ، وكرامة أخيه فوق كل اعتبار ولابد لعائلتنا أن تفهم أن عائلة الخوجة باشا ليست كما تشيع سميحه هانم بنت القرنفلي باشا زوجته السابقة . "

وعقب أحمد قائلا :

- " يعني الشبكة كانت جاهزة ، وخيبة سعيد ، بددها الانتصار الكاسح الذي أعلنه على الملأ النجاح الرائع في مؤتمر الليلة ، وأعقبه مئات الآلاف التي حصلها مصطفى ثمنا لتماثيل تعاقد عليها ، ولم يبق للسيدة والدتك حجج ترفض بها سعيداً ، ولا لسميحه هانم بنت القرنفلي باشا فرصة لتشيع سمومها عن هذه العائلة الرائعة ، ولعل في الهدايا التي تم شراؤها لك ولوالدتك وقدمت في موعدها المناسب ، ما جعل والدتك تعجب بهذه الأسرة بل وتحبها ، ليتك كنت تلاحظين نظرات الإعجاب التي اختصت بها والدتك والدة سعيد طوال السهرة ، بعد أن قدمت لها هدية عيد ميلادها ، وازدادت مع هدية عيد زواجك ، أما حبها لسعيد فقد تجلى حقيقة مع تلك الزهرة التي قدمها لها بعفوية مطلقة ، وهذا يثبت أن الأمر لم يكن فيه ترتيب ، ولا علم مسبق بالمناسبات .."

فاندمجت معه في تحليله للمواقف :

• " غالب الأمر أن مصطفى قدم للسهر ، ونحنا ، فأجرى اتصالاته بسعيد للحضور هو ووالدته فورا ، فالمناسبة جد مناسبة ، وقد تعمد الإطالة في حديثه وإسهابه ، لكي يعطى الفرصة لهما للحضور وليوضح ما التبس علينا من أمور . "

وأضاف أحمد :

• " ولعل هذا يوضح السبب في أن والدك لم يقرأ الفاتحة بمجرد طلب مصطفى يد منى لسعيد ، لكنه بعد أن رأى بعينيه ، أن سعيداً رفض مبلغاً كبيراً من المال الذي هو في أشد الحاجة إليه ثمنا لتمثال يخص منى .. "

وقاطعته مكملة حديثه ، حتى تشعره أنها معه في فكره :

• " أجل ، لقد كان لهذا التصرف أثر كبير في نفوسنا جميعا ... ألم تلاحظ أن منى اصفر لونها وهى ترى تمثالاً يخصها موضع مساومة ، فما بالك لو كان قد باعه ، لقد تصورت أنه سيبيعها هي ، وليس التمثال ، والحقيقة أن هذا كان شعورنا جميعا . "

وبدا له أن يعلن الهدنة ، ويفسر لها أسباب الهجوم على الجميع ، عائلتها وعائلة مصطفى ، وما خص به والدها ووالدتها من بعض عبارات التجريح :

• " أتعلمين يا هدى ؟ .. إنك أوضحت لي أموراً كثيرة . "

وسألته مضيفة إليه الصفة التي يحلو لها دائما أن تصفه بها :

• " ما هي يا فريد عصرك ؟ "

وأجاب ، حتى قبل أن تنهي سؤالها :

• " أولاً ... أنكن يا بنات حواء لكن قدرات هائلة في عالم الأخبار ، تبقى معها كل تقنيات الصحافة قديمها وحديثها ، مجرد تروس بالية في عجلة الأخبار الحريمي .. "

شعرت أنه كانت لديه بعض التساؤلات ، وأراد أن يستوضحها بأسلوبه الاستفزازي الذي غالباً ما يستخدمه معها ، كلما عن له معرفة أمر من الأمور :

• " وثانياً .. "

فأضاف :

- " أنك فسرت لي الكثير من التساؤلات ، التي كانت تمثل لي قمة العجز في فضولي كصحفي .. "

فأرادت أن تستوضحه باقي هذه التساؤلات ، وقد حمل صوتها بعضاً من التفاعلات التي بدأت تتراكم في نفسها من أسلوبه المستفز :

- " وثالثاً ... "

فأكمل غير عابئ بما كان واضحاً في كلامها من استهزاء :

- " وثالثاً .. أنك فسرتِ لي كلمة كان مصطفى قد قالها لي تعليقا على الهجوم الذي شنته بعض النسوة عليه في المؤتمر .. "

فاستوضحته باهتمام :

- " وماذا قلن ؟ "

فأجاب باستفاضة :

- " لقد هاجمنه لانصرافه عن زوجته وأولاده ، للعمل والأبحاث العلمية ، وكادت له إحداهن لتكشف عن امتهانه للسباكة .. "

وبدأت تهتم بالأمر فعاجلته متسائلة :

- " وماذا كان تعليقه ؟ "

ووجدها فرصة يستطيع بها أن يزيد من تشوقها وفضولها ، فتخرج ما لديها من معلومات تكون قد وصلتها :

- " أبداً .. كلمة صغيرة قالها .. تار بايت .. والآن فسرت أنت لي بعضاً من هذا التار البايت ، أغلب الظن أنهن صديقات سميحة هانم زوجته السابقة .. "

ثم استدرك ، فنقل الحديث بسرعة إلى موضوع خطوبة سعيد ومنى أختها :

- " لكنك لم تقصي لي حكاية الحب بين منى وسعيد .. "

قالت بانفعال :

- " بسرعة عملتها حكاية .. "

وشعر وكأنها تقول له ألا يتبسط معها في أمور عائلتها لهذه الدرجة ، فقال ليبسط الأمور :

- " كل حاجة في الدنيا لها حكاية .. يعنى هم من الباب للطاق تعارفا ، وأحبا بعضهما .. "

فقالت بهدوء ، وكأن الأمر عادي جدا ، وليس كما أعلن أنها حكاية ، ولكنها في الحقيقة لم تملك إلا أن تفجرها قصة ، أسعده تفاصيلها :

- " لا أبدا .. بس دى قصة عجيبة فعلا .. "

لم يعلق على التعبير الخاص الذي أطلقته هي ، فقد استنكرت وصفه لها بأنها حكاية ، بينما هـــي اعتبرتها قصة ، نظر لها نظرة شعور بنشوة النصر ، خاصة وإنه سيقع على كنز من المعلومات عـــن هذا الفيلسوف المحب :

- " أموت أنا في القصص العجيبة .. "

وبدأت هدى تقص قصة حب سعيد ومنى :

- " كانت منى قبل زواجي منك ، قريبة جدا مني ، تقص لي كل صغيرة وكبيرة ، ومنـــــذ أن التحقت بكلية الآداب ، وهى تخرج من باب كلية الفنون لأنـــه قريـــب مـــن موقـــف الباصـــات التي تحضرها إلى البيت ، لكنها لاحظت أن هناك شخصا يقبع في أحد التراسات ، وقد ارتدى بالطو ثقيلا جدا ، ويرسل بصره إلى لا شئ ، وتعجبت .. فهي تكاد ترى هــــذا المنظر يوميا ، وكأنما هذا الشخص قد أصبح من تماثيل هذه الكليـــة ، إلى أن أوقعـــها الله في شـــر أعمالها .. "

وضحكت بصوت عال ، مما حفزه أن يحثها على الاستمرار دون توقف :

- " كيف ؟ "

استعادت هدوءها ، وبدأت تسترسل :

- " في إحدى المرات ، وكانت الأمطار قد أغرقت الشوارع وممرات الكليات ، وقد ركزت بصرها عليه تتابعه من بعد ، لم تنتبه لحفرة مليئة بمياه الأمطار والطين ، فوقعت فيها ، والتف حولها مجموعة من طلبة الكلية ، وبدلا من مساعدتها ، انخرطوا في ضحك هستيري ، وجاء البطل الهمام ، ليرفعها من الحفرة ، ويدثرها بالبالطو الذي كان يلتحف به ، والذي كان لا يعجبها ، وقام بمساعدتها في خطواتها المتعثرة ، إلى أن أوقف لها تاكسي ، وتركها .. "

وتساءل متعجباً :

- " دون أن يعرفها .. "

فقالت بسرعة لم يتوقعها :

- " وحتى دون أن يسألها عن اسمها .. "

فانطلقت منه عبارة شكر لسعيد على هذا التصرف :

- " والله إنه لشهم حقا .. "

واسترسلت وكأنما هي تؤكد حقيقة ما سأل عنه :

- " وهذا ما أثر في منى جدا ، فقد كانت تسلخه استهزاء وتريقه ، وبعد هذا التصرف شعرت بمدى ما ألحقته به من ظلم ، خاصة وأنه ترك لها المعطف دون حتى أن يأخذ منه حافظة نقوده ، وحتى تكتمل فصول المأساة ، اكتشفت عندما وصلت إلى البيت وأرادت أن تدفع أجرة التاكسي ، أنها فقدت كيس نقودها في الحفرة ، ولم نكن بالبيت عند عودتها ، ولم تجد سوى حافظة سعيد تدفع منها أجرة التاكسي .. "

فصاح مادحاً :

- " شهامة ، وكرم .. "

فأكملت مؤكدة ما قامت به منى أختها مقابل شهامته وكرمه :

- " وهى التي جعلته أضحوكتنا جميعا ، وأشركت بعض زميلاتها في السخرية به ، فكن يذهبن خصيصا لكلية الفنون لرؤيته في مكانه دون تبديل ، أو تغيير .. "

وعندما شعر بأنها على وشك أن تنهي الحديث ، أرادها أن تكمل :

- " ثم ماذا ؟ "

فأرادت أن تعيد صورة أختها براقة كما يجب أن تكون :

- " بمجرد وصولها البيت سارعت بالاهتمام بنظافة البالطو ، فقامت بإرساله للتنظيف الجاف مشترطة إعادته في نفس اليوم ، ولم تنتظر بل ذهبت بنفسها لاستلامه ، وأعادت ما سبق أن أخذته من نقود إلى الحافظة ، وحرصت على أن تسلمه إليه في اليوم التالي .. "

فعلق تعليقاً يتناسب مع الأحداث :

- " تصرف طبيعي ، رجل بمثل هذه الشهامة .. يستحق أكثر من ذلك .. "

وأكملت :

- " وفي اليوم التالي تقدمت إليه على استحياء ، تعطيه البالطو ، وتعجبت من أنه لا يذكر شيئا عن أحداث اليوم السابق بالمرة ، لا عنها ، ولا عن البالطو .. وبعد جهد استطاعت أن تذكره بنفسها .. وتعطيه البالطو ، ولما كان هو متدثراً ببالطو آخر ، فقد نظر إليها وتعجب من أنها تعطيه بالطو لا يخصه .. "

وأذهلته الأحداث ، هل حقا قدمت له بالطو لا يخصه ، فسارعت موضحة :

- " لقد تغير لون البالطو بعد أن تم تنظيفه ، ولذلك أنكره ، ولولا أن منى أخرجت منه حافظة نقوده ، لما عرفه .. وبعد أن تذكر لامها أنها أعادت إليه أجرة التاكسي .. بل وأضاف إلى ذلك أن أعطاها هي حافظة نقودها كما هي ، بقذارة الحفرة وطينها ، حتى لا تتهمه بشيء نقص ، أو أنه اطلع على أسرارها ، وقدمت له نفسها ، وأصرت على أن يقابلنا لنشكره على تصرفه الشهم ، لكنه اعتذر ، ومع إلحاحنا عليها للتعرف على هذا الشهم الذي كان مادة لسخريتها ردحا من الزمن ، كانت دائما ما تلقى إليه التحية ، وتدعوه للحضور ، والحقيقة أننا كلنا كنا في شوق للتعرف إليه .. خاصة بعد أن قدم نفسه إليها .. وأن الفيلا الخاصة بهم في ذات منطقتنا .. وعمدت منى إلى كاتمة أسرارنا .. أم محمد ، للتعرف على كل ما يخص

تلك العائلة من أخبار ، ووصلتنا الأخبار حتى طلاق مصطفى بك من زوجته سميحـــه هـــانم القرنفلي ، وزواجه من صفيه .. "

وتساءل عن مدى العلاقة التي تربطهم بصفيه :

- " وهل كنت تعرفين أن صفيه زوجة أخ سعيد .. ؟ "

فقالت ببعض التردد :

- " لا .. فبالرغم من أنها كانت زميلة لنا في المجلة .. وكنا كثيرا ما نقوم بتوصيلها إلى فيـــلا الخوجة باشا .. لكن وصل الأمور ببعضها لم يكن وارداً في ذلك الوقت .. فمنى وصفت الفيلا لأم محمد فقط ، ونحن كنا نوصل صفيه إلى الفيلا دون أن نعرف أنها فيلا سعيد .."

وأراد أن يستشف أفكار مصطفى ، ورأيه في عمل الزوجة :

- " وهل كانت تعمل بعد زواجها من مصطفى .. ؟ "

وهزت رأسها بالنفي ، فأرادها أن تكمل حديثها :

- " ثم ماذا بعد ؟ "

فانتظرت برهة ريثما تتذكر الأحداث ، ثم قالت :

- " بدأت منى تدافع عن سعيد كلما عنّ لصديقاتها أن يذكرنه بتهكمهن المعتاد ، ويوم وراء يوم ، اكتشفن أنه في كلية العلوم ، ودهشن أنه ينادى عليه في تلك الكلية بكلمة دكتـــور ، واستفسرن ، فدست لهن سميحه هانم من يروج عنه أنه صار له مدة طويلة في الكليـــة ، وأن لقب دكتور الذي ينادونه به ليس إلا أسلوباً من أساليب الاستهزاء نتيجة تعتيقه في الكليـــة ، وكانت الست منى بقى وقعت لشوشتها في حبه ، فبدأت تتودد إليه في الذهاب والعـــودة ، حتى أحبها هو الآخر ، وكلما ألح في خطوبتها هربت منه ، كانت محرَجـــة أن تواجهـــه بمـــا تعرفـــه عن عيوبه ، وأخيراً قررت مواجهته بفشله ، وفي البداية أبدت لــــه تعجبـــها مـــن وجـــوده في كلية الفنون ، رغم أنه طالب علوم ، ثم ثنت بتعتيقه في تلك الكلية ، وكانت قد تأثرت بما روجته الست سميحه هانم التي أفلحت في تشويه سمعة تلك العائلـــة عنـــد الوالـــد والوالدة ، ثم كان ما كان الليلة .. "

انتفض من شروده مع القصة ليعلن دون تفكير :

- " ياه .. ده ولا الخيال .. "

فقالت مبررة تمسك أختها به ، وانتظارها له :

- " الحقيقة إن منى لها الحق في التمسك به .. ولعلك لاحظت ذلك .. إذ أنه بعد أن تتعرف عليه جيدا .. يدخل القلب .. "

فقال ثائرا :

- " إيه ده .. إيه يدخل القلب .. والكلام ده !! "

فسارعت تؤكد له حبها :

- " يا حبيبي .. هو فيه مكان لغيرك في قلبي .. "

ونظرت إليه بعينين كلها شوق وحب ، لم يستطع معهما إلا أن يذوب حبا وصبابة ، وقال :

- " يا حبيبتي .. تعلمين كم هو مقدار حبي لك ، إنه يزداد يوما بعد يوم .. يا أغلى حب لي في حياتي .. "

ولف ذراعه حولها ، محتضنا إياها ، ولم ينتبه إلى أنه تخطى إشارة المرور الحمراء ، وإذا بالشـــرطة تستوقفه ، وتقتاده هو وزوجته إلى القسم بتهمتين .. تخطى إشارة المـــرور ، وفعـــل فـــاضح في الطريـــق العام .



وإذا بالشرطة تقتادهما إلى القسم بتهمتين ، تعدي إشارة المرور ، وفعل فاضح في الطريق العام

٦– الأتيليه

كان لا بد من إعداد أتيليه للفنان العبقري الموهــوب ، ولا بــد وأن يكــون الأتيليــه علــى مستوى يتناسب مع رسوخ قدم أخيه وفنه الذي شهد له بـــه مئــات الآلاف مــن الجنيــهات التي تم جمعها في جلسة واحدة ، وبدأ في إعداد تصور لما يكون عليـــه هــذا الأتيليــه ، وأيــن يمكن أن يكون ؟ ثم قام بعمل العديد من الاتصالات مــع مهندســيه ومعاونيــه ليؤكــد علــى الانتهاء من هذا العمل خلال يوم واحد على أكــثر تقديــر ، وحــتى يــهيئ الجــو المناســب الذي يمكن سعيد من تنفيذ الاتفاقات التي تمت مع عاشقي الفــن مــن رواد الكــازينو ، فــإن الأمر يحتم تزيين الأتيليه ببعض الأعمال الفنية من إنتاج سعيد ، وكذلـــك مــن إنتــاج كبــار الرسامين والفنانين من مختلف المدارس الفنية ، القديمـــة والحديثــة .

كما يجب إعداد تنظيم دقيق لكل شئ ، والأهم هــو ترتيــب التعــامل مــع العمــلاء ، مــن حيث طريقة وأسلوب استقبالهم ، أو تسليمهم الأعمال الخاصـــة بهــم ، إذ لا بــد أن يكــون كل شئ محسوبا ومدروسا بدقة فقد يكــون العمــل كأحســن مــا يكــون فنــاً وعبقريــة وإنتاجــاً ، لكن تصرفاً أهوجاً أو إهمالاً من أحد عناصر العمــل قــد يســئ إلى العمــل كلــه ويفسد كل شــئ .

وبعد تفكير عميق ، وجد أن أفضل مكان يصلح إعداده ليكون أتيليــه ، هــو المنــدرة الــتي كان يستخدمها جده الخوجة باشا منامة للضيوف وخاصة الذين يفدون مــن كفــر الغلابــة ، والتي كانت والدته قد قبلت الإقامة بها ومعها ســعيد ، عندمــا قــررت بنــت القرنفلــي أن تنفرد بالفيلا لها ولابنتيــها ، ومصطفى فوق البيعة ، كمــا أنــه كــان قــد أعدهــا لإقامــة صفيه ووالدها خلال فترة مرضها وما قبل زواجه منها ، وبـــدأ في رســم صــورة معينــة لمــا يجب أن تتحول إليه تلك المندرة ، لتكــون أتيليــهاً مناســباً لفنــان كبــير ، بحجــم أعمــال ســعيد ، فإن موهبته الكبيرة ، هي التي أهلته لهـــذه المكانــة ، ولهــذه التعــاقدات ، فكــان يتسلل أثناء السهرة دون أن يشعر بــه أحــد ، ويجــرى اتصالاتــه مــع مهندســي شــركته للترتيب للأعمال الخاصة بتعديل المندرة إلى أتيليه ، ويحدد لهــم أن يبــدأ العمــل في الصبــاح الباكر ، وكل مهندس يتولى الترتيب مع أطقم عمالـــه ، ومــع مــوردي الخامــات ، ومــواد الديكـــور .

وفكر في أن تقوم صفيه بمهام الاستقبال والضيافة ، ويشرك جميع من بالمترل ، وكذلك منى في باقي الأمور الإدارية الأخرى ، فإن صفيه ومنى ، وجميع من بالمترل من خدم وخادمات وسفرجية وكذلك البواب ، يمكنهم القيام بذلك إذا ما تم تحديد العمل لكل منهم بدقة متناهية وتنظيم جيد .

فقد تكون صفيه هي الأنسب لأعمال التنظيم العام والسكرتارية ، فإن دراستها في كلية البنات تؤهلها لأن تكون ست بيت ممتازة أو مدرسة تدبير ، أو مشرفة على ركن المرأة ، أو صفحة الأخبار الناعمة .. شئ من هذا القبيل ، لكن السكرتارية والاستقبالات وتنظيم الأعمال ، هذه أعمال تحتاج إلى خبرات خاصة وتمرين ، ويستطيع هو تدريبها على هذه الأعمال من منطلق أنه لا يوجد إنسان لا يستطيع القيام بأي شئ إذا تم توفير التدريب المناسب له ، طبعا والاستعداد الذي لخص في عبارة كل ميسر لما خلق له ، وله في ذلك تجاربه الشخصية ، فما لدراسة العلوم وأعمال السباكة التي مارسها وبرع فيها وكسب منها الآلاف !! وكذلك له في ذلك تمارين عملية ، بدأها ماي سيتو في القاهرة بمحل زهور ، وزراعة نباتات طبية وعطرية ، وتأثيث وتأجير شقق مفروشة ، ثم وأخيرا تدريس اللغة العربية لليابانيين ، وكذلك التمارين العملية التي مارسها معه ناجا سيتو أخو ماي سيتو في إدارة الشركة التي أنشأها ناجا وتركها هو لابنته مايسه قبل عودته من اليابان .

أما الأعمال المساعدة للفنان ، كتجهيز الأتيليه ، وتوفير المواد اللازمة ، ومناولته الاسكتشات ، وتسليم الأعمال ، فلا أفضل من خطيبة سعيد .. الآنسة منى ، لتقوم بهذه المهمة ، على الأقل تحفزه على العمل بسرعة وإتقان ، فإن الإنسانة التي دفعت فيه الحماس للانتهاء من دراساته ، والبزوغ في أبحاثه ، بمثل ما أعلنه مؤتمر الليلة ، لهي جديرة حقا بأن تكون حريصة على أن ينجز أعماله في الوقت المحدد ، وبالدقة اللازمة خاصة وأنها تجيد أكثر من لغة .

ولم ينتظر ، اتجه إلى منى في جلستها الرومانسية مع سعيد ، واستأذن من الجميع ، وهمس في أذنها بمجموعة من العبارات ، وأسعده أنه وجد منها ترحيبا لم يكن يتصوره ، فطلب منها أن تكتم الأمر عن سعيد ، حتى يفاجأ بها في الصباح ، تحفزه على العمل ،

وقررت منى أن تكتم الأمر عن الجميع وليس عن سعيد فقط ، وهي تشعر في داخلها بسعادة غامرة ، فهاهو الساحر الذي يحول كل شئ إلى عمل جاد ومنتج ومربح ، يجد لها مكاناً معهم ، ومن اللحظات الأولى في حياتها الجديدة ، وبدأت في مراجعة جدول أعمالها للغد ، ووجدت أنه لا يوجد ما يؤثر على دراستها ، أو مقابلاتها مع المشرفين على رسالتها ، أو حتى أي مكان مهم يلزم الأمر الذهاب إليه (اللهم إلا السوق لشراء بعض الملابس التي تتناسب مع الحدث الجديد السعيد الذي ألم بها على حين فجأة) .

وجلس مصطفى يفكر في مجموعة الأعمال الفنية التي يجب أن يزين بها جدران الأتيليه ، وقاعة الانتظار ، فهمس في أذن سعيد ، عن أية أعمال يكون قد رسمها أو نحتها ، وفوجئ به يخبره بسر ، ما كان ليقوله لولا موافقته على احترافه للفن ، فقد احتفظ بكم غزير من الأعمال في غرفة مهجورة في الحديقة ، لا أحد يعرفها سوى زنوبه ، فأوصاه بإخراجها إلى النور ، وتعليقها بما يتناسب مع مكانتها إلى جانب ما سيحاول الحصول عليه من أعمال فنية لكبار الفنانين العالميين .

وبدأ يعصر ذهنه فيما يكون قد رآه من أعمال عالمية ، عند الأصدقاء أو المعارف ، أو حتى في أي أتيليه أو معرض ، وعاود الاتصال بمجموعة من أصدقائه ، يطلب منهم إعارته بعضا مما رآه عندهم من أعمال عالمية ، ومساعدته في استعارة أو شراء مجموعة من الأعمال من معارفهم ، وتحديد المعارض التي قد يكون لديهم أعمالاً لفنانين عالميين ، ثم قام بالاتصال بأحد سائقي الشركة ، وحدد له ما يقوم به فوراً من جمع هذه الأعمال على أن تصل الفيلا بعد تجميعها ، واتصل بالفيلا ليحدد لهم ما سيقومون به من الآن ، سواء من استلام للأعمال أو ترتيب للحديقة ، أو تجهيز أماكن لمواد البناء ومواد الديكور .

ولم يهدأ إلا بعد أن رتب لكل هذه الأمور ، ولا أحد يعرف ما يرتب له سوى منى ، التي شعرت بأن رأسه لم يكف عن التفكير ، ليضمن لأخيه النجاح فنيا ، ولم لا ، ألم يكن هو السبب في نجاحه العلمي ، سواء في الدراسة ، أو البحث والتحليل ، وما نجاحه في مؤتمر الليلة ، إلا أحد توجيهاته له ، عندما كلفه بإجراء التحاليل الكيميائية والبيولوجية ، واستخدام كافة الوسائل والأساليب التي تمكنهم من الإحاطة بكل ما

يكتنف هذه الحجارة من معلومات ، حتى يمكن تحديد مدى الاستفادة منها قبل الإعلان عنها على العالم .

وبعد أن اطمأن إلى أن كل شئ قد تم الترتيب له ، جلس يتناول عشاءه مع أفراد عائلته ، أمه وزوجته ، يطعمهم بيده ، ويطعمونه بأيديهم ، أما سعيد .. فقد كان هناك من يرعاه ، إنها عروسه حبه ، وزوجة المستقبل . وعندما انتهى من طعامه ، استأذن في الانصراف ، بحجة أن والدته تنام مبكرة ، وساق كثيرا من كلمات المجاملة التي تعبر عن أسفه لترك هذه السهرة الجميلة التي جمعته مع أهل يعتز بهم ، ويسعده الارتباط بزواج أخيه من ابنتهم ، وبالطبع كان لابد لسعيد من أن ينهض معهم ، لكن .. كيف ، وقلبه مع خطيبته .. حبيبته .. منى ، فنظر مصطفى إلى منى لتفهم أن الصباح الباكر ، موعدهم مع العمل ، ولابد للعالم والفنان أن يحصل على قسط وافر من النوم .. وطبعا هي أيضا ، فقد أصبحت أحد أهم تروس هذا العمل .

ولكز شكري بك أحمد لكي يوصلهم وينهض إلى بيته ، فلديه عمل لابد وأن ينجزه قبل الصباح ، ولم ينس أن يوقع على شيك بتكاليف السهرة ، مع إكرامية سال لها لعاب خليل ، الذي قام بتوديعهم حتى مواقف السيارات التي تصادف وجودها قريبا من بعضها .

أخذ سعيد يفكر في طريقة لا تبعد حبيبته عنه ، فأخذ يلح ويصر على شكري بك وزوجته أن يركبوا معه في السيارة ومن ثم منى التي جلست إلى جواره ، وأخذت تحرك دبلة الخطوبة تعبيراً منها عن الاعتذار لأبيها ، بينما مصطفى وزوجته ووالدته في سيارة مصطفى .. وأحمد وزوجته في سيارتهما ، بينما ودعت هدى والدها بعبارات الشجب والاعتراض والاستنكار لحرمانها من باقي برنامج السهرة في عيد زواجها الأول ، ثم واجهت زوجها بعبارات التوبيخ التي وصلت إلى درجة التجريح لأنه لا يرفض لوالدها أمراً ، سواء في العمل أو حتى في الشئون الخاصة .

بناء على تعليمات مصطفى ، تحركت سيارات الشركة قبل منتصف الليل ، هنا وهناك ، تجمع ما اتفق عليه وتحضره إلى الفيلا ، وبمجرد أن وصل ، سارع ليطمئن إلى أن كل ما أمر به قد تم تنفيذه حرفياً ، فهو لا يقبل الانحراف في مثل هذه الأمور ،

وبعدها مر على غرف الأولاد يطمئن على نومهم وغطائهم ، ثم تمدد على السرير إلى جانب زوجته التي كانت تغط في سبات عميق ، فقد كان الإرهاق قد أخذ منها مأخذه ، فضلا عن أعصابها التي ظلت مشدودة إلى أن انتهى المؤتمر بنجاح لم تكن تتوقعه ، ثم إصرار مصطفى على قضاء وقت ممتع بعيداً عن هموم العمل والبحث العلمي والمؤتمرات وخلافه ، وفرصة لها هي أيضا ، فقد كانت لحظات الترفيه التي تحظى بها قليلة ، بين مهماتها وواجباتها كزوجة وأم مسئولة عن بيت .. أمور كثيرة كانت تستلزم منها وقتا وجهدا كبيرين ، وما حدث في هذه السهرة لم يكن على البال ، ولم تكن مستعدة له بالقدر الذي جعلها تشعر بأهمية ما مر من أحداث ، وما تخللتها من مفاجآت ومشاعر جياشة كان لها أكبر الأثر في تحريك الأشجان وسكب قطرات العبرات .

لم تغمض له عين ، إذ كيف يحدث ذلك ، والقلق الذي يتملكه لم يترك له فرصة يريح عقله فيها من التفكير ، خشية أن يكون قد نسي شيئاً .. آه .. لقد تذكر ضرورة أن يطلب من زنوبه إخراج كتر سعيد الفني الذي يحتفظ به في غرفة لم يعط لأحد سرها سواها ، وطبعا هذا الكتر يحتاج إلى تنظيف أولاً ، ثم اختيار .. فليكن ذلك أول عمل يتولاه في الصباح الباكر إن شاء الله ، فهو يخشى أن سعيداً ينسى ذلك .

واستطاع أن يتغلب على قلقه أخيرا ، إذ لابد له من الحصول على قسط من النوم ، حتى يتمكن من مجابهة العمل في الصباح ، وبعد سويعات قليلة انطلق صوت القرآن من منبه الراديو الذي يداوم على ضبطه قبل آذان الفجر بنصف ساعة على الأقل ، حتى يستطيع أن يستعد للصلاة قبل الآذان ، فلابد أن يتأكد من استيقاظ مؤذن المسجد ، حتى لا تأخذه غفوة ، يدفع ثمنها عباد الله المؤمنون ، ولم يرد أن يزعج زوجته ، فكفاها ما عانته الليلة السابقة ، فخفض الصوت بالقدر الذي يسمعه هو فقط ، ونهض يستعد للصلاة ، وبعد لحظات ، عج البيت كله بالحركة والنشاط ، فاصطحب الأولاد إلى المسجد لصلاة الجماعة ، بينما لحقت بهم والدته والخدم ، وتعجب أن صفيه لم تتأخر عن صلاة الجماعة بالرغم من تعبها .

وبعد عودته ، وحتى لا ينسى ، أصدر أوامره لزنوبه أن تحضر أعمال سعيد من الغرفة التي بالحديقة ، وتنظفها وتضعها في التراس ، وذهب إلى المندرة ليطلع على سير

الأعمال ، فقد جاوزت السادسة ، وهو موعده مع عماله ومهندسيه للبدء في مشروع تحويل المندرة إلى أتيليه .

كانت المواد قد بدأت في الوصول منذ الخامسة صباحاً ، وكان العمال قد بدءوا في أعمال الهدم والترتيب لأعمال الترميم ، ولاحظ همة عم محمد الجنايني في محاولة عمل التعديلات التي طلبها منه المهندس المختص بتنسيق وترتيب الحدائق ، إنها مهمة جديدة أضيفت حديثا إلى أعمال الشركة ، استلزمتها الظروف الراهنة ، حيث عاد للناس اهتمامهم بالحدائق ، ولاحظ مصطفى بعض آثار التعب تبدو على عم محمد ، فخصص له اثنين من العمال لمساعدته ، وسأله إن كان ذلك يكفي ، فإن راحته أهم عنده من أي عمل يتعبه ، فأجاب الرجل بكلمات شكر ، أعجزه لسانه عن نطقها ، فخرجت خليطا من الهمهمة والعبرات ، فقد كان المسكين يئن دون أن يشعر به أحد ، لولا ذلك الرجل الذي يشعر بألم الآخرين دون أن تصدر عنهم أي شكوى ، فعامل السن بالنسبة لعم محمد مهم جداً ، وستون عاماً ليست بالقليل .

كان الطعام قد أعد ، وقبل أن يجلس وسط عائلته كما هي العادة ، اطمأن على ما إذا كان قد تم إرسال طعام للعمال والمهندسين ، ثم جلس يتناول إفطاره بسعادة الأب وهو يرى أبناءه وزوجته في الصباح ، يتناولون الإفطار بشهية وسعادة ، فهذا دليل خير وبركة من الله سبحانه وتعالى ، أما والدته ، فإن لها مكانة خاصة تفوق الجميع ، لابد له من تقبيل يدها صباحا ، فتدعو له دعاءها المعتاد ، وتمسح على رأسه ببعض الرقى بآيات الذكر الحكيم ، ويجلس إلى جوارها ينتقي لها من الطعام ما تحبه هي وما يحبه هو لها ، ولا ينس رغم ذلك زوجته ، فهي بالرغم من جلوسها إلى جانب الأولاد ، إلا أن نفحاته لها بين الحين والحين لا تنقطع .

أما الأولاد ، فبالرغم من قيام صفيه بإعداد السندوتشات وإعطائها لهم ، إلا أنه لابد له من أن يطعمهم بيديه ، ففي ذلك ما يشعرهم بحبه لهم ، ثم أنهم تعودوا على ذلك ، حتى مريم بالرغم من أنها تجاوزت العاشرة ، وقد تعود شريف الجلوس على إحدى رجليه ، ومها على الرجل الثانية ، أما سعيد ، فقد تعود الاستيقاظ متأخرا ، وكان مصطفى يعزى ذلك إلى تأخره في المذاكرة ليلا ، لكن اليوم ، لابد له من أن يستيقظ ، فلديه أعمالاً لا

بد له من إنهائها ، كما أنه لم يحدد المواعيد لمتذوقي الفن الرفيع ، إلا بعد إجـــازة ســعيد لهــا ، فأرسل مريم لإيقاظه ، فهو يكلفها ببعض المهام ، حتى تعتاد ذلك ، بينمـــا قــام هـــو بالاتصـــال بمنى تليفونيـــــا :

- " صباح الخير يا أختنا العزيـــزة .. "

وتعجبت منى في البداية ، من ذلك الذي يقلقـــهم في الصبـــاح البـــاكر ليقـــول لهـــا صبـــاح الخير ؟ ولا يمكن أن يكون سعيد ، فسعيدٌ لن يقول لها يـــا أختنـــا العزيـــزة ، فمـــن يكـــون ؟ وطالت حيرتها ، بينما لا وقت لديه لذلك ، وقبل أن ينطـــق باسمـــه ، كـــانت قـــد اســـتوعبت الصوت ، فأجابت بســـرعة :

- " صباح الخير يا مصطفى بك .. آسفة ، يا أبيــــه مصطفـــى .. "

تعجب من أنها لا تذكر شيئا عن اتفـــاق الأمـــس :

- " هل نســـيت .. ؟ "

وفوجئت هي بسؤاله ، فتســـــاءلت :

- " نسيت مـــاذا .. ؟ "

ردد بينه وبين نفسه عبارة عنَّ لـــه أن يطلقـــها :

- " آه .. يظهر أن عدد من ينسى عندنا زاد واحـــدا .. أقصـــد واحـــدة !! "

ضحكت منى وهي تتســـاءل :

- " حقا يا أبيه .. نسيت مـــاذا .. ؟ "

أجابها بشيء من التهكم .. ضاحكـــا :

- " لا شئ ، فقط أنك موظفة .. وأن العمل يبدأ مـــن الســـابعة صباحـــا .. وأن لدينـــا أعمالاً كثيرة لابد أن ننجزها قبل أن يصـــل العمـــلاء لاســـتلامها ، وأن الفنـــان الكبـــير العملاق مازال يغط في نومه غير مبـــال ، ويحتـــاج لمـــن يقـــرص ودنـــه .. وأنـــا مـــش

فـــاضي .. وعندي أعمالي التي لا أستطيع أن أتـــأخر عنـــها .. فأنـــا رجـــل ملـــتزم .. سمعتي في مواعيدي ، ودقة عملـــــي ، و ... "

قبل أن يكمل ، قالت معتـــذرة :

- " حقيقة أنني أكثر من آسفة ، حـــالا ســـأحضر .. "

وبعد أن انتهت المكالمة .. وقفت تحدث نفسها .. مصطفـــى مـــن ؟ .. وأعمـــال مـــاذا ؟ .. هل ما حدث بالأمس كان حقيقة أم حلم ؟ ، هل حقا أصبحـــت عروســاً لحبيـــب القلـــب.. العالم والفنـــان ؟ تساؤلات كثيرة أثارتها تلك المكالمـــة التليفونيـــة ، هـــل احتفـــال الأمـــس في ذلك الكازينو ، كان احتفالا بخطوبتها ، أم بعيد ميلاد والدتهـــا .. وعيـــد زواج أختـــها ؟ إنهـــا احتفالات بالجملة ، الكل سَعد .. فهل هـــي ســـعدت باحتفـــال بســـيط لخطوبـــة لم يحضرهـــا سوى أهل العروسين ، ومجموعة من الســـكارى ؟ ومـــن آخـــر كـــانت تريـــده ؟ صديقـــات وأبناء وبنات عم وخال ، والعائلة من ســـوهاج .. لا ربمـــا كـــان مـــن الأفضـــل أن يحضـــر الاحتفال قبيلة جهينة كلهم ، فلا أقل من أن تفاخر العالم كله بخطوبتـــها مـــن ذلـــك العبقـــري الذي جمع بين العلم والفن .. وربما الشعر .. رحـــم الله صـــلاح جـــاهين ، فقـــد كـــان بحـــق كوكتيل فنون ، لعل سعيداً يشبهه .. حتى ربما في الشكل .. فهو لحيـــم مثلـــه رحمـــه الله قبـــل أن تصيبه الكهولة بأمراضها ، هو يعني مش قزعة قـــوى .. لكنـــه في طولهـــا تقريبـــا .. ليتـــه كان في طول أخيه .. ربما ورث قصر القامة عن أمـــه .. إن لـــون عينيـــه أيضـــا يضـــرب إلى الخضرة الداكنة .. تماما كما هي عيني والدته .. حـــتى بياضـــها المشـــرب بـــالحمرة .. لكـــن هل شعر والدته مثل شعره الأشعث .. ؟ إنه ذهبي اللون .. ربما كـــان شـــعر والدتـــه كذلـــك قبل أن يتحول إلى البياض .. لكنه في نظرها أجمـــل مخلـــوق في الوجـــود ..

إنها تحبه .. تحبه ، وشعرت برعشة جميلة تسرى في جســـدها ، فتـــهزها بنشـــوة تعـــم كـــل وجدانها ، وقفزت قفزتين خفيفتين كأنها تطير من الفرح ، مـــا أجمـــل هـــذا الشـــعور ، شـــعور الأنثى بالارتباط بحبيب القلـــب .

هل حقا هو حبيب القلب ؟ ســـؤال تجيـــب عليـــه علامـــات كثـــيرة ، لقـــد كـــانت لـــه بالمرصـــاد ، سألت وعرفت أنه رجل علوم ، فما له وكلية الفنـــون ، وســـألت وعرفـــت أنـــه كسول في العلوم ومعتق فيها فشجعته لأنها تريده عالما .. وهـــل أصبـــح حقـــا عالمـــا ؟ وهـــل

حقا ما وصل إليه كان نتيجة مجهوداتها معه أم أنه هو فلتـــه مـــن الفلتـــات ؟ قليـــل الكـــلام ، غامض ، قيل إنه معتق في كلية العلوم ، فظنته بليداً ومســـتهتراً ، لتكتشـــف أن تعتيقـــه كـــان بكالوريوسا .. ثم ماجستيرا وأخيرا رسالة دكتوراه جاهزة تقريبا للمناقشـــة ، أمـــا عـــن كليـــة الفنون ، فقد كان تواجده فيها سرا ، لم تعلن عنه إلا موهبته الفذة الـــتي جـــاءت لـــه بمئـــات الآلاف من الجنيهات في سهرة بين سكارى ، لكنهم متذوقو فـــن ، أو ربمـــا كـــانت هلوســـة ، سرعان ما يفيقون منها ويطالبونه بما دفعوه ، سوف يتضح ذلـــك اليـــوم ، فـــإذا حضـــروا في مواعيدهم واستلموا أعمالهم ، ودفعوا باقي الأتعـــاب ، كـــان مـــا حـــدث بـــالأمس واقعـــاً ، وليس خيالاً ، و فناً وليس هلوسة ســـكارى .

لم تنتبه لأبيها الذي قدم على جرس التليفون ، ووقـــف بعيـــداً يلمحـــها وهـــى تـــرد علـــى الطالب ، وتتمادى في الحديث معه ، فظنه عريســـها ، ولكـــن المكالمـــة انتـــهت ســـريعاً ومـــا هكذا يكون كلام العرسان ، خاصة إن كان يربطهما حب استمر لأكـــثر مـــن ســـنتين ، ومـــا هذا السرحان والشرود ، وما هذه النشوة الـــتي جعلتـــها تقفـــز كفتـــاة في الخامســـة تســـعد بلعبة جميلة ، أو لعلها فرحة غامرة شملت جميع جســـدها .. ؟ وذهـــب إلى مكانـــه المفضـــل ، فجلس يتصفح ما كان يحمله معه من جرائد ومجلات هي كل مـــا صـــدر اليـــوم مـــن وســـائل إعلام ، فهذه هي عادته ، يتصفحها في المنزل ، ويضـــع علامـــات علـــى مـــا يهمـــه التركـــيز عليه ليعيد دراسته في مكتبه بالمجلة ، ولحتـــه في جلســـته ، فتســـللت ، وجلســـت إلى جـــواره بهدوء حتى لا تزعجه ، وكلما فرغ مـــن جريـــدة ، ســـحبتها .. وقفـــزت عـــبر ســـطورها .. تستوعب كل ما كتب عن سعيد .. البروفيسور سعيد ، والفخـــر يمـــلأ نفســـها .. والســـعادة تهز كيانها والابتسامة تعلو محياها ، وقبلاتها تطبعها على صـــوره الـــتي زينـــت بهـــا الصحـــف صفحاتها .. كان تركيزها على حبيب القلب ، لكن هذا لم يمنعها من قـــراءة كـــل مـــا كتـــب عن المؤتمر ، والإشادة بالعالمين سعيد وأخيه مصطفـــى .. إنـــه حقـــاً أمـــر يدعـــو للفخـــر أن تنتمي لهذه العائلـــة .

أتت مني على الجرائد التي انتهى منها والدها ، ولم تبـــق إلا جريـــدة واحـــدة كـــان الرجـــل يتصفحها ، وعنّ له إتمام مكالمة تليفونية مع نسيبه ، زوج ابنتـــه ، أحمـــد الجوهـــري :

- " أنت لسه نايم يا أفنـــدي !! "

حاول الطرف الآخر أن يرد بشيء ما .. لكن كالعادة ، لم يمهلـــه شـــكري بـــك :

- " الجرائد كتبت أضعاف ما سوف تكتبه أنـــت يـــا ســابق عصـــرك .. والله لا أدرى ماذا ستكتب بعد كل ما كتب ، يا خيبة أملـــي فيـــك ؟ "

ورد عليه أحمد بشيء من الفخـــر :

- " ما لم يكتبه الأوائل يا عمـــى .. "

وقال الرجل بعصبيـــة :

- " عمى الدبب ... ازاي وأنت لسه نايم ... نقفـــل المجلـــة بقـــى .. "

وسارع محاولا تهدئتـــه :

- " سعادتك هدى أعصابك .. وســـتجد الموضـــوع علـــى مكتبـــك فـــور وصولـــك المجلـــة ، وستندهش من عبقرية تلميـــذك ... وابنـــك .. "

وأنهى الرجل المكالمة وهو يـــردد :

- " ربنا يســـتر .. "

وفوجئ باختفاء الجريدة التي كان يتصفحها ، ودار بعينيه الضيقتـــين اللتـــين تختفيـــان خلـــف نظارة ذات عدسات سميكة تظهرهما وكأنما الوجه كله عيون ، فلمح ابنتـــه مـــنى وقـــد اختفـــى وجهها خلف الجريدة ، فنادى اسمها ، ولكنها لم تنتبه ، فـــآثر الصمـــت .. إنهـــا تقـــرأ أخبـــار خطيبها .. وابتسم ابتسامة رضا ، وقام ليكمل مشوار يومه ، لكنـــــه انحـــرف ناحيتـــها بحنـــان الأب ، ومال على رأسها يقبلها .. وشعرت منى بدفيء حبه لهـــا .. فنـــهضت تحتضنـــه وكأنمـــا تقول له إن انتظارها لذلك الفاشل لم يكن عبثا .. وتبادلا الابتســـامات ، ثم قـــال بهـــدوء :

- " ألم تستيقظ ماما بعـــد ؟؟ "

وأجابت منى بذات الهـــدوء :

- " أجل .. ولكن الإفطار جـــاهز .. "

فقال الرجـــل :

- " وأنت .. ألا ترغبين في مشاركتي الإفطار .. لفتح الشـــهية علـــى الأقـــل .. ؟ "

وذهبت منى معه إلى المائدة ، وما إن بدأت في الإفطار حـــتى انتفضـــت ، وتســـاءل الرجـــل مندهشا ، وكان عجبه أكثر من ردهـــا :

- " نسيت أنني وعدت أبيه مصطفى أن أكون عنده خلال ربـــع ســـاعة .. وقـــد مضـــى منها الكثير ، ولما يتبق إلا دقـــائق .. "

وتعجب الرجل ، فتساءل مندهشـــا :

- " أبيه مصطفى مـــين ؟ "

وأجابت وهي تبحث عن حقيبة يدهـــا :

- " أخو سعيد يا بابا .. انت نســـيت والا إيـــه ؟ "

وازدادت دهشة الرجـــل :

- " هو أنت مخطوبة لسعيد .. وإلا لأبيـــه مصطفـــى !! "

وقبل أن يكمل .. قالت مـــنى :

- " أنا موظفة الآن يـــا أبي .. "

فتساءل الرجل مندهشـــا :

- " ومصطفى .. آسف .. أبيه مصطفى بقى .. هـــو صـــاحب العمـــل .. "

وردت منى بهـــدوء :

- " لا .. لكننا كلنا شركاء .. أنا وسعيد وأبيـــه مصطفـــى وصفيـــه .. "

واسترسل الرجل ، والدهشة تكاد تعقـــد لســـانه :

- " ومن صفيه هـــذه ..؟ "

وأجابته وهي تزلف داخل حجرتهـــا :

- " صفيه زوجة مصطفـــى .. "

وازداد عجب الأب :

- " شركاء في إيه ؟؟ "

وكانت قد أتمت زينتها ، فانتزعت حقيبة يدها .. وقالت لأبيها وهى تبتعد نحو الباب :

- " هل نسيت يا أبي ، الشيكات ذات مئات الآلاف .. إنها أعمال لابد لسعيد من إنجازها .. ولا بد لنا جميعا من المساعدة حتى ينجزها في مواعيدها ، و .. "

فقال الرجل بإصرار وقد عكس صوته بعض عصبيته ، وكأنما لسان حاله يفسر ما يحدث بأنه نوع من الاستحواذ على ابنته ، ومن اليوم الأول :

- " ليس قبل أن تنهى إفطارك .. "

ودق جرس التليفون .. فانتفضت منى مسرعة لترد عليه .. ولكن والدها رفع السماعة ليجد المتحدث يقول :

- " واضح أن العملية ليست نسيان فقط .. لا .. المواعيد غير مضبوطة أيضا .. "

ودهش الرجل !! :

- " أنت مين يا جدع أنت ؟؟ "

واعتذر مصطفى سريعا :

- " آسف يا شكري بك .. صباح الخير .. لقد كنت أقصد منى .. "

وقهقه الرجل :

- " أنت بقى أبيه مصطفى .. "

وكان لوقع كلماته الساخرة طعما جميلا .. جعلت مصطفى يضحك وهو يقول :

- " اعذرني يا شكري بك .. فإن الساعة البيولوجية للكثيرين ممن تعاملت معهم متأخرة أربع ساعات على الأقل .. "

وانعكست دهشته على صوته وهو يقول :

• " مــاذا ..؟ "

وأكمل مصطفى بهـــدوء :

• " في يقيني أن الله سبحانه وتعالى اختار الفجر بداية لنشـــاط الإنســـان ، لكـــن معظـــم أبناء وطني حولوه إلى ضحـــى .. "

واستوعب الرجل ما يريد أن يقوله مصطفـــى ، فقـــال :

• " صدقت يا بني .. لكنني مازلت أتبع الســـاعة البيولوجيـــة .. "

ثم صمت برهة ، وأعطى سماعة الهـــاتف لمـــنى :

• " منى معـــك .. "

وردت منى على مصطفى بأسفها على التأخير .. وساقت لـــه بعـــض المـــبررات .. وأغلقـــت سماعة الهاتف.. وهرولت خارجة دون أن تودع أباها الذي كانت عينـــاه تـــدوران لمـــا يحـــدث في اندهاش وعجب .. وهو يتمتـــم :

• " موظفة مع مصطفى .. حتشتغل إيه ؟ سباكة هـــي كمـــان !! "

وفوجئ بها تعود مسرعة ، وتطبع قبلة على جبينـــه .. وتخـــرج مســـرعة .

عادت مريم إلى أبيها لتخبره بأنها عجزت تماما عن إيقاظ عمـــها ســـعيد .. ومـــط مصطفـــى شفتيه معلقا بهمـــس :

• " طبعا .. سعادته مشرف بعد الثانيـــة صباحـــا .. "

وذهب من فوره إلى غرفة سعيد ، وطرق الباب بلطف ، وصوتـــه يكـــاد لا يســـمعه ســـوى سعيد ، وغاص سعيد بجسده الممتلئ في سريره الـــذي حشـــر في ركـــن مـــن حجرتـــه ، إنهـــا ليست حجرة .. بل ربما يكون تعبير مخزن هو الأفضل ، فقد حوت مـــن كـــل شـــئ ، وعلـــى كل لون ، كيماويات ، على ألوان ، على لوحات لم تكتمـــل ، علـــى .. إلى آخـــره ، وأعـــاد مصطفى الطرق بأقوى من السابق ، ونادى عليه بصوت أعلـــى ، فتململ في نومتـــه ، فـــهو لم يتعود هذه الطريقة في الاستيقاظ ، الوالدة الغالية تأتي ، وتتحمـــل الروائـــح الكريهـــة الـــتي تفوح بها الحجرة نتيجة تدخينه لذلك الغليـــون ، الـــذي يســـتعمل لـــه أردأ أنـــواع التبـــغ ،

والكيماويات التي لبعضها روائح كريهة جـــدا ، والأصبـــاغ الـــتي يســـتعملها في رســـوماته ، وروائح أخرى بعضها ناتج عن التمثيـــل الغذائـــي في معدتـــه ، وتظـــل في محـــاولات إيقاظـــه بالمحايلة ، والملاطفة ، حتى تكل المسكينة من كـــثرة مـــا يتمطـــى ويتلـــوى في الســـرير يمنـــة ويسرة ، ويتدخل مصطفى بعد أن تكون والدته قد فتحـــت النوافـــذ وطـــردت بعضـــاً مـــن الروائح ، لكي يوقظه بطريقته الخاصة ، التي فيها من الزجر أكثر مما فيـــها مـــن التدليـــل .

وصدح صوت مصطفى ، لائما الجميع على الدلع الـــذي يعاملونـــه بـــه حـــتى أفســـدوه ، فأصبح لا يقيـــم وزنـــاً لا لمســـئولية ولا زواج ، وأن مـــن تم التعـــاقد معـــهم بـــالأمس ، في طريقهم بعد قليل ، وليس أمامه ســـوى رد العرابـــين الـــتي حصلـــها منـــهم ، وليـــأكل هـــو وخطيبته من نومه وتمطيه ، ثم أن متى قادمة فلترى حبيـــب القلـــب يـــهمل في أكـــل عيشـــة ، منذ اللحظات الأولى لتحمله مســـئولية الـــزواج .

مصطفى .. مصطفى .. هو الأكبر ، وله الاحترام ، ولو عـــادت عجلـــة الزمـــن إلى الـــوراء بضع سنين ، لكان واجبا عليه أن يقبل يده ، هكذا كانت تقـــاليد عائلـــة الخوجـــة ، عندهـــم توقير الكبير معناه تقبيل يده ، أما عن التدخين ، فإنـــه لا يســـتطيع التدخـــين أمامـــه ، ولـــولا مؤتمر الأمس ، لما سمح له بالتدخين ، فهو يعد التدخين حراماً ، يقـــول عـــن تحريمـــه :

- " إن الله أحل الطيبات ، وحرم الخبائث ، فهل التدخـــين طيبـــات ؟ بكـــل مـــا تعلنـــه الهيئات الطبية من مضار ، وبكل ما تتحمله ميزانية الأســـرة مـــن خـــراب .."

ودائماً ما يدعم حججه بقصص واقعية ، وهـــو لا ينســـى أنـــه رأى أحـــد عمـــال شـــركته يدخل مطعمـــا ، وأخذ يقلب في أرغفة الخبز ، حتى انتقى منـــها واحـــداً ، ثم أمـــر بطعمايـــة واحدة فقط لا غير ، وضعها في رغيف الخبز ، وطـــوى عليـــها الرغيـــف ، والتهمـــها علـــى ثلاث قطمات لا أكثر ، بتكلفة لا تزيد علـــى عشـــرة قـــروش ، ثم ســـيجارة بخمســـة عشـــر قرشا ، وواحد شاي بخمسة وعشرين قرشا ، يعني تكلفة إفطاره بلغـــت خمســـين قرشـــا ، مـــا يفيد الجسم منها عشرة قروش فقـــط ، وعلّـــم عمالـــه كيـــف يصنعـــون الفـــول المدمـــس ، وكيف أن تصنيعه لا يتكلف كل هذه المبالغ التي تدفع في شـــرائه ، وليـــس صعبـــا بـــل إنـــه سهل للغاية ، بل ومرنهم على صناعته في بيوتهـــم لإفطـــار عـــائلاتهم ، أمـــا الشـــاي ، فقـــد استبدله بالحلبة ، والحبوب الأخرى التي تحل محـــل الشـــاي ، فقـــد تبـــين لـــه أن الســـكر في

الشاي ، هو مصدرهم الوحيد للسكريات ، فهم لا يهتمون بالحلويات ، فيما عدا الحلاوة الطحينية ، وهي قطعا أغلى من الشاي ، ومنعهم منعاً باتاً من التدخين ، ومن يصمم على التدخين يستبدله بغير مدخن .

ثم أنه كان يوضح لهم أن السجائر تحتوى على الخمور فيما تحتويه من مواد ، وبالتالي فإن مجرد حمل السجائر ، يعد حملاً للخمور ، وما أدراك ما الخمور بما ورد فيها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية .

وأعاد مصطفى الطرق بأقوى من السابق ، وسعيد يتمطى في سريره يتساءل .. من أين جاء مصطفى بهذه الهمة ، وهذه الصرامة ، الأب والأم مصريان بنسبة مائة في المائة ، أو هكذا هو المفترض ، ذلك أن العيون الخضر والشعر الأصفر والبشرة البيضاء المشربة بالحمرة ، ليست من صفات المصريين القدماء ، وهذه صفات الوالدة ، وهي من أصول تركية أما الوالد ، فقد كان يميل إلى السمار بوجه مستدير وأنف محدب ، وهذه أيضا ربما لم تكن من صفات المصريين القدماء ، ولا نراها في صورهم وتماثيلهم .

وتساءل مع نفسه هل المصري هو كل من ولد في مصر من ترابها ، وتربى على خيرات أرضها ، أم أنه هو الذي جاء من نسل قدماء المصريين ؟ وهل لقدماء المصريين نسل بعد فرعون موسى ، وقدرة الله في استبدالهم بقوم آخرين ؟ ربما هم الغجر الذين أطلق عليهم جبسي ، وحرفت إلى قبط ولعل الله سبحانه وتعالى خص هذه الأرض بعبادته ، وحباها باسمها منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها ، فهي مصر في جميع الكتب السماوية ، بل لعله هو فقط ذلك الملك الذي يسمى فرعون هو الذي ادعى الألوهية ، أما من سبقه من ملوك ، فلم يحدث ذلك لهم ، وإلا لأرسل الله الأنبياء إليهم ولا دليل على ذلك أكثر مما ابتلى الله به هذه البلاد من هزائم وضيق عيش قبل ضيق خُلُق ، عندما غير اسمها إلى (ج ع م) خلال الستينات وأوائل السبعينات ، وأعاد إليها النصر والكرامة ، عندما شرفت باسمها الذي ارتضاه الله لها (مصر) . لكن .. لماذا اسمها بالعربية يخالف اسمها باللغات الأجنبية ، لماذا لا يتطابق الاسمان ، مثلما هي معظم البلدان .

وأعاد مصطفى الطرق ، وصوته يصدح صراخا .. وأعلنت زنوبه عن حضور الست منى .. وما أن سمع سعيد اسم محبوبته حتى نهض من السرير بسرعة البرق ، واختفى في

الحمام ، والكل ينظر إليه مشدوها .. هل متى هـي كلمة السـر الـتي تحركـه ؟ فـهمس مصطفى أمام باب الحمام المغلق ، بألا ينسى حلاقة ذقنـه ، أو تهذيبـها علـى الأقـل كفـى منظره بالأمس وهو يعلم أنه قادم للخطوبـة ، وأوصـى زوجتـه بإحضـار زجاجـة العطـر الخاصة به وتعطيها له ، أما عن غرفته ، فقد نادى فرقة الخـدم برئاسـة زوجتـه ، لتطـهيرها من كل ما هو غير ضروري ، وتعطيرها ، فما هذه بحجرة عـالم وفنـان مرمـوق .

وانتشى سعيد وهو يسمع مدح أخيه فيه .. إنه ليس قاسيا معه .. فقط يريـده عالمـا وفنانـا ، مصطفى يريده ناجحا في كل شئ ، وفى أي شئ ، وهذا هو مطلـب مـنى أيضـا ، ووالدتـه كذلك .. وهل لا يسعى هو لذلك .. ؟ هـل هنـاك إنسـان في العـالم لا يريـد أن يكـون ناجحاً ؟ لكن الظروف هي التي تخلق النجاح ، لقد تخرج من الكليـة بتقديـر جيـد ، ولكـي يكون معيداً لابد وأن يكون التقدير جيد جدا على الأقل ، حقيقـة أنـه بينـه وبـين الجيـد جداً درجة واحدة فقط من عشرين ، لكنها تساوى خمسة بالمائة ، مـاذا يفعـل ؟ هـل لابـد له أن يستجدى هذه الدرجة من أساتذته ؟ وحتى لو فعل ذلـك ، هـل سـيزيدونها لـه لـو كان لا يستحقها ؟ وماذا يفعلون لأبنائهم ؟ إن معظم المعيدين إن لم يكـن كلـهم مـن أبنـاء أساتذة الجامعات ، أو لنقل النابغين منهم ، هل هي الوراثة ؟ أم أن هنـاك جينـاً خاصـاً بهـم يشكل وفق رغبات آبائـهم .

على كل .. لقد استغل فرصة السبع أو الثمـاني سـنوات الـتي يتلطـع فيـها الخريـج في انتظار التعيين ، وأكمل دراساته العليـا ، ماجسـتير ، ثم دكتـوراه ، والعجيـب أن أسـاتذته كان لهم فيه رأي ، لم يغيره إلا مؤتمر الأمس ، أجل ، لعـل شـكله يوحـي إليـهم بالإهمـال والتسيب وعدم الانضباط ، وهذه مجتمعة جعلتهم يعاملونـه بهـذا المفـهوم ، لـولا أن تفوقـه الحقيقي هو الذي يرغمهم على منحه الدرجات العلمية ، لكن هل حقـاً كـان تفوقـاً ؟ لقـد اختار أكثر من موضوع لرسالة الماجستير ، وتبين أنها كلـها سـبقه إليـها الكثـيرون ، ومـا أضافه لا يكاد يضعه في مصاف النابغين ، بمـا يسـتحق عليـه درجـة الماجسـتير ، وأخـيرا حصل عليه بنظام الكورسات ، ومن الجامعة الأمريكية ، وبتوجيـه مـن مصطفـى وبتكـاليف على حسـابه .

إذا هو مصطفى أيضا الـذي يعـزى إليـه حصولـه علـى الماجسـتير في العلـوم ، لكـن الدكتوراه شئ آخر ، فقد قرأ بحثا عن القياس العلمـي لأعمـار الأعمـال الفنيـة ، وبـدأ في محاولات اكتشاف ذلك المزيج الكيميائي الذي يمكـن مـن التقديـر الدقيـق لأعمـار هـذه الأعمال ، ومن ثم أعمار أي شئ ، آثـار أو أنتيكـات ، أو حـتى أثـاث ، وسـار في هـذه الدراسات والتحاليل دون أن يعلن عنها ، فقد يئـس مـن الفشـل ، فقـط أسـتاذه الـذي سجل الدكتوراه على يديه ، ومن حسـن حظـه ، أنـه تمـت إعارتـه إلى إحـدى الـدول الخليجية ، ولا يراه إلا في الإجازات ، وطبعا لمدة محدودة تتناسب مـع وقتـه المحـدود جـدا ، وغالبا ما يطالبه بالانتظار إلى نهاية دراساته وتحاليلـه ، وعندمـا يتوصـل إلى نتـائج معقولـة يعرضها عليه ، وقد أعطى ذلـك لسـعيد فرصـة طيبـة للعمـل بـدون ضغـط الزمـن أو اللوائـح ، فالرجل كان كريماً حيث كان يوافـق لـه علـى الاسـتمرار في التسـجيل ، دون التقيد بالمدة ، وقد قارب سعيد على الانتهاء مـن أبحاثـه ، والتـأكد مـن صحتـها في جميـع الظـروف .

وخرج سعيد من الحمام ، ليجد زنوبه في انتظـاره بزجاجـة العطـر ، فزلـف إلى حجرتـه بسرعة حتى لا يراه أحد ، وعاد بعد برهة وقد تغـير شـكله تمامـا ، فقـد تزيـن ، والعطـر يفوح منه ، لم يحلق ذقنه ، ولكنه شذبها هي والشارب حتى بـدا منظـره كفنـان مـن عصـر النهضة ، ودلته حاسته على مكان تواجد منى ، فأسرع إليها ليعلن للجميـع عـن تواجـده .

دهش الجميع عندما شاهدوه في شكله الجديد.. بينما قـرأت والدتـه آيـات قرآنيـة تمنـع الحسد ، فقد بدا مليح الوجه ، حتى كأن ترهله قد انتهى تقريبـا ، أمـا هندامـه ، فقـد بـدا أكثر من رائع ، خاصة مع ملابسه التي أرسل مصطفى في طلبها مـن الـترزي ، الـذي انتـهى منها منذ فترة طويلة ، والعالم المحترم لا يجد لديـه الوقـت الكـافي للمـرور عليـه بالسـيارة لإحضارهـا .

سلم على منى ، بينما مصطفى لم يعطه حتى الفرصة لتقبيل يد والدتـه ، حيـث اصطحبـهم جميعا إلى الأتيليه ، كان العمال قد انتـهوا مـن الأعمـال الداخليـة ، وانتقلـوا للعمـل في الواجهات ، بينما كان عمال آخرون يغطون الأرضية التي كلـح لونهـا ، ببـلاط بلاسـتيك حديث لامع ، حسن كثيرا من المنظر العام ، أما الواجهات فقـد تم تركيبـها ألمنتـال وزجـاج

فيميه جارى تركيبه . وكان حقا شئ أكثر من رائع يتم في هـــذا الزمـــن القياســـي ، وعجـــب الجميع وأكثرهم منى طبعا ، التي كانت تراها حتى وقت قريب جدا ، مجـــرد مبـــنى كمـــا لـــو كان متهدما ، فسألت مصطفى .. متى ؟ وكيـــف ؟ ثم اســـتدركت :

- " إذا .. عدم استقرارك أمس يا أبيه كان ترتيبا لهـــذا الجـــهد الجبـــار .. "

وأكد مصطفى ذلك قـــائلا :

- " كان لابد أن يكون لسعيد أتيليه يتناسب مـــع موهبتـــه الفـــذة .. "

ونظر إلى سعيد وقـــال :

- " بقى لي أن أشرح لك نبذه عن كل من هـــذه الأعمـــال العالميـــة ، وعليـــك أنـــت ومنى ترتيبها بالشكل الذي يعطى الانطباع لدى الزبائن ، بـــأنك فنـــان راســـخ القـــدم ، وأن هذا الأتيليه ، ليس وليد اليوم ، وإنما هو عريق عراقة ما تقوم بـــه مـــن أعمـــال فنيـــة رائعة ، كذلك لا تنسى أن تركز علـــى أعمـــالك .. انشـــرها في كـــل مكـــان .. فـــهي الأصل ، وأما أعمال الفنانين الآخرين ، فربما تكون قد لاحظت أنها ليســـت أفضـــل مـــن أعمالك ، ولعله قد يحدث لبس بينـــهم ."

وسعيد يسير إلى جواره يهز رأسه بالموافقة ، ومنى تحاول اللحـــاق بهمـــا لبعـــد خطواتهمـــا ، وشرح مصطفى وظيفة كل من منى ، وصفيه ، وعم نعيـــم وزنوبـــه وعـــم محمـــد الجنـــايني ، وترك سعيدا داخـــل الأتيليه ، ومنى معه ، وصفيـــه في قاعـــة الاســـتقبال ، بمكتـــب صغـــير ، كان مكتبا لسعيد ، وسوف يتم نقله إلى الأتيليه بعد الانتهاء مـــن تركيـــب البـــلاط الفينيـــل لأرضيته ، كما سيتم نقل أحد الصالونات الفخمة الإســـتيل ، ليوضـــع في قاعـــة الاســـتقبال ، ثم أمر بنقل مواد صناعة التماثيل إلى المكان الـــذي خصصـــه ليكـــون ورشـــة العمـــل ، إنـــه المطبخ بالمندرة ، وقد تم تجهيزه بالسيراميك وحوض صيني حديـــث ، وأوصـــى مـــنى بـــإخراج الاسكتشات ، وأعطاها جدول مواعيد الزبائن لكي يجـــهزا أعمـــال كـــل زبـــون في الموعـــد المحدد ، وترك الجميع وهرول إلى عمله ، وهو ينبه على صفيه بـــأن لا تنســـى إفطـــار ســـعيد ، وسجادة الصلاة .فاستوقفه سعيد ، وقد اغرورقت عينـــاه بـــالدموع وقـــال :

- " لا أدرى .. ماذا كنت أفعـــل بدونـــك ؟ "

وقال مصطفى بحنو الأخ الأكبر :

- " لا تقل ذلك يا سعيد ... أنت لست أخي فقط "

وتساءل الجميع يستفسرون مصطفى عن معنى هذا الكلام ، فقال :

- " إنه ابني البكري .. "

وضحك الجميع إلا سعيدا .. الذي أثرت فيه كلمات مصطفى ، حيث وضعه في مصاف أفضل أبنائه ، وخرجت الكلمات من بين شفتيه كأنما ضاق بها صدره ، أن تظل حبيسته أكثر من ذلك ، والعبرات تكاد تخنق صوته فلا تكاد تبين من بين الدموع التي تدحرجت غير آبهة بوجود منى وصفيه ، وكأنما هو يريدهما أن يشهدا على ما يقول :

- " أحمد الله أن خلق لي أخا عطوفا حنونا مثلك .. لم أستطع فهم بعض القسوة التي كنت تبديها نحوي إلا أمس .. فأنا أهدى إليك نجاح الأمس في المؤتمر ، ونجاح الأمس في الخطوبة والارتباط بحبيبة القلب ، ونجاح الأمس في التعاقدات وتدبير عمل أكثر من رائع لي تؤمن به مستقبلي .. "

وكان لهذا الجو المشحون بالأحاسيس تأثيره على الجميع ، لولا مقاطعة منى ، التي طلبت تفسيرا لمعنى كلمات سعيد عن نجاح الخطوبة والارتباط بحبيبة القلب .. إذا .. كان هذا من تدبير مصطفى أيضا .. ونظرت صفيه إلى مصطفى تطالبه بأن من حقهما أن يعرفا ما فعل ، فقال :

- " منى .. أنت اشترطت على سعيد النبوغ العلمي .. ولم يكن أفضل من الأمس دليلا على ذلك النبوغ ، وفجأة رأيتك تدخلين ، فقد كنت أول القافلة ، ثم تبعك من تصورت أنهما لابد أن يكونا والديك ، ومن ثم الصحفي أحمد .. وهذا تعرفت به في المؤتمر ، ولابد وأن تكون أختك هدى هي التي تتأبط ذراعه . "

وتساءلت صفيه :

- " هل كنت تعرف منى من قبل .. ؟ "

فأراد أن يذكرها :

- " تعرفين أنني كنت أحضر سعيداً مـــن الجامعـــة ، فـــالمواصلات مـــن الجـــيزة حيـــث الجامعة ، إلى آخر مصر الجديدة حيث الفيلا ، صعبة جداً ، لذلك كنـــت أحـــرص علـــى تجنيب سعيد هذه المشقة ، إما بالمرور عليه أو بإرســـال إحـــدى ســـيارات الشـــركة ، وفي بعض الأحيان كنت أجد منى معه في انتظـــار ســـيارة والدهـــا ، أو الحافلـــة المخصصـــة لطلبة الجامعة ، وقد تشرفت بتوصيلها معنا أكثر من مرة خاصـــة وأنهـــم لا يبعـــدون عنـــا كثيراً ، وفي البداية قدمها سعيد على أنها زميلة ، ولكنه بعد ذلـــك ، لم يخـــف عـــني حبـــه لها ، وارتباطهما العاطفي ، فبالرغم من فارق السن الذي بيننـــا ، إلا أنـــه لا يخفـــي عـــني شيئاً ، أم تظنين أن امتناعه عن التدخين أمامي رهبة مـــني ، إنـــه احـــترام لأنـــه يعـــرف أنني أكره التدخين ، وعبثا حاولت كفـــه عنـــه .. "

وتلفت مصطفى حوله ، فوجد سعيداً قد اختفى ، فتسللوا إلى داخـــل الأتيليـــه ليفاجـــأوا بـــه في الصومعة ، وقد قام سعيد باستعراض المواد التي أحضرها مصطفـــى والـــتي تخـــص صناعـــة التماثيل ، وكذلك العدة ، وتعجب أن مصطفى لم ينـــس شـــيئاً ، ونـــادى مـــنى لتحضـــر لـــه بعض الماء ، وتناوله المواد التي عمد إلى تسميتها بأسمائها الفنية ، حـــتى تتعـــود علـــى تفهمـــها ونطقها ، فلا يكرر الشرح مرة أخرى ، بطريقة تعجب لها مصطفـــى ، فمـــن أيـــن لـــه بهـــذه المَرْيَسة ، أو لعلها صفة أخرى من صفات عائلة الخوجة ، لم تكشـــف عنـــها الأيـــام إلا عندمـــا جد الجـــد .

وانسحب مصطفى وصفيه تاركين سعيداً ومنى ، وقد تغـــبرت أيديـــهما ، فـــأوعز مصطفـــى إلى صفيه أن ترسل إليهما مرايل العمل حتى لا تتسخ الملابس ، وتعجبـــت صفيـــه مـــن أنـــه لم ينسَ حتى هذه الأمـــور .

٧- اليابان ١

لمحت منى سيارة سوداء كبيرة تقف أمام باب الفيلا ، فحاولت قراءة لوحتها المعدنية ، وأدهشها أنها دبلوماسية ، وتعجبت .. هل كان من بين سكارى الأمس دبلوماسيون ، وهل محظور على الدبلوماسيين حضور مثل هذه الأماكن ؟ ثم ما علاقة الدبلوماسية بملاهي الرقص ..؟ وتداركت نفسها .. ولم لا ؟ ألم يكن بينهم رئيس تحرير مجلة كل العلوم ، وهل من المحظور على رؤساء تحرير المجلات العلمية حضور مثل هذه الأماكن ؟ وما علاقة السياسة أو العلم أو الصحافة بملاهي الرقص ؟

ثم .. ألم يكن مصطفى ووالدته وزوجته ضمن الحاضرين ؟ وهم ما هم عليه من التدين !! واحتارت ماذا تفعل ؟ هي لم يتعد وجودها في هذه الفيلا إلا بضع ساعات ، ولا تعرف .. ربما كانت هذه السيارة تقل أحداً من معارف أسرة خطيبها ، وليس لها الحق في التدخل ، فوجدت أنه من الأفضل لها أن تنتظر ريثما تنجلي لها قصة هذه السيارة ! أو يحضر أحد من أهل المنزل فهم أدرى بشعابهم .

لكن الفضول دفعها للتركيز على من بداخلها ، وأثناء ذلك مرت بها صفيه ، فأفضت لها بما يساورها من هواجس ! مما أثار حيرة صفيه ، حيث أن السيارة ليست من النوع المألوف لديها ، وكذلك فإنها لا تخص أحداً من أقارب أو معارف العائلة ، أو موظفي شركة زوجها ، كما أن جدول المواعيد خال تماما من الزبائن في هذه الساعة من النهار ، إن أول موعد هو السادسة مساء فما بال هذه السيارة ؟

وازداد العجب عندما خرج السائق من الباب الخاص به ، ليفتح الباب اليمين الخلفي ، فيطل منه رجل نحيف ، قصير القامة ، غطى رأسه وكذلك وجهه بقبعة أنيقة ، بينما خرجت من الباب الخلفي الآخر فتاة ممشوقة ، ذات قوام رياضي ملفوف وشعر حريري أسود استرسل على كتفيها وجزء كبير من ظهرها ، كأنه خيوط من ليل سرمدي ، هندامها أنيق بألوان جذابة متناسقة ، يتناسب مع الشكل العام ، وقد وضعت على عينيها نظارة شمس سوداء ، وحملت حقيبة أوراق بالإضافة إلى حقيبة يدها ذات الشكل الجميل التي لا يمكن تحديد المادة التي صنعت منها خاصة من هذا البعد ، وأسرعت تحاول مساعدة الرجل النحيف على الخروج من السيارة ، وبعد أن خرج ، حاولت أن تساعده

أثناء سيره إلا أنه رفض بشدة ، التكوين العـــام لهـــا يعطـــى انطباعـــا بأنهـــا قمـــة في الجمـــال والأناقة ، أما السائق فقد كان ضخم الجثة عريض المنكبـــين ، طويـــل القامـــة ، يرتـــدى زيـــاً خاصاً ، ويضع على عينيه نظارة شمســـية ســـوداء .

الشكل العام يتبين منه أنهم ليسوا عرباً ، إنهم أجانب ، لكن الجنســـية ، ليـــس مـــن الســـهل تحديـــدها مع ما هو معروف عن تشابه الجنـــس الأصفـــر كلـــه تقريبـــاً ، وتســـاءلتا .. هـــل تخبران سعيداً ؟ أم تتركانه ينهى الأعمال التي انكب عليها ، ممـــا جعلـــه ينســـى كـــل شـــئ .. حتى الغليون الذي نحاه جانبا إذ أنه منذ ما بعـــد الصـــلاة والإفطـــار ، لم يقربـــه ، ربمـــا لأن يديه مشغولتان بمواد التماثيل ، وربما لأن انشغاله في فنه أنساه كل شئ .. حـــتى مـــنى ، لقـــد كان في البداية لا تمر خمس دقائق دون أن يمتع عينيه بالنظر إليـــها ، حبـــه الـــذي ظـــل دفـــين قلبه سنوات وسنوات ، أمامه .. معه .. يعب من أنفاسه ونســـماته ، عطـــور العـــالم كلـــها لا تعادل زفرات أنفاسها مهما كانت رائحتها ، وكانت هي تشعر بنظراتـــه ، وكأنمـــا هـــو طفـــل يتأكد من وجود أمه إلى جانبه ، فلا يفتأ يداوم النظر إليها خشـــية تركـــه وحيـــدا .

أما هي ، فقد كانت جميع مراكز الإحساس لديها متجهـــة إليـــه ، إنـــه الجمـــال تجســـد في ذلك الجسد الذي يعمل بهمة ، ويصدر إليها الأمر تلو الأمر لتحضـــر لـــه شـــيئاً ، أو تناولـــه شيئاً ، وهى سعيدة أيما سعادة ، أخيراً تحقق حلمها ، البـــلادة ، والخمـــول ، تحولـــت بقـــدرة قادر إلى شعلة نشاط ، تشعر بالغبطة مع كل أمر يصدره إليـــها ، وتتمـــنى ، تتمـــنى ألا تنتـــهي تلك الأوامر ، فهي بالنسبة لها ألحان شجية لا تعادلها ســـيمفونيات العـــالم كلـــها .

وقررتا ألا يشغلاه بأمور هي من صميم اختصاصـــهما ، لا .. إنـــه مـــن صميـــم اختصـــاص صفيه ، لكن صفيه لا تجيد اللغات ، فقط بضـــع كلمـــات إنجليزيـــة علـــى فرنســـية ، كـــان مصطفى كثيرا ما يرددها في مقابلاته مع عملائه مـــن الأجـــانب ، إذاً .. لابـــد مـــن تواجـــد مـــنى ، وعلى هذا ، فقد دخلت منى سريعا لتغسل يديها ، وتهنـــدم ملابســـها ، وتعـــدل مـــن المكياج وتسريحة الشعر ، وتعجـــب ســـعيد ، فأخبرتـــه بـــأن هنـــاك عمـــلاء في الطريـــق .. واكتفت بذلك حتى لا ينشغل عن العمل الذي بين يديه ، فقـــط حثتـــه علـــى الإســـراع ، إذ ربما يكونون هم أصحاب ما يقوم به مـــن عمـــل .

أفسح السائق الطريق ، وأقبل على عم محمد وتحدث معه بلغة لم يفهم منها عم محمد سوى اسم الخوجة ، وتعب كثيرا حتى استطاع أن يستوعبها ، فقد نطقها السائق الكوجة ، ورحب بهم ، وكان استقباله للرجل القصير والفتاة الجميلة بترحاب يزيد عن الحد المألوف ، عندهما على الأقل ، ماداً إليهما يده اليمنى للمصافحة ، فقوبل بانحناءة فيها من الاحترام والتبجيل ما لم يكن يتوقعه ، فما كان منه إلا أن انحنى بذات الطريقة ، وسار أمامهما وهو يشير إليهما بأن يتبعاه ، وكلما التفت نحوهما ، انحنيا تحية له ، ويضطر الرجل للانحناء ترحيبا بهما إلى أن لحته زنوبه ، فأشار إليها بأن تخبر الست صفيه بالاستعداد لاستقبالهما ، وتولت زنوبه أمر مصاحبتهما إلى مكتب الست صفيه ، بينما رجع عم محمد سريعا لكي يقدم واجبات الضيافة للسائق ، حيث انتظره بعد أن صف السيارة في مكان مناسب وبطريقة فنية ، بحيث لا تسبب إزعاجا لأحد ، ولا تكون عرضة للإصابة من متهور سياقه أو جاهل بها ، فأعد له كرسيا قديما في غرفته ، ولكنه مريح ، بينما بدأ يعد التحية المعتادة عند الشعب المصري كله ، بالرغم من أن الشاي ليس نباتا مصريا .

لقد صدق حدس صفيه ، إنهما أجانب ، استقبلتهما بما لديها من بعض الكلمات الإنجليزية ، وعندما بدءا بأول سؤال عن مطلبهما وقعت في حيص بيص ، أنقذها منى منه ، فانطلقت معهما في حديث بالإنجليزية ، أثار إعجاب صفيه ، وحرك حفيظتها .. لقد طلب منها مصطفى كثيرا أن تتقن اللغة الإنجليزية على الأقل ، ولكنها كانت تكتفي بالمذاكرة مع الأولاد ، مريم على وجه الخصوص فهي كبراهم ، لكن اللغة التي استطاعت تحصيلها من مريم ، لم تكن كافية لمواجه هذا السيل المتدفق من الجمل التي تحتوى على لكنة لا يمكن لها استيعابها ، وصممت بينها وبين نفسها ، أن تلتحق بأحد المعاهد لتتعلم اللغة على أصولها ، وتساءلت في نفسها عن الآباء والأمهات الجاهلات في تعاملهم مع أولادهم اللذين يدرسون في المدارس ، ماذا يقولون لهم إذا سألوهم عن معنى كلمة ؟ أو طلبوا منهم قراءة شئ ، أو مساعدتهم في إملاء .. إلى آخر طلبات الأولاد التي لا تنقطع .

وتذكرت ، لقد كانت جدتها ، رحمها الله ، وهي على جهلها ، تتجاوب معها في دراستها سواء العربية أو الإنجليزية حتى وصلت إلى المرحلة الثانوية ، حيث اكتشفت أنها لا تفقه كلمة واحدة مما كانت تقول ، ولكنها كانت تردد ما تسمعه منها ، فقد كانت المرحومة تجبرها على القراءة بصوت عال ، سواء كانت الدروس عربية أم أجنبية ، وكانت السيدة العجوز تحفظ ، وتصحح لها إذا أخطأت النطق أو نسيت كلمةً أو سطراً ، ولم لا ، وهي التي كانت تحفظ أكثر من خمسة أجزاء من القرآن الكريم ، وتجيدها إجادة ، يحسدها عليها الكثيرون من مقرئي هذه الأيام ، لا سهو ولا أخطاء إطلاقاً ، لا في أحكام التلاوة ، ولا في التشكيل ، بل لقد كانت تعرف الكثير من المعاني ، هذا بخلاف الأحاديث النبوية ، والحِكَم ، والأمثال الشعبية ، والقصص الخرافية .

ومن العجيب حقا أنها كانت تلقى على مسامعهم قبل النوم بقصص " أمنا الغولة " التي تُرَبِي الأولاد لتأكلهم ، وكانوا يخافون في بادئ الأمر ، ثم أصبحوا لا يخافون من شيء بعد ذلك أبدا ، حتى أنها عندما كانت تريد أن تجبرهم على النوم ، كانت تقول لهم بأن " أبو رجل مسلوخة " سيحضر ، وإذا وجد أحداً منهم متيقظاً ، سوف يسلخ رجله ، وصدقها الأولاد في البداية ، لكن عندما لم يجدوا لا " أبو رجل مسلوخة " ولا " أمنا الغولة " أصبحت الحكايات عنهما وكذلك الحكايات المثيلة عن الأشباح والعفاريت ، من أمتع الحكايات التي كانوا يصرون على سماعها ، والعجيب أن هذه الحكايات كانت لا تنتهي ، فلديها دائما حكايات تحكيها ، ولديها دائما حكم ومواعظ وأمثلة لكل حدث ، أو تصرف أحمق أو أهوج من أي من أحفادها .

لكن أين هذا الجيل ، لقد انقرض وحل محلة جيل لا يفهم إلا في الطلبات ، ملابس .. طعام .. فسح .. تليفزيون .. فيديو .. ذهب وماس وإكسسوارات .. وجهل مطبق .. حتى المتعلمين والمتعلمات ، نسوا مع عدم القراءة والإطلاع ، ما سبق لهم أن تعلموه ، فما بال التطور السريع في العلوم والجديد في التكنولوجيا .

وشعرت صفيه بخوف من نوع ما .. لا تعرف له سبباً .. أكبر الظن أن الضيفين من اليابان ، وماذا في ذلك ؟ لا .. إن الأمر يخص مصطفى .. لقد عاش في اليابان ، ولا بد وأن له فيها ذكريات ، وربما أمور أخرى لم تشأ أن تفاتحه فيها ، ويكفي أن الغرفة المجاورة

لغرفتهما اختصها بفرش ياباني ، وملأهـــا بـــاللعب والهدايـــا ، ولا يدخلـــها أحـــد ســـواه ، وزنوبه لتنظيفها تحت إشراف مريم هانم والدته ، ولا يعرف أحد غـــيره محتواهـــا ، فالخزانـــات في الحائط مغلقة ومفاتيحها معه ، وزنوبه تدخل لتنظيفـــها تحـــت إشـــراف والدتـــه ، وممنـــوع عليها أن تبوح بما تراه فيـــها .

لكن لا يجب عليها أن تسبق الأحـــداث ، وعليـــها الآن أن تباشـــر عملـــها في ضيافتـــهما ، والعمل علـــى راحتهما . فنـــادت علـــى زنوبـــه ، وأوصتـــها بإحضـــار الشـــاي ، وكعكـــة الفراولة التي تجيد صفيـــه إعدادهـــا ، وهمســـت في أذن زنوبـــه أن تحضـــر الطقـــم الصيـــني المزخرف برسومات صينية ، وتضع الجميع على عربة الشـــاي ، وأكـــدت عليـــها ألا تنســـى كعكة الفراولة . وعندما همت زنوبه أن تأخذ الطقم الصيني لتضعـــه علـــى طاولـــة الشـــاي ، نهتها السيدة الكبيرة عن ذلك ، وأمرتها بالطقم الآخر الذي يعبر عن الفخامـــة وروعـــة الفـــن وجلال اسم الله الذي نقش مذهبـــا في حلقـــات دائريـــة حـــول الفنـــاجين والـــبراد وبـــاقي أجزائـــه ، ودخلت زنوبه بطاولة الشاي ومـــا حمـــل عليـــها ، وكعكـــة الفراولـــة تتوســـطها بشكلها الجميل ، ورائحتها التي تملأ الأنوف والصدور بعبير شـــهي ، إنهـــا فراولـــة مصريـــة ، من حديقة المنزل ، حافظوا على سلالتها من أن تختلط بما تم اســـتيراده مـــن أصنـــاف ، كبـــيرة حقا .. لكن بلا طعم ، ولا رائحـــة .

أمعنت الفتاة النظر في طقم الشـــاي ، وقـــامت برفـــع أحـــد فناجينـــه بتلقائيـــة وعفويـــة ، وقرأت العبارة التي نقشت بماء الذهب باللغة العربيـــة ، " بســـم الله مـــا شـــاء الله ، ولا قـــوة إلا بالله " ، ودهشت صفيه وكذلك منى وقالتا في وقـــت واحـــد :

- " تعرفين العربيـــة !! "

فأجابتهما بثقة متناهيـــة :

- " أجيدهـــا ... "

وعن لهما أن يسألاها عن سبب عدم الحديث بها معـــهما منـــذ البدايـــة :

- " لكـــن ... "

وقبل أن تكمل صفيه عبارتها ، أجابتـــها الفتـــاة :

- " لقد بدأت الكلام بالإنجليزية حتى لا أضطـــر للترجمـــة . "

فرحبت بهما صفيه ، باللغة العربية طبعا ، ودعتهما ومنى ، لتـــذوق الكعكـــة الـــتي صنعتـــها بنفسها ، وكانت سعيدة بهذه الفتاة اليابانية التي تجيد العربية ، بالرغم مــــن أن ســـعادتها هـــذه كانت دائما ما تنتهي إلى وجوم ، يصحبه تساؤلات ، تخشـــى معـــها أوهـــام مـــا تعرفـــه عـــن تواجد مصطفى باليابان ، والغرفـــة اليابـــاني الملاصقـــة لغرفتـــهما ، ولكنـــها طـــردت هـــذه الأوهام ، وأصرت على أن يتناول الجميـــع من كعكـــة الفراولـــة ، وصبـــت لهـــم الشـــاي ، وتركت لهم حرية وضع السكر ، فهي تعرف أن اليابانيين يشـــربون الشـــاي بـــدون ســـكر ، بينما اقتطعت منى قطعة كبيرة من الكعكة ، وحملت فنجانا مـــن الشـــاي ودخلـــت ســـريعا إلى سعيد ، وهى سعيدة أيما سعادة بحلاوة هذه الكعكة ، وجمـــال فنجـــان الشـــاي الـــذي يحمـــل تلك الزخرفة المحلاة بـــالذهب .

لم تقرأ العبارة إلا عندما هم سعيد أن يتناول الشاي بيد كلـــها مـــواد وأصبـــاغ ، فنظـــرت إليه نظرة لائمة ، أن يلوث الفنجان الرائع بما في يديه مـــن مـــواد ، فذهـــب ليغســـل يديـــه ، بينما أمعنت هي النظر فيما نقـــش علـــى الفنجـــان مـــن حـــروف موشـــاة بمـــاء الذهـــب ، وانطلقت منها عبارة " بسم الله ما شـــاء الله " إعجابـــاً بفـــن الصناعـــة ، وإذا بهـــا تفاجـــأ بالعبارة المنقوشة تحمل ذات الكلمات . فطأطأت رأســـها خجـــلا ..

وحضر سعيد ، وحاولت منى أن تمتدح الكعكة ، فتجاهل ســـعيد مدحـــها ، وتعجبـــت مـــنى من عدم اهتمامه بالتعليق على جمال الكعكة ، حيث أنها لا تقـــل روعـــة عمـــا يشـــترونه مـــن أرقى محلات الحلـــوى ، إلا أن سعيداً علق بما يفيد بأن ذلك أمـــر طبيعـــي في هـــذا المـــترل ، سواء كانت صناعة صفيه ، أو صناعة والدتـــه ، ثم أضـــاف :

- " وهذا هو الفرق ، فأنا لا أتقبل طعماً أو دقة صناعـــة تقـــل عـــن هـــذا المســـتوى ، وعدم تقبلي لا يكون برفض متعمد ، ولكنه رفض تلقائي محـــض ، فعندمـــا تجديـــن ذلـــك الرفض التلقائي بدون تجريح ، فاعلمي أن ما قدم لي ليس بالمســـتوى الـــذي أقبلـــه ، فـــلا تناقشـــين .. "

هذه أول تعليقاته اللاذعة ، لكنها طأطأت رأسها مـــرة أخـــرى ، هـــل ستســـتطيع هـــي أن تجارى سيدات هذا المترل إجادتهن في الطهي وصناعـــة الحلـــوى ، إن تقـــديم زنوبـــه لطاولـــة

الشاي بما عليها يدل على تدريب جيد ، قلما تحظى به أية سيدة بيت ، آه .. لابد لها من أن تتعلم منهما كل شئ ، فمن الواضح أن سعيداً لن يقبل بأقل مما تعود عليه من طعام ، لقد فسر هذا لها سبب عدم إقدام هذه العائلة على طعام الكازينو بكل اللهفة التي حظي بها من الآخرين ، حقا .. أين يذهب طعام الكازينو أمام ما تجيده والدته أو صفيه .

وشعرت صفيه بسعادة غامرة عندما طلبت الفتاة قطعة أخرى من الكعكة ، مع الإشادة بجمالها وطعامتها ، وأسهبت صفيه في وصف طريقة صنعها ، مؤكدة لهما أنها هي التي صنعتها ، وزادت ، أن المواد كلها من حديقة المنزل ، حتى الفراولة ، فإنها مصرية صميمة ، غير مستوردة ، وهذا سر نكهتها الطيبة ، وبعد أن انتهى الضيفان من شرب الشاي وتناول الكعكة ، صحبتهما صفيه في جولة تفقدية للأتيليه ، أبدى الضيف وكذلك الفتاة ، إعجابهما بما علق من لوحات ، وبما صف من تماثيل ، وعندما وصلا إلى الورشة ، كان سعيد قد أتم تقريبا ما تحت يده ، تمثال أكثر من رائع ، لذلك الرجل الذي دفع العشرين ألف جنيها ثمنا له ، كهدية عرس لسعيد ومنى ، وأبدى الضيف وكذلك الفتاة دهشةً وإعجاباً بهذا الفن الرائع ، الذي قلما يوجد مثله في العالم .

تساءل الضيف :

- " ما الأخبار ...؟ "

وأجاب سعيد بالإنجليزية ، فهو يجيدها ربما منذ ما قبل دراسته للماجستير بالجامعة الأمريكية ، فقد كان متفوقاً في اللغات ، منذ أن التحق بالمدارس :

- " تمام . "

وعقب الضيف :

- " هل بدأتما البيع ؟ "

وأجاب سعيد :

- " أول طلب تم الانتهاء منه تقريبا ، وسوف أقوم بإعداد الثاني خلال ساعتين من الزمان على الأكثر . "

وتساءل الضيـــف :

- " مصري أم أجنـــبي !! "

وأجاب ســعيد :

- " مصري ... مصري طبعــا !! "

ومط الضيف شفتيه وهو يقـــول :

- " لماذا .. ألا تتعاملون مـــع الأجـــانب .. ؟ "

وأجاب ســعيد :

- " لم تصلنا بعد أوامر من أجـــانب .. "

فقال الضيف بتلقائيـــة :

- " إذاً ... فلأكن أنا أول زبـــون أجنـــبي .. "

فرحب به سعيد .. وأحضر كرسياً نظيفاً ، أجلس الرجـــل عليـــه ، وبـــدأ في رسمـــه ، بينمـــا هو مستمر في حديثه مستفسراً عن الثمـــن :

- " الثمن عشرون ألف جنيه مصـــري للقطعـــة .. ولا مـــانع مـــن دفـــع المعـــادل لـــه بـــالدولار . "

وتساءل الضيـــف :

- " ألا تتعاملون بـــالين .. ؟ "

وبعد لحظة صمت حائرة ، قال ســـعيد :

- " الحقيقة أننا لم نفكر في موضوع الـــين هـــذا .. "

وتساءل الضيـــف :

- " هل تعتقد أن عشرين ألف جنيه .. مبلـــغ مناســـب ؟ "

كان السؤال مباغتاً ، فرد سعيد متســـائلاً :

• " ماذا تعـــنى .. ؟ "

فأراد الضيف أن يظهر له القيمة المناســـــبة :

• " ألا ترى أنه قليل جدا ... ؟ لقد صنعتم معجزة حقا ... إنهـــا لا تقـــدر بمـــال .. "

وبعد فترة صمت ، تبادل فيها سعيد النظر مع منى وصفيـــه الـــتي كـــانت بالكـــاد تســـتطيع الفهم من خلال ما تمكنت أذنها التقاطه من كلمات مفهومة لهـــا ، قـــال الضيـــف :

• " اسمع .. لقد جئت أعرض عليكم عرضا .. يجعلكم من أثـــرى أثريـــاء العـــالم .. "

ومع سماع الجملة الأخيرة ، ظهرت علامات الدهشة والانبهار علـــى وجـــه ســـعيد ، وهـــو يعلق بتلقائيـــــــة :

• " وما هـــو .. ؟ "

وقال الرجل بهـــدوء :

• " أن نتشارك ســـويا .. "

وتعجب ســـعيد :

• " ثم .. "

وأكمل الرجل بذات الهـــدوء :

• " ثم نبدأ مرحلة الإنتاج الكبير .. والتصدير لجميـــع أنحـــاء العـــالم .. "

ولم يتمالك سعيد نفسه من الاسترسال كما لو كان يحـــادث نفســـه :

• " إنتاج كبير مـــاذا ؟ "

واستمر يحادث نفسه ، هل يصلح في الفن مفهوم الإنتـــاج الكبـــير ، فضـــلا عـــن التصديـــر لجميع أنحاء العالم .. ماذا يقول هذا الرجل ؟ فكرر عبارة إنتاج كبـــير ، الحقيقـــة أنهـــا أفلتـــت منه دون قصد .. لكن الرجل أكدها له ، مع الضغط علـــى كـــل حـــرف :

• " .. YES , MASS PRODUCTION "

وتساءل سـعيد :

- " ظننت أن الفن إنتاج خاص جدا لا يصلح معـه الإنتـاج الكبـير .. "

وأجاب الرجل وكأنه لم يسمع كلمة الفـن هـذه :

- " حقا .. إن ما قمتم به شئ خاص جداً .. ومع ذلك فإنـه مـن الممكـن اسـتخدام أسلوب الإنتاج الكبير ، والتصدير لجميع أنحـاء العـالم .. "

وتساءل سعيد ، ومازالت الدهشة تعقـد لسـانه :

- " لكن لابد من جلسة مع كل عميل لمدة ربع سـاعة علـى الأقـل .. "

فهز الرجل رأسه مستنكراً هذا التخلـف :

- " هذا كان زمان .. لكن الآن ، ومـع التقنيـات الحديثـة في الإدارة والاتصـالات ، أصبح كل شئ سهلاً ، ويتم وأنت في مكتبك ، طالمـا لديـك فـاكس .. "

وعلق سعيد ليشعر الرجل بأنه ليس بعيداً عن هـذه التقنيـات الحديثـة ، وهـل يعقـل أن يحصل على الماجستير من الجامعة الأمريكية دون أن يجيدها ؟ بل وأضاف مـا يفيـد أنـه يجيـد ما هو بعد الفاكس الذي أصبح الآن مـودة قديمـة :

- " آه .. تقصد أن يرسـل العميـل احتياجاتـه وشـروطه بالفـاكس .. أو بالـبريد الإلكـتروني " email " ونقوم نحن بالتنفيذ بنـاء علـى ذلـك .. "

وأكد الرجل كلامه ، وقد أعجبه أنه يتعامل مـع عقليـات متفتحـة علـى كـل مـا هـو جديـد ، وتعجب من الظلم الذي تنشره وسائل الإعلام عن تخلـف الشـعب المصـري :

- " بالضبط .. هل أستطيع أن أرى ما قمتـم بـه .. ؟ "

فهمس سعيد إلى منى لتحضر بعضـا مـن التمـاثيل الـتي صاغـها لهـا .. وعلـى وجـه الخصـوص ، تمثـال السعد ، ذلك التمثال النصفي الـذي كـان سـبباً في شـهرته ، بينمـا عرض على الرجل الإسكتش الذي رسمه لرجل الأمس وأشار إلى التمثـال الـذي كـان قـد فرغ منه لتوه ، وشهقت صفيه وهى ترى التطابق بين التمثـال ، ومـا رسـم علـى الـورق ، وقالـت :

- " بسم الله ما شـــاء الله .. "

وكررت الفتاة هامسةً نفس العبارة ، وهـــي تشـيد بروعـة التمثـال ، ودقـة الصناعـة ، وجمال الفن ، ولم يصدق الرجل هذه الموهبة الرائعة ، فطلب من سعيد أن يعمـــل لـه تمثـالا ، وسأل عن الثمن .. ثم تذكر أن سعيداً حدده بعشرين ألف جنيه ، فهز رأســـه وهـو يقـول :

- " حسنا يا " ما " .. حرري شيكا بالمبلغ ، وسلميه لذلـــك الفنـان العبقـري .. "

وبينما " ما " تعد الشيك .. كان سعيد يعرض على الرجـــل الإسـكتش الـذي رسمـه لـه بينما هما يتحادثان .. ونطق الرجل بكلمات يابانيـــة تعبـيرا عـن هـذه العبقريـة .. بينمـا أصاب الفتاة نوع من الصمت المفاجئ حيث لم تجد الكلمات المناســبة الـتي تعـبر بهـا عـن عبقرية سعيد .. وتعجبت من الكلمات اليابانية الـــتي أطلقـها الرجـل ، فمـا كـان لـه أن يتكلم بها أمام أغراب لا يفهمونها ، إذ أنه من قواعد الـــبروتوكول ألا يكـون الحديـث بغـير اللغة التي يفهمها الجميع .. وأمعنت النظر في الرسم مـرة أخـرى ، وانطلقـت منـها عبـارة باسم الله ما شاء الله بصوت هامس أيضـــاً ، ثم أضـافت :

- " خالي .. سأحرر الشيك بمبلغ أربعين ألفا ... أنا أيضـــا أريـد تمثـالا .. "

وتعجب الجميع .. إذاً هو عمها .. ، وأكمل سعيد رسم الرجـــل بعـد أن اسـتكمل بعـض الرتوش ، وجلست الفتاة لتأخذ دورها ، بينما تســـاءل سـعيد :

- " الحقيقة .. أننا لم نتشرف بالاســـم .. "

فقالت الفتـاة :

- " أنا " ما ".. وهذا خالي " كـــازو " .. "

وعلق سعيد باللغة العربية مخاطباً نفسه بصوت يكـاد يكـون مســموعاً :

- " أين هي عوامل الوراثة .. وقانون مندل .. ؟ كيف يكـــون عمـها ، وهـي تفوقـه طولاً وعرضاً ، وجمالاً .. ربما كان كل شــئ لأمــها .. "

وأجابت الفتاة بالعربية أيضـــا :

- " بل إنني أشبه أبي كثـــيرا .. "

ومع دهشة سعيد بإجادتها للعربيــة ، فــهو لم يســمعها تتحــدث بهـا إلا هــذه اللحظــة ، أضـــافت :

- " إن البروفيسور " كازو " .. خالي وليـــس عمــى .. "

ولم يعلق سعيد .. بل أصابه البكم .. لقد كان يحادث نفســـه ، فـإذا بهـذه اليابانيـة تـرد عليه بالعربيــة ، لقد سمع همسها وهي تقول باسم الله ما شــاء الله ، فظنــها تــردد مــا ســبق أن قالته صفيه ، لم يتصور أنها تجيــد العربيــة ، وكــانت صفيــه تنظــر إلى الســاعة حيــث أوشكت على الواحدة ظهرا ، وقد قرب موعــد مصطفــى والعائلــة مــع الغــداء ، ومــادام هذان الضيفان موجودين ، فلا بد لهما من الغداء معــهم ، وسمعــت صــوت ســيارة مدرســة البنتين ، فاستأذنت من الرجل والفتاة ، بينما اصطحبت مـــنى إلى الخــارج ، وأســرت إليــها بدعوتهما للغداء معهم ، فإن قبلا ، فلتحضر الفتاة معــهما ، لعلــها ترغــب في طــهي بعــض الطعام الياباني ، ودخلت مـــنى لتخبرهمـــا بذلـــك ، بينمـــا ذهبــت صفيــه لتلتقــي بــالبنتين بالأحضان كما تعودتا ، وتصحبهما إلى الداخل ، ولما كان ســعيد قــد أنهــى رســم الفتــاة ، فقد اصطحبتها منى إلى المطبخ ، بينما جلس سعيد يعد تمثال السيدة الـــتي حــدد لهــا موعــد السادسة مساء و استرسل في الحديث مع البروفيســـور " كــازو " :

- " ماذا يعنى " كـــازو " ..؟ "

وتساءل الرجـــل :

- " وهل كل الأسماء لها معـــنى ؟ "

وأجاب ســعيد :

- " أجل .. الأسماء العربية على الأقل .. فأنـــا اسمـــي ســـعيد يعـــني " HAPPY " .. من السعــــادة .. "

وشد الحديث تركيز كازو ، فتساءل متابعـــاً :

- " وهل أنت كذلـــك .. ؟ "

وكان سعيد قد ضاق صدره بما تفجر في نفسه من شعور بالذنب تجـــاه أخيــه ، الــذي هيــأ له كل وسائل السعادة ، بينما هو يتقبل ذلــــك بغضاضـــة :

- " الحقيقة أنني لم أكن كذلك حـــتى أمـــس .. "

وأراده الرجل أن يكمل قصته مع السعادة :

- " كيـــف ..؟ "

وأكمل سعيد قصتـــه :

- " الحمد لله .. لقد تحققت أحلامي كلها .. كلها .. دفعة واحـــدة .. انتصـــار علمـــي في مجال الأمن الغذائي .. وحب تم تتويجه بخطوبة .. وفاتحة خير لـــرزق كـــريم وفـــير مـــن الفـــن .. "

ففغر الرجل فاه معلقـــاً :

- " كل هذا .. دفعة واحـــدة .. "

واسترسل ســـعيد :

- " وأكثر .. إن لي أخا يكبرني هو سر سعادتي حقا .. شـــجعني علـــى العلـــم ، فكـــان ماجستير ، ودكتوراه تناقش رسالتها قريبا .. وأحضر أحجارا ودفعــــها إلى لكـــي أجـــرى عليها تحليلات كيميائية ، لأكتشف أنها تحتوى علـــى بروتـــين حيـــواني .. وكـــان مؤتمـــر الأمس الذي توجت فيه عالماً في مجال الأمـــن الغذائـــي .. واكتشـــف في موهبـــة الرســـم والنحت .. فساعدني على فتح مجال للرزق ، وثروة لم أكن أحلـــم بهـــا ، وكـــان ســـببا في سعادتي مع من أحب ، توجه بأن خطبــــها لي أمـــس .. "

وعلق الضيـــف :

- " أخ كهذا .. يستحق تمثالا مـــن ذهـــب .. "

وسارع سعيد ليؤكد له أنها أفعال وليســـت أقـــوال :

- " أتقول فيها .. ؟ لقد صنعت له تمثـــالا في قلـــبي أولا .. ثم .. هـــذا .. "

وأشار سعيد إلى شئ غطى بالقماش ، ثم قام برفع القماش عنه .. ليظهر تمثال نصفي لمصطفى غاية في الدقة والجمال ، وعلق الضيف :

- " ماذا أقول يا سيد سعيد .. لكنك بدون شك فنان عبقري ، وأعتقد أننا سنتفق على ما جئت من أجله .. "

وكانت منى قد حضرت .. فقالت بتسرع :

- " وما الذي حضرت من أجله .. ؟ "

ثم استدركت :

- " آسفة .. لقد انشغلت عنكم قليلا .. فقد حان موعد الغداء ، ولتسمح لي نيابة عن سعيد والعائلة ، أن ندعوك لتناول الغداء معنا .."

ودخلت صفيه ومعها " ما " ، بينما علق البروفيسور " كازو " :

- " الحقيقة أنني زرت بلاداً كثيرة ، ولكنى لم أرَ أجمل من بلدكم ، ولا أطيب من شعبكم ، هل هذا ما تفعلونه مع كل عميل ؟ أقصد تدعونه إلى الغداء .."

وأكملت " ما " :

- " ولا أكرم منهم .. تصور يا خالي أن الأختين العزيزتين صممتا على أن أدخل معهما المطبخ ، وأعد لك أطباقك التي تحبها .. "

وقال الضيف :

- " هذا كرم كبير جدا .. وماذا صنعت .. ؟ "

وتابعت ما :

- " صينية سوشي ... وطبق تمبورا .. "

وأكملت صفيه التي لا تفهم معنى سوشي وتمبورا :

- " يعنى المائدة تشكيلة من الطعام المصري والياباني .. "

فضحكت " منى " و " ما " .. بينما ابتسم " سعيد " وقامت " ما " بالترجمة لخالها .. فضحك هو أيضا ، وساروا جميعا إلى داخل الفيلا ، بينما سعيد منشغل تماما في عمله ، ومع التركيز الشديد ، لم يتجاوب مع الأحداث ، فاندفعت منى نحوه تجره من ذراعه وهي تداعبه :

- " خلاص يا سيدي .. عرفنا إنك بتاع شغل .. "

٨- اليابان ٢

تم إعداد كل شئ للغداء ، لكن مصطفى تأخر عـــن الحضـــور علـــى غـــير عادتـــه ، ورأت صفيه أن الأفضل تقديم العصير في الصالون ريثما يحضر مصطفـــى ، فـــأمرت بإحضـــار عصـــير كله طبيعي ، برتقال ، وجزر ، وجريـــب فـــروت ، بالإضافـــة إلى العـــرق ســـوس ، والتمـــر هندي ، والخروب ، وأثناء تناولهم العصير ، قامت بالإشـــراف علـــى إعـــداد الطعـــام لعـــم نعيم وزنوبه وسعديه ، بعد أن أرسلت الطعام لعـــــم محمـــد ، والســـائق الـــذي حضـــر مـــع اليابانيين حيث لاحظت أن سيارة السفارة مازالت بالخـــــــارج ، وكذلـــك أرســـلت الطعـــام للعمال والمهندسين الذين كانوا ما يزالون في أعمـــال الواجـــهات الخاصـــة بالأتيليـــه ، وقـــدم مصطفى بعد قليل ، فأسرعت صفيه إلى استقباله عند البـــــاب الداخلـــي ، وهمســـت في أذنـــه وهي تحتضنه وتطبع على خده قبلة ما كانت لتنساها ، اليـــوم علـــى الأخـــص :

- " عندنا ضيـــوف .."

اعتصرها إلى قلبه ، فقد لاحظ تخوفها ، ظناً منـــه أنهـــم أهـــل زوجتـــه الســـابقة ، فـــهي لا تخشى أحداً قدر خشيتها من هؤلاء القوم ، فأراد أن يشـــعرها بـــدفء حبـــه ، وأن حبـــه لهـــا لن يتغير حتى ولو كانت الموجودة ملكة جمال العالم ، هـــو ارتضاهـــا زوجـــةً لـــه عـــن قناعـــة واقتناع ، وإن كانت زوجته السابقة أجمل منها قليـــــلا ، فصفيـــه أصغـــر منـــها كثـــيراً ، وإن كانت الأولى بنت ذوات ، ومن عائلة أرستقراطية وغنية ، فصفيـــه بنـــت بلـــد أصيلـــة مـــن الصعيد ، حيث النخوة والشهامة ، والمرأة ليس لها إلا زوجـــــها فقـــط ، معـــه علـــى الحلـــوة والمرة ، لا أن يهرب الحب من الشباك بمجرد أن يـــــرى شـــبح قلـــة ذات اليـــد ، ولا نقـــول الفقر ، قامت على تربية ابنتيه من بنت الأصـــول ، الـــتي تركتـــهم وهربـــت عندمـــا بـــدأت ملامح قلة ذات اليد تطل بوجهها القبيح على عزيز قوم . قال مرحبـــاً بـــالضيوف ، ولـــو أنـــه لا يعرف ما علاقة زوجته السابقة بسيارة فخمة ضخمة تحمـــل أرقامـــاً دبلوماســـية :

- " يا أهلا وسهلا .. لقد رأيت الســـيارة بالخـــارج " .

ولاحظت تساؤلات عينيه ، فأرادت أن تريـــح ظنونـــه :

- " إنهما من اليابـــان .. "

فسألها مصطفى وقد بدت على وجهه إمــارات الجديــة :

- " من هما ... هل عرفتم لمــاذا حضــرا .. ؟ "

شعرت بقلقه ، فأرادت أن تطمئنه إلى أنهما قدما من أجــل فــن ســعيد :

- " آه .. لقد قام سعيد برسمهما .. وسوف يعمــل لهمــا تمثــالين ، وقدمــا لــه شــيكاً بمبلغ أربعين ألف جنيه ، أو أظنــه بــالدولارات .. "

وتعجب مصطفى من استمرار وجودهما بالرغم مــن أنــه موعــد الغــداء ، فســأل ســؤالاً عابراً ، قصد به أموراً شتى ، والوساوس تســاوره ، فمــا لــه واليابــان ، ولمــاذا في موعــد الغداء ، واثنان ، لم تفصح هل هما رجلان أم امرأتــان ، أم رجــل وامــرأة ، فســأل ســؤالاً يبعد به عن نفسه بعض هذه الوســاوس :

- " إنه موعد الغداء ، هل دعوتهمــا .. ؟ "

وقاطعته قبل أن يكمل سؤاله ، وبالرغم من أنهــا تعــرف رده مســبقاً ، إلا أنهــا أرادت أن تستشف ما وراء قلقــه :

- " ألا يضــايقك .. ؟ "

فقاطعها ، وقد بدت على صوته بعــض العصبيــة :

- " يا صفيه هانم .. ضيوف عندنا في موعد الغداء .. نقول لهــم تعــالوا بعديــن .. "

وســارعت :

- " ولذلك دعوتهما على الغداء .. ليس هذا فقط ، بــل إنــني دعــوت الفتــاة لتعــد الأطباق التي يفضلونهــا .. "

فتاة .. إذاً هما رجل وفتاة ، من عساها تكون ، ومن عساه يكــون ؟ هــل همــا حقــا قدمــا من أجل فن سعيد ، أم أن وراء الأمور أموراً ؟ وأخذ يــردد بعــض الأدعيــة ، بينمــا قلبــه ازداد نبضه وتسارعت دقاته ، وبدأ عرقه يتصبب رغم برد الشــتاء ، فــانطلقت منــه العبــارة دون تحكم منه عليــها :

- " معه فتـــاة !! "

قالها وهو يسرع بالدخول وهو يدعو الله سبحانه وتعالى أن تكـــون هـــي ، ولكـــن لخشـــيته أن يكون حلمه هذا سراباً ، ثم لا يصيبه إلا أنه ترك لزوجتـــه التكـــهنات ، بينمـــا أرادت هـــي أن تختبر لهفته على رؤيتـــها :

- " نعم .. إنها فتاة زى القمر .. لا يمكن أن تميزها عـــن بنـــات مصـــر .. "

الأمر قريب جداً من أحاسيسه ، آه لو كانت هي ، مـــاذا يفعـــل ، وهاجمتـــه آلاف الأســـئلة التي ليس لها إلا جواب واحد هو أن يرى الفتـــاة ، يجالســـها ويحادثـــها ، دون أن يثـــير غـــيرة أو حفيظة زوجته ، فسألها ليبعد عنـــها الوســـاوس :

- " وهل أعدت تلك الفتاة الأطباق التي ترغبها ؟ مـــا هـــي .. ؟ "

وبدأت الأمور تتضح لها بعض الشيء ، ما سر اهتمامـــــه هـــذا ؟ لابـــد وأن هنـــاك علاقـــة مـــا ، أسئلته ليست عادية ، لماذا يخشى مواجهتهما ؟ لمـــاذا لم يتصـــرف علـــى طبيعتـــه بـــدلا من كل هذه الأسئلة ؟ لكنها وجدت أن مجاراته أمر تســـتلزمه طبيعـــة العلاقـــة الـــتي تربـــط بينهما ، هي لم تسمها حباً فليس حباً ذلـــك الـــذي جمـــع بينـــهما ، لكـــن الاحـــترام الـــذي يضرب بسياجه حول تصرفات كل منهما قِبَل الآخـــر ، غلف تلك العلاقـــة بمـــا هـــو أقـــوى من الحب ، وأمتن من أية علاقة أخرى ، أجابت على ســـؤاله ببســـاطة لا تعكـــس تســـاؤلاتها المترددة المتحيرة المتعـــددة :

- " لا أذكر .. لكنى أعتقد أنها قالت صينية اسمها سوســـــو .. سوشـــو .. وشـــئ آخـــر اسمه تمبـــــولا .. "

فتظاهر مصطفى بأن الأمر لا يعدو إلا أن يكون مصادفـــةً ، فاســـتغرق في ضحـــك مفتعـــل ، لا يستطيع أن يُقنِع به من تعرفه جيداً ، ومن هو حتى يستعصي علـــى خريجـــة كليـــة البنـــات التي مازالت دروس علم النفس عالقة في ذاكرتها تطبقها على كـــل مـــن تلتقـــي بهـــم ، عـــدل لها الأسمـــــاء :

- " تقصدين صينية سوشي ، وطبـــق تمبـــورا .. "

وتساءلت صفيه ، وهى تعلم أن الجواب قد يصيبها بالهواجس :

- " تعرف هذه الأكلات .. ! "

وجاءها جوابه بما يثير في النفس التساؤلات ، وهي تخشى ما قد يحدث من أمور في الأيام القليلة القادمة ، إنه ليس طبيعياً ، منذ أن عرف بأنهما رجل وفتاة ، وأن الفتاة مثل القمر وكأنها مصرية ، ويعرف الأكلات التي صنعتها ، فأراد أن يطمئنها :

- " ألم أخبرك بأنني قضيت في اليابان سنوات طويلة وحصلت على الماجستير من هناك .. "

وضمها أكثر إلى صدره لما لاحظه من بعض التغير في صوتها ، ثم أضاف :

- " أتعلمين ... أن هذه الأطباق من أحب الأطعمة اليابانى إلى قلبي .. "

وازدادت هواجسها ، ثم سألها سؤاله المعتاد عن طعام الخدم والبواب ، وما إذا كانوا قد أرسلوا كمية مضاعفة للسائق ، ولم ينس الإشارة إلى طعام العمال والمهندسين ، ثم هم بالدخول إلى صالة الطعام ، ولكن صفيه اصطحبته إلى الصالون ، فسلم سلاما عاما .. وأنحني لليابانيين ، ولاحظ أن الرجل منع الفتاة من أن تقف ، فتعجب ، لكنه لم يعطِ للأمر أهمية ، بقدر ما بدأ يركز على الظواهر ، سيارة هيئة سياسية ، يعني تخص سفارة اليابان ، والطعام سوشى وتمبورا .. وفتاة كالبدر سبحان الخلاق ، ولا يمكن تمييزها عن المصريات ، والرجل .. إن ملامحه لا يمكن أن تغيب عنه .

وجد أن الأمور غير طبيعية ، فأسرع إلى والدته ، قبل يديها ورأسها ، وهمس في أذنها ببعض العبارات .. وهزت السيدة رأسها بالنفي ، كل هذا وصفيه تتابعهما بهواجس لا تدرى مصدرها .. ربما لأن الفتاة أسرعت إلى المطبخ أولا ، ثم تبعتها منى ، لقد علقت منى على ذلك ، إذ كيف لها أن تعرف الطريق إلى المطبخ ، رغم أنها المرة الأولى التي تطأ قدمها المترل .. ؟ وأفاقت على سؤال مصطفى عن الأولاد ، ولم ينتظر الجواب ، فقام هو بالنداء عليهم ، وقدمهم إلى الضيوف ، فرحبوا بهم بالإنجليزية ، وسلموا عليهم . جال المكان بنظره وهو يحاول اختلاس النظر إلى الفتاة .

لكن صفيه كانت له بالمرصاد ، فكلما حاول التحديق ، نظرت إليه نظرات من تقول له إنها في سن بناتك ، فقد تصورت أن حنينه لليابان سيتحول إلى نوع من الحنين إلى بنات اليابان ، بعض ما يعتلج في صدور النساء من غيرة ، فهي تحبه لدرجة تخشى معها أن تفقده ، فقال بعض كلمات الترحيب بالعربية واليابانية ، وأومأ إلى صفيه أن تتأكد من تجهيز الغداء ، وعندما عادت دعاهم إلى الطعام ، فقدم الضيفان أولا ، ثم والدته ، فصفيه ومنى ، ثم سعيد ومن بعده الأولاد .

جلس البروفيسور في المقدمة ، وبجانبه الفتاة ، ثم مريم وصفيه ، بينما مها وشريف جلسا على رجلي أبيهما كالعادة ، وتصدر هو المائدة من الجهة المقابلة للبروفيسور ، وإلى جواره والدته ، ثم منى وسعيد . وحضرت زنوبه ، وسعديه ، وعم نعيم ، يحملون الطعام ، ويمرون على الجالسين كل يأخذ ما يرغب ، بينما صفت أطباق السلاطة والمقبلات على المائدة ، بذات الطريقة التقليدية التي تقدم بها الأطعمة في أرقى المطاعم وأعرقها ، ولم ينس مصطفى أن يدعو ببعض الدعوات ، ورددها بعده الجالسون ، والفتاة تترجمها لخالها ، وأمن الجميع . وصدق حدس صفيه ، فقد طلب مصطفى طعاما يابانيا ، لقد قال لها إنه يحب هذين النوعين من الطعام الياباني ، وقدمت له الفتاة عصايتين .

ولاحظ الجميع ، أنه قد تدلى من رقبة الفتاة ما شاء الله من الذهب الجيدي الذي انقرض ، ولم يعلق أحد ، فقد تكون مشتراة حديثا من خان الخليلي ، أو شيئا من هذا القبيل ، والعجيب أن مصطفى لم يحاول أن يرفع عينيه ليرى الفتاة عن قرب ، فهو لا يطيل النظر إلى السيدات ، وصفيه تعلم ذلك جيدا . ولاحظ مصطفى أن طبق البروفيسور قارب على النفاد ، فنادى على زنوبه ، وبعد أن أخذ حاجته ، نظر إلى مصطفى ليشكره ، حيث التقت العيون مرة أخرى ، إنه يذكره ، لكن هناك تغييرا كبيرا ، النظارات الطبية على العيون ، ازداد سمك عدساتها ، وكذلك ازدادت نحافة جسده ، وخشي أن يقدم على شئ قبل أو أثناء الطعام ، فمادام لم يقدم نفسه ، فلا داعي للعجلة ، خاصة وأن معظم اليابانيين متشابهون .

انتهى الطعام ، وخيرهم مصطفى بين الجلوس في التراس ، أو الصالون ، واختار الجميع التراس ، بينما اعتذر سعيد لإنهاء أعماله ، وتبعته منى ، واصطحبت صفيه الأولاد

للمذاكرة وإنهاء الواجبات المنزلية ، وجلس البروفيسور والفتاة على الوسائد التي أمر مصطفى بأن تصف على الطريقة اليابانية ، وقدمت الفواكه أولا ، ثم قدم الشاي بنفس الطريقة التي يقدم بها في اليابان ، فقامت الفتاة بتقديم الشاي لخالها أولا ، ثم مصطفى ثم جدتها ، وقد تدلت " أل ما شاء الله " من رقبتها بشكل ملفت للنظر ، فأخذت السيدة العجوز الشاي منها ، وأطالت النظر في تلك " أل ما شاء الله " وهي تتحسسها ، وقالت :

- " جميلة جدا .. لكن صاحبتها أجمل .. بسم الله ما شاء الله .. "

ثم نظرت إلى مصطفى ، وسألته :

- " ألا تذكرك هذه ألما شاء الله بشيء ، ألا تشبه تلك ألما شاء الله التي أهديتها لمايسه في عيد ميلادها الثاني ، لقد أخرجتها من الشكمجية التي تحوى ذهبي ومجوهراتي ، لذلك أنا لا أنساها ، ولولا أنني أخشى أن تظن أن الأمور قد اختلطت عليَّ لكبر السن .. لقلت إنها هي بكل تأكيد .. "

واضطر مصطفى إلى التحقق من الما شاء الله ، ومن صاحبة ال ما شاء الله ، وهمس في أذنها :

- " صدقت يا أماه ... إن صاحبتها تشبهك كثيرا .. ، ألم تلاحظي عينيها الخضراوين ، كما هي مايسه ، كم فتاة يابانية وهبها الله تلك العيون ، وهذا الرجل يشبه كازو أخو ماي سيتو .. لكنه تغير كثيرا ، فقد أصبح أكثر نحافة ، كما أن الذقن والشنب قد حلقا ، لكني يا أمي لا أريد أن أتعلق بأوهام قد أصدم إذا لم تتحقق .. "

وتساءلت الفتاة باليابانية :

- " سيدي .. أراك تتحدث مع الجدة عني ..! "

كان سؤالاً صريحاً مباشراً ، وهذا النوع من الأسئلة يحتاج إلى إجابة صريحة مباشرة أيضاً ، فقال :

- " الحقيقة يا آنستي ... أنك تذكريننا بإنسانة عزيزة جدا على قلوبنا .. خاصة وأن السلسال في رقبتك ، يذكرنا أيضا بسلسال كانت والدتي قد أهدته لها .. "

فقامت الفتاة بخلع السلسال ، وأعطته للجدة ، وقالت بالعربية :

- " تقصدين هذا السلسال يا جدتي .. الحقيقة أنني لم أر في حياتي مثيلا له .. "

وتعجبت السيدة أن الفتاة تتحدث العربية ، ولجأت إلى السلسال تتفحصه بدقة ، ولكثرة ما يشبه سلسال كانت تملكه ، كادت تعقد الدهشة لسانها .. فاستأذنت في فتحه .. ولما فتحته وجدت صورة زوج وزوجه .. لم تكن معها النظارة الطبية ، فلم تتعرف عليهما ، فعلقت الفتاه باللغة العربية :

- " ما تبحثين عنه يا جدتي .. أسفل صورة زفاف أبي وأمي .. "

إنها تتحدث العربية بطلاقة ، وتناديها جدتي ، ولم ينتظر مصطفى أكثر من ذلك ، فانتزع السلسال من والدته ، وحملق في الصورة ، إنها صورة زفافه وماي سيتو ، ثم نزع الصورة ليجد صورة والدته خلفها .. فتسلل السلسال من يديه ، حيث لقفته والدته ونهض إلى الفتاة التي وقفت .. فالتقفها بين يديه بكل الحب والشوق وهو يردد اسمها مايسه .. مايسه .. والفتاة تغوص في صدره وهي تردد اسمه .. أبي .. أبي .. وظلا كذلك فترة من الزمن .. حضرت صفيه ، ورأت المنظر فبهتت ، فطلبت منها الوالدة الجلوس ، والعبرات تكاد تخنقها ، والدموع تنساب منها فلا تقوى على الكلام ، وتولى البروفيسور كازو توضيح الأمر فقال :

- " SHE IS HIS DAUGHTER . "

أما مايسه فلم تقو قدماها على حملها من شدة التأثر ، فأجلسها أبوها إلى جانبه ، واختطفتها جدتها إلى أحضانها ، وقد زاد بكاؤهما ، بينما تجاذب مصطفى وكازو الحديث باليابانية :

- " كنت أشك أنك أنت ، فقد تغير شكلك كثيرا .. "

فصمت كازو قليلا ، وكأنما هو يفكر فيما يقول ، أو لعلــه يــتردد في أن يتكلــم ، وأخــيرا نطـــق :

- " عندما وجدتك وقد تأخرت في التعــرف علــى ابنتــك ، شــككت في أنــك ربمـا تكون قد أهملت موضوعها تماما ، ولقد سبق أن اتفقت مع " مـــا " أن لا نكشـف لكـم أمرنا إلا بعد أن نتأكد من تذكركم لنا أو " لما " على الأقـــل ، ولقـــد تعجبـــت ، كيـــف أنك لم تفطن لابنتك منذ اللحظة الأولى ، ألا يقولون عندكم أن الـــدم يحـــن "

تعجب مصطفى من لفظ " ما " ، ولكنه سرعان ما تذكر أنهم كـــانوا ينادونهـــا بهـــذا الاســـم الذي هو اختصار مايسه ، تماما كما كانوا ينادون والدتهـــا مـــاي ســـيتو ، ورد علـــي كـــازو قائلا :

- " أعذرني يا "بروفيسور ناجا سيتو" .. فإنني لا أحملـــق في الســـيدات .. ديننـــا يحـــرم ذلك ، لكنى كنت أشـــعر بدفئـــها .. بمجـــرد أن علمـــت أن الســـيارة مـــن الســـفارة اليابانيـــة ، وطعام السوشي والتمبورا اللـــذان أفضلـــهما .. والعصايتـــان .. إنهمـــا مـــن العاج .. لا تقل لي إنهما لا يخصـــاني .. "

وابتلع كازو غضبه ، وتعجب كيف له أن يتذكر عصايتيـــه ، ولا يتذكـــر ابنتـــه :

- " بلى إنهما يخصانك .. فقد أصرت " ما " على إحضارهمـــا معـــها ، فقـــد احتفظـــت بكل ما يخصك ، ولم تفرط في أي منها حتى هذه اللحظة ، بـــل لقـــد كـــانت تبلـــل بهـــم عينيها كلما هزها الشوق ، أو عصف بهـــا الحنـــين .. "

فالتفت إليها مصطفى ، وأخذها من بين أحضان جدتها ، وغمرهـــا بحبـــه وحنانـــه ، وأغرقـــها بوابل من قبلاته .. ثم قدمها إلى صفيه .. حيث احتضنتها هي الأخـــرى ، وقـــد ثقـــل عليـــها الموقف ، فلم تتمالك نفسها فشـــاركتهم البكـــاء .

ودخلت منى ، وبعدها بلحظات دخل سعيد وهو يعلـــن لمصطفـــى :

- " السفير المصري في اليابان ، اتصـــل ، ويقـــول إن مايســـه ابنتـــك ذهبـــت أمـــس لتجديد الجـــواز .. مبروك يا أبيه .. مايســـه جايـــة "

فنظر مصطفى إليه وهو يقول بينما العبرات تكاد تخنـــق صوتـــه :

- " هاهي .. مايسه .. هـــاهي .. "

وفوجئ سعيد بالفتاة اليابانية في أحضان صفيـــه ثم مصطفـــى ثم والدتـــه ، وهـــم يغمرونهـــا بحبهم وحنانهم ، فعلق ســـريعا :

- " إيه يا ستي مايسه .. هو من لقي أحبابـــه نســـى أصحابـــه .. ألم نكـــن أصحابـــا .. وكنا نلعب سويا .. تعالى .. تعـــالى .. "

فاندفعت إليه مايسه تغمر رأسها في صـــدره ، والدمـــوع تنســـاب مـــن الجميـــع ، فعرفـــها بمـــنى ، وجلسوا ومايسه في أحضان أبيـــها ، بينمـــا أذن المـــؤذن لصـــلاة العصـــر ، فنـــهض مصطفى ، وعاون والدته على النهوض ، وأخذ مايســـه في يـــده ، ثم ســـألها :

- " تصلـــين .. ! "

فأجابته بســـعادة :

- " وأحفظ الكثير من القرآن ، وكذلك الأحـــاديث النبويـــة .. "

وعن له أن يسألها عن خالهـــا :

- " وخـــالك .. ! "

وأجابته بأســـى :

- " على ما هو عليه ... بلا ديـــن .. "

فسألها وهو يستعيد ذكرياته عنـــهم :

- " هل تعود على نوم القيلولة .. أم مازال علـــى نشـــاطه .. ؟ "

وأجابتـــه :

- " لا .. ولكنه يحب الاختلاء بنفسه كثـــيرا ، فـــهو يراجـــع الكثـــير مـــن أعمالـــه ، وكذلك يقوم بالكثير من دراســـاته "

فصمت مصطفى قليلا قبل أن يقـــول :

- " لا تقولي إنكم ستقيمون في أحد الفنـــادق ، أو إنكـــم اتفقتـــم مـــع الســـفير علـــى الإقامة عنده ، إن لكم أهلا ، وأي أهل ! ولا بد أن يعـــرف خـــالك أن ثـــراء عائلتـــهم في اليابان ، لا يزيد كثيرا عن ثراء عائلـــة أبيـــك ، غرفـــة والدتـــك موجـــودة لم تمـــس وسوف تنامين على نفس التنامي الذي كانت تنام عليـــه والدتـــك ، أمـــا عـــن خـــالك ، فما رأيك في غرفة عمك سعيد نخصصها له .. هـــل تذكرينـــها ..؟ "

فقالت بعد برهة كي ما تستطيع التحكم في عواطفها التي حركتـــها ذكـــرى والدهـــا :

- " وهل مازالت مكانها .. ؟ أم أن هناك أمـــورا تغـــيرت .. ؟ "

وفهم مصطفى أنها ترمي بذلك إلى أن وجود صفيه ربمـــا يكـــون قـــد ترتـــب عليـــه إجـــراء بعض التعديلات ، وذلك أمر طبيعي ، فالذكرى لا تستمر طول العمـــر ، وســـتة عشـــر ســـنة ليست بالمدة القصيرة ، وزوجة أخـــرى ، لابـــد أن يكـــون لهـــا لمســـاتها في بيتـــها ، وتذكـــر مصطفى أنه لا يحادث مايسه ذات السنوات الأربع ، وأنهـــا الآن في العشـــرين مـــن عمرهـــا ، وتدرس الماجستير ، يعني ليست في مراحل التعليـــم الأولى ، والكـــلام معـــها يجـــب أن يحمـــل كل معاني الصدق والعقلانية ، قـــال :

- " لا ... لم تتغير .. سترين بنفسك أن كل شـــيء مكانـــه .. "

وصدق حدسه ، فقد عرجت بسؤالها مباشرة إلى ما يخصـــها ويخـــص أمـــها :

- " وغرفة أمي ..! هل مازالت مكانهـــا ... أم تغـــيرت .."

وكان قد استعد للإجابة على جميع أسئلتها في هـــذا الخصـــوص :

- " لو كانت مكانتكما في قلبي تغـــيرت.."

وأخذها من يدها .. فصاحت بســـعادة :

- " أسابقك إليـــها .."

فاستمهلها قليلا ، حتى يبين لها كم هي أمها عزيـــزة عليـــه ، وكـــم هـــي ذكراهـــا غاليـــة عنـــده :

• "لا .. إنها مغلقة ومفتاحـــها معـــي .. لا أحـــد يدخلـــها غـــيري ، وجدتـــك طبعـــا للإشراف على نظافتها ، إنها تحمل كل ذكريـــاتي معكمـــا ، ولا أقبـــل لأحـــد أن يتدخـــل في هذه الذكريـــات .. "

فاحتضنته ، وسارت ملاصقة له ، لتنهل من حنانه ، وتتحقـــق أنهـــا قطعـــة منـــه ، ودخلـــت غرفة أمها ، لم تصدق .. صورها وصـــور والدهـــا تمـــلآن الجـــدران ، "والتنـــامي" مفـــروش وسوى تماما كما كان أيـــام أن كانت أمها موجودة .. فقط وضـــع بهـــا مكتبـــها ومكتبتـــها ، بالإضافة إلى الكثير الكثير من اللعب ، واحتضنته أكثر مما ســـبق ، وصرخـــت باكيـــة :

• " إن كان الأمر كذلك .. فلمـــاذا تركتـــني .. ؟ "

كفكف لها دمعها ، واحتضنها بحب وحنان ، وتساقطت بضع قطـــرات مـــن دموعـــه علـــى شعرها وهو يهدهدها ، شعرت بها ، فنظـــرت إليـــه نظـــرات حـــب حقيقـــي ، وحـــاولت أن تعتصره ، ثم قـــال :

• " هذا موضوع يطول شرحه .. الوضـــوء أولا ، لكـــن قبـــل ذلـــك ، اذهـــبي أنـــت ومامتك صفيه إلى غرفة عملك لتجهيزها بما يتناسب مع راحـــة خـــالك .. هـــل مـــازلت تذكرينـــها .."

فقالت مبتســـمة :

• " وهل لي أن أنســـاها .."

وكانا قد وصلا إلى غرفة الأولاد ، التي كانت غرفة مايسه سابقا ، فقـــالت لهـــم مايســـه :

• " ألا تصلـــون ..! "

وكانت صفيه قد مهدت لعلاقة هذه الفتاة اليابانية الجميلة بهما ، وحببتـــهما فيـــها مـــن قبـــل أن تتلاقيا بها ، فنهضتا سريعا يحتضنانها ، بينما صفيـــه قـــد تعلـــق شـــريف بهـــا ، فأســـرعت مايسه إليها تحتضنها ، ورفعت شريف إلي صدرها تحتضنـــه وتقبلـــه ، ثم قـــالت :

• " أنت صغيرة على كلمة ماما ، فلتكوني أخـــتي الكبـــيرة .."

فاحتضنتها صفيه بما يليق بكلماتها الرقيقة من حـــب وحنـــان ، وقـــالت :

- " ولكنى سأسعد بها منك أكثر مـــن أي لقـــب آخـــر .. أنـــت لا تتصوريـــن مـــدى الفخر الذي ستشرفيني بـــه .. أن تكـــون لي ابنـــه ، بجمـــالك .. ســـبحان الخـــلاق .. ورقتك ، وظرفك .. إن من يراك لا يملـــك إلا أن يحبـــك .. فـــإذا أضفنـــا إلى ذلـــك .. أنك ابنة كياني كله .. حبيب قلبي الذي أدين لـــه بعمـــري ، وحـــبي ، وحيـــاتي .. هنـــا يا مايسه تضيع كل الألقاب .. ويبقى شئ واحد .. هو أنـــك قطعـــة مـــنى .. لأنـــنى أنـــا وأنت قطعة منه .. فغلاوتكم عنـــدي أنـــت ومـــريم ومـــها وشـــريف .. أكـــبر ممـــا تتصورين .. لكنها أبدا لن تزيد عن غـــلاوة أبيكـــم .. "

واحتضن مصطفى الجميع ، بينما كلهم تماســـكوا وكـــأنهم يؤكـــدون مـــا قالتـــه صفيـــه ، وهمس في أذن صفيه أن تصحب مايسه لتشرفان على ترتيب غرفـــة ســـعيد لإقامـــة الدكتـــور "ناجا سيتو" ، وتجهيز أحد الغرف بالأتيليه لإقامة سعيد ، علـــى أن يتـــم ذلـــك بســـرعة ، ثم قال لابنتيـــه :

- " لا ينسينكما ذلك حبكما لله .. الصلاة يـــا عبـــاد الله .."

وأشرف على وضوء الأولاد ، ثم توضأ هو ، وحضرت مايسه وصفيـــه بعـــد تمـــام المهمـــة ، فتوضأتا ، ونزل الجميع إلى التراس . وكانت الوالدة في انتظارهم ، وكذلـــك ســـعيد ، بينمـــا جلست منى وقد كسا وجهها الخجل .. فقد كان منظرا مؤثـــرا .. يذهـــب الجميـــع إلى بيـــت الله ، يقفون بين يديه ، يناجونه ويصلون إليـــه ، ويتعطـــف هـــو عليـــهم بـــالقبول والبركـــة والرحمة ، وتقبل الصلاة والدعاء ، وهي .. هي .. ياه .. لقـــد شـــعرت كـــم هـــي بائســـة ، إذ كيف أنها لم تتصور ذلك ، فماذا عن يوم الحساب .. مســـلمة هـــي وتشـــهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، لكن باقي أركان الإســـلام وأولهـــا وعمادهـــا الصـــلاة ، هـــي لا ترتكب منكرا ، شريفة طاهرة جادة ، ربما ما تسميه هـــي الصراحـــة في مواجهتـــها للخطـــأ ، ويسمونه هم تجريحـــا ، ويعتبرونهـــا اســـتفزازية ، وهـــي .. لا تقصـــد إلا الخـــير والمصلحـــة للجميع .. ونسيت مصلحتها وخيرها .. ماذا تفعل يوم الحساب ، كيـــف تلقـــى ربهـــا بـــدون صلاة ، إنها تتصدق ، وتصوم ، لكن الصـــلاة .. الصـــلاة .. ولاحـــظ مصطفـــى دموعـــها ، وعينيها التي صوبتهما نحو الأرض ، فهمس إلى مايسه أن تـــأخذ بيدهـــا ، فرفعـــت بصرهـــا إلى مايسه أولا .. ثم إلى الجميع .. فرأت الابتسامة تعلو محيـــاهم .. وقـــال مصطفـــى :

• " إن الله غفور رحيم .. "

وأخذتها مايسه ببراءة طفلة صغيرة إلى حيث الوضوء ، وعادتا ، والجميع في انتظارهما .. فهمست في أذن خالها ببعض العبارات ، ثم اصطحبته إلى غرفة عمها سعيد ، وعادت حيث التحقت بالركب الذي تحرك ، والسعادة تملأ النفوس ، والإيمان يتعمق في الوجدان ، والتسبيح وذكر الله سبحانه وتعالى في القلوب ، وعلى الشفاه . ولم تنس مايسه أن تصرف السائق ، فقد اتفقت مع خالها على البقاء مع عائلتها فترة من الزمن ، وأسرع مصطفى يضع مبلغا من المال في يده .. لكنه رفض رفضا باتا .. ونظرت مايسه إلى أبيها وقالت :

• " هل نسيت يا والدي .. لا إكراميات .. الصدقة لمن يستحقها فقط .."

زلفوا من باب في سور الحديقة إلى المسجد الملاصق للفيلا ، صعدت السيدات إلى المكان المعد لصلاتهن ، واتجه مصطفى وسعيد إلى مكان صلاة الرجال ، وتنحى الإمام لمصطفى ، فهو الأكبر سنا ، والأكثر إلماما بالدين ، فقد حفظ القرآن الكريم كله ، والكثير من الأحاديث ، وحصل على بعض الدراسات الإسلامية في المعاهد المتخصصة ، ويكفي قراءاته لكتب ومؤلفات جده الخوجه باشا رحمه الله ، الذي كان متصوفا ، وقد بنى هذا المسجد ، وأعده ليكون مكانا يجتمع فيه أهل الطريقة البيومية الذي هو خليفة خلفائها ، يذكرون الله بعد العشاء ، ويقدم الطعام للجميع ، ومازالت الغرفة في الحديقة بجانب المسجد مباشرة ، أعدت لتكون مطبخا خاصا لإعداد الطعام للمريدين في حلقات الذكر ، بها موقد الطهي الكبير ، وأواني الطبخ الواسعة من النحاس ، وسواري الأعلام التي كانوا يستخدمونها في الاحتفال بذكرى المولد النبوي ، أو ذكرى الأئمة من الأولياء والصالحين ، عادة اكتسبوها من الفاطميين ، لكن ، مادام ذكر الله فيها فلا بأس بها .

وأهملت الغرفة ، بل والمسجد أيضا ، قبل وفاة الوالد بمدة طويلة ، ربما مع القبض على الإخوان المسلمين ، واحتمال تعرض كل من أطلق لحيته للاعتقال ، وما كان يرد في الصحف من تحقيقات تحمل بين طياتها تسفيه ومهانة لمن قبض عليهم ، يخجل معه كل من يعتز بكرامته من أن يتعرض لمثل هذه المواقف ، فالدين في القلب ، والتعرض للخطر

منع الكثيرين من حضور حلقات الذكر ، ورويدا رويدا .. انتهت ، لكن المعدات مازالت موجودة .

وبعد عودة مصطفى من اليابان ، وزواجه من ماي سيتو ، والازدهار والبركة التي حباهما بهما الله سبحانه وتعالى والفكرة التي سيطرت على مصطفى من تجديد للمسجد وتطويره ، بحيث يصبح قبلة للجميع ، الرجال والسيدات والأطفال ، وعلى وجه الخصوص الأطفال ، فقد ضايقه كثيرا زجر أئمة المساجد ، أو حتى بعض المتشددين من المصلين ، للأطفال والصغار الذين يصيحون ، أو يلعبون في المسجد أثناء الصلاة ، وتذكر واقعة لأحد معارفه عندما كان صغيرا ، حيث سأل شيخ المسجد عن إثبات لوجود الله سبحانه وتعالى ، وكان هذا الصغير قد قرأ لبعض الوجوديين ، وأثناء المناقشة تفوه ببعض العبارات التي أثارت الشيخ عليه ، فأسرع يعدو خلفه بالنعال والسباب والتكفير ...! وكان ذلك كفيلا بأن يمتنع الصغير عن الذهاب إلى المساجد ، بل وعن الصلاة عموما .. ولما كبر ، كانت الوجودية قد سيطرت عليه تماما ، لولا أن الله سبحانه وتعالى ، أراد له الخير ، فكان لقاءه بمصطفى ، الذي بسط له الأمور ، واستخدم معه أسلوب الترغيب ، وابتعد تماما عن أسلوب الزجر والترهيب ، فما الفرق بين أن تقول لفاسق :

- " إذا صليت دخلت الجنة "

وأن تقول له :

- " إذا لم تصلى دخلت النار "

الأولى ترغيب في الجنة ، والثانية ترهيب من النار .. لكن أيهما أفضل للسامع على الأقل ، أن يقوم المسلم بأداء فروض الله وطاعاته وقلبه معلق بالجنة ونعيمها ، أم أن يقوم بهذه الفروض خائفا من النار ، الأولى يقوم بها المسلم عن حب لله ورسوله ، والأجر أكبر إن شاء الله ، والثانية يقوم بها المسلم مجبرا تدفعه غرائز الخوف ، ثم إن الله سبحانه وتعالى عد المؤلفة قلوبهم ضمن المستحقين للصدقات ، وما أحوجنا هذه الأيام لتأليف قلوب من ولدوا مسلمين ، دون التخلق بأخلاق الإسلام ، ولا حتى القيام بفروض الله ، والعجيب

أنهم يجمعون على أشياء ليس للإسلام دخل بها ، تصرفات المسلم محسوبة عليه ، لكن هذا لا يعني أن الإسلام به خطأ .

وأضاف إلى المسجد مساحة مناسبة من حديقة الفيلا ، أعد فيها بعض الألعاب الحركية للأطفال مثل الأراجيح وخلافه ، ومكتبة للكبار ، ومكتبة لكتب الأطفال ، ومكانا وضع فيه مجموعة من ألعاب الصغار الإلكترونية ، وضعت بنظام ، يتعلم الطفل كيف يلعب ، ويحافظ على اللعبة ، ثم يعيدها مرة أخرى إلى مكانها ، وكانت هذه هي النواة ، حيث قام أهل المنطقة بتزويد المكتبات وقاعة الألعاب بما يزيد عن حاجتهم من كتب وعن حاجة أطفالهم من اللعب ، كذلك تم الاتصال بالجهات العلمية والدينية بإرسال كل ما يصدر من كتب أو كتيبات ، وألحق بها صالة كبيرة لعقود الزواج وحفلاته والمناسبات الدينية والاجتماعية ، وفتح المسجد للطلبة يذاكرون دروسهم ، وقام بتشجيع بعض الفنيين ممن حباهم الله بحب الدين ، إلى إنتاج بعض أفلام الفيديو التي توضح كيفية الوضوء ، وأركان الصلاة ، وحفظ القرآن ، والتفسير ، وكل ذلك يتم تحت إشراف خريجي الكليات الأزهرية ، بحيث يربى هؤلاء الصغار على تفهم الدين ، فلا يتمكن أصحاب المبادئ الهدامة من جرفهم إلى تياراتها .

وقد نجح هذا المسجد بفضل الله في إخراج شباب يعرف سماحة الدين ، فالدين يسر ، وعصمهم تدينهم من الانخراط في جماعات التطرف ، أو الانحراف مع مجموعات السموم والمخدرات والضياع .

وكان في شركة مصطفى مكانا لبعض طالبي العمل ، ومحاولة للأخذ بيد كل راغب في مزيد من العلم ، ومساعدة لكل راغب في الزواج ، وقام بعمل صندوق للمساعدات والزكاة ، كفل للجميع تحقيق الرقابة عليه ، حتى يتأكد الجميع من صرف هذه الصدقات في مصارفها الشرعية ، فلا يتهم هذا العمل بما يؤدى إلى فشله ، أما عن المتشككين ، فزيارة واحدة لغرفة المحاسبة ، وتشغيل البرنامج على الحاسب الآلي ، تظهر المبالغ التي تبرع بها كل مشارك ، وكذلك أوجه الصرف ، ولا حرج في الدين ، فقد سجل الكثير من مصارف الصدقات والزكاة ، قروضا حسنة تسدد حين ميسرة ، فتدخل في أموال الصدقات والزكاة ، وجميع المتحصلات يتم إدخالها في حساب الصندوق بأحد البنوك

الإسلامية ، كما أن جميع المدفوعات ، تتـــم بشـــيكات ، يحتفـــظ بصـــورة منـــها في ملفـــات المستفيدين ، وكشوف البنك توضح الإيداعـــات والمســـحوبات ، وللراغـــب في ســـؤال أي من المستفيدين ، فلا حرج في الدين ، وحيث أنه في الغالب ، تتـــم المســـاعدة بالمعاونـــة علـــى التكسب ، فإن ما يتم شراؤه من آلات حياكـــة أو تريكـــو ، أو معـــدات حرفيـــة للشـــباب الباحث عن فرص عمل ، كلها مسجلة ، وبأسماء مستلميها ، وكذلـــك مـــا قـــاموا بســـداده منها .. إلى آخره ، فلا يجد المتشكك مجـــالا للشـــك ، فيصبـــح مـــن المشـــاركين ، ويهديـــه الهـــادي .

شرح مصطفى كل ذلك لمايســـه بعـــد الصـــلاة ، وطـــاف بهـــا في المســـجد وملحقاتـــه ، وشاهدت مدى اهتمام الأطفال بألعابهم ، ولاحظت أنهم جميعـــا كـــانوا في صفـــوف المصلـــين وقت الصلاة ، ومنهم من جلس يقرأ القرآن بعد الصلاة ، وسمعـــت تواعدهـــم علـــى اللقـــاء في المسجد ، للصلاة أو للعب أو المذاكرة أو القراءة فيما حوتـــه المكتبـــة مـــن كتـــب علميـــة وثقافية مفيدة ، وكل ذلك مقترن بأوقـــات الصـــلاة ، وتســـاءلت .. ليـــت المســـاجد كلـــها تتحول كذلك ، فقد يكفينا ذلك شر مـــا يوجـــه إلى الإســـلام مـــن شـــرور الإرهـــاب ، أو التعصب أو الطائفية .. إلى آخـــره .

كان مصطفى سعيدا وهـــو يســـير وســـط أولاده جميعـــا ، ويســـتمع إلى صـــوت مايســـه الجميـــل ، وكلماتها العربية التي تختلط أحيانا باليابانية ، وصفيه معـــهم ، بينمـــا ســـعيد ومـــنى ذهبا بعد الصلاة مباشرة إلى العمل ، ليكمل سعيد التماثيل المطلوبـــة منـــه ، وكـــانت والـــدة مصطفى قد أنهت صلاتها وتسبيحها ، فاصطحبها مصطفى معـــهم إلى الأتيليـــه ، فـــهي لم تـــره بعد أن اكتملت ديكوراته ، وكذلك مريم ومها وشـــريف ، فـــهو يشـــركهم في كـــل شـــيء ، حتى يكون لديهم إلمام واسع بالحيـــاة .

نظرت منى إلى سعيد بعد أن غادر مصطفى وأمه وزوجتـــه وأولاده الأتيليـــه ، وتعجبـــت .. كيف استطاع مصطفى أن يعمل هذا التوازن العجيب بـــين حبـــه لأولاده ، وحبـــه لزوجتـــه ؟ فأضاف ســـعيد :

- " وحبه لأمي ولي ولك أيضـــا .."

وتســـاءلت :

- " ماذا ... ولى أنا أيضـــا .. ؟ "

وقال ســعيد :

- " أجل .. ولك أنت أيضا .. أتعلمين .. لـــو أنـــي حـــاولت .. مجـــرد محاولـــة .. أن أعاملك بخشونة .. سترين ماذا سيفعل .. وستعلمين كم أنـــت عزيـــزة عنـــده .. فـــأنت أختـــه الآن ."

فقالت بشقاوة الأطفـــال :

- " نجـــرب .. "

ورد عليها بهـــدوء :

- " لا..لا .. هذا الحب الذي أكنه لك ، لا أريده أن يجـــرح .. ولـــو بـــالمزاح .."

وانزعجت منى ، فتساءلت باهتمـــام :

- " وكيف يجـــرح ..؟"

واكتسى وجه سعيد بالجدية ، وهو يلقي أولى محـــاضرات أســـلوب التعـــامل بينـــهما ، فقـــد وعي الدرس الكبير العملي الذي لقنه له أخـــوه مصطفـــى ، ومـــن قبـــل والـــده ووالدتـــه ، الاحترام قبل الحب والحب قبل الطعام ، والإيثار للأسرة والأهـــل قبـــل حـــب المـــال والجـــاه والسلطان ، والتسامح في التعامل مع الجميـــع ، يكســـب الإنســـان الحـــب والاحـــترام مـــن الجميـــع :

- " الحب يا منى .. كالمـــارد في قـــارورة مغلقـــة ، يتشـــوق للحريـــة ، وطالمـــا هـــو مســـجون .. فإن الأفكار الجميلة ، والمشاعر الجياشة عـــن الحريـــة الـــتي حـــرم منـــها ، تجعله دائما نشطا منتعشا وعندما ينطلـــق .."

وتساءلت منى بانزعـــاج :

- " ماذا يفعـــل .. ؟ "

فخفف سعيد من اللهجة التي أكسبها لصوته في بداية الحديـــث ، وقـــال ممازحـــا :

• " يمرح أولا ، يعب من رحيق الحرية ، ويطلق كـــل مـــا كـــان يكتمــه مـــن مشـــاعر ورومانسية .. ثـــــــم .. "

وسايرته منى في حديثـــه :

• " ثم مـــاذا .. ؟ "

وعاد سعيد إلى اللهجة الجادة مرة أخـــــرى :

• " يعربد ... يثير في الأرض الفســـــاد .."

وارتعدت فرائص منى وهي تـــردد :

• " يا ساتر يا رب .. مالك انقلبت بهذه السرعة ، لقـــد كنـــت شـــاعريا .. "

فقال بصوت الواعظ الحكيـــم :

• " نحن الآن مقدمان على بوتقـــة الصـــهر .. "

وشعرت منى وكأنه يقول ألغــــازا :

• " مـــاذا .. ؟ "

فأكمل سعيد دون أن يعير اســـتفهاماتها انتباهـــا :

• " نعم .. كل منا يجب أن ينصهر في الأخر .. حتى تتحـــد المشـــاعر ، والأحاســـيس ، والأذواق ، والأفكـــار ، فنصبـــح واحـــدا ، تدخلـــين إلى صـــدري ، فتكملـــي عـــدد أضلعـــي .. فلا نفكر إلا بعقل واحد ، ولا نشـــعر إلا بإحســـاس واحـــد ، ولا نحـــب إلا بقلب واحد ، أنت أنا ، وأنا أنت .. لتـــذوب الأنـــا وتصبـــح نحـــن ، فوداعـــا للانـــا .. ومرحبا بال نحـــن .. "

وهزت منى رأسها ، وكأنما هي تحاول تفسير هـــذه العبـــارات الفلســـفية :

• " ما هذه الفلسفة يا أستاذ ..؟ لقد أطحت من رأسي كـــل شـــئ .. ثم أنـــك لم تقـــدم لي ضمن مؤهلاتك هذه الشهادة العظيمة في الفلســـــفة .. الأنـــا .. وال نحـــن .. ! "

وبدأ سعيد يفسر لها مقالتــــه :

- " إنها ليست فلسفة .. ولكن يمكـــن أن تســـميها قـــانون الـــزواج .. أتدريـــن لمـــاذا تفشل الكثير من الزيجـــــات .. ؟ "

فبدأت مني في ملاعبته بالألفاظ ، مظهرة عدم اقتناعها بمــــا قـــال :

- " لماذا يا أيها الفيلســـــوف .. ؟ "

وأراد سعيد أن يطبق ما قاله عمليـــــا :

- " سأتجاوز عن هذه العبارة الآن .. لأنك ستكتشفين حـــالا مـــدى خطئـــها وكذلـــك مدى خطـــــــرها .. "

وأشعل غليونه ، واتكأ على الحـــائط ، وقـــال :

- " الأنانية .. هي الأنا التي تفصل دائما بين الأزواج ، كـــل لنفســـه فقـــط ، وبذلـــك يصبح عش الزوجية كالمثل القائل " إذا هد بيت أبيك ، خـــذ لـــك منـــه قالبـــا " يعـــنى الكل يقول ياللا نفسي .. هذا هو تفسير الأنـــا ، إذا أصـــاب الـــزوج مكـــروه ، تركتـــه وهربت سريعا إلى بيت أهلها ، وكأن ما يمـــر بـــه زوجـــها لا يعنيـــها ، بـــل وتحـــاول أن تثبت له خطأ أفكاره وتصرفاته التي أوصلتهم إلى ما هـــم فيـــه ، بـــل وتحـــاول أن تكـــون هي المسيطرة ، هي الرجل ، وتلغي شخصيته ، أما عن الحب ، فـــالحب عطـــاء ، فكيـــف يجتمع العطاء مع الأنانية ، والحب ذوبـــان نفـــس في نفـــس ، عـــبر عنـــها في القـــرآن الكريم ، بقوله سبحانه " هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهـــن " يعـــنى أنـــت أنـــا ، وأنـــا أنت ، فإذا ذهب الاحترام ، ذهب الحب ، ذلك أنك عندمـــا توجـــهين إلى إســـاءة مـــا ، أو كلمة جارحة ، فالحقيقة أنك توجهينها لنفسك ، لأنني أنت ، وأنت أنـــا ، وقـــد عـــبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله سبحانه " الطيبون للطيبات .." فلـــو أنـــني لســـت طيبـــا ، فلا بد وأن تكوني كذلك .. والعكس .. فسبابك لي .. هـــو ســـباب لنفســـك .."

وقهقه عاليا بحركة مفتعلة .. بينما وقفت هي مذهولة .. وهي تـــردد هـــذه العبـــارة .."

- " ما هذه الفلسفة .. ؟ وأين كان كـــل هـــذا .. ؟ "

فلم يعلق .. ولكنه أضـــاف :

- " الحب دائما محبوس بـــين الضلـــوع .. التعبـــير عنـــه بـــالنظرات .. بالهمســـات .. بالابتســـامات .. بالكلمات الرقيقة ، بالشـــاعرية الـــتي تعـــبر عـــن مكنـــون النفـــس بشيء من الرومانسية ، ولماذا نبعد ؟ هذا مصطفى أخي .. كيف كان تعبـــيره عـــن حبـــه لزوجته .. نظرة حانية ، تحمل كل مشاعر الحب والود .. احتضانـــه لهـــا كلمـــا ســـنحت الفرصة ، مؤكداً بذلك اهتمامه بها ، الاحترام المطلـــق بينـــهما ، يذيـــب كـــل خـــلاف ، ويطفئ أي بريق للتراع ، هذا طبعا إلى جانب أنـــه لمـــاح .. فـــهو يعـــرف مـــا يجـــول في خاطرها حتى قبل أن تفكر فيه ، وكذلك هـــي في كثـــير مـــن الأحيـــان .. وهـــذا هـــو الذوبان المطلق ، هو وهى واحد ، وليسا اثنـــين .. ولمـــاذا نذهـــب بعيـــداً .. مـــاذا لـــو اكتشفت مثلا أن لي ابنه من زواج سابق ..؟ هل كـــان مـــن الممكـــن أن تتقبلينـــها بمثـــل الحب الذي غمرت صفيه به مايسه ، لولا المايســـترو الـــذي ســـيطر علـــى المشـــاعر .. فأصبحت مشاعرها هي ذاتها مشـــاعره .. "

سعيد يتحدث .. ومنى تنصـــت .. وتتعجـــب ..

- " هل تعلمين أن شريفاً ليس ابنـــاً لمصطفـــى .. ولكنـــه ابـــن لصفيـــه مـــن زواج ســـابق .. ؟ وهل تعلمين أن مريم ومها .. ليستا ابنتي مصطفى مـــن صفيـــه .. ولكنـــهما ابنتاه من زواج سابق .. ؟ هل لاحظـــت أي تفرقـــه في المعاملـــة بينـــهم ؟ ســـواء مـــن مصطفى أو من صفيه ، هذا هو الحب الحقيقي ، ولقد كانت الأنـــا الـــتي كـــانت سميحـــة هانم القرنفلي زوجة مصطفى السابقة ترددها دائمـــاً ، هـــي ذاتهـــا الســـبب في اســـتحالة استمرار الحياة بينهما ، فكنا لا نسمع منـــها إلا كلمـــة أنـــا .. أنـــا بنـــت القرنفلـــي باشـــا .. أنا عائلتي أفضل من عائلتك ، أنا أبي مش عـــارف إيـــه .. وهكـــذا ، لا شـــئ سوى الأنـــا .. "

ومع آلاف علامات التعجب .. ومع منطقية ما ساقه لهـــا مـــن براهـــين ، والذهـــول الـــذي أصابها من أول يوم لها في مترل حبيب القلب ، لم تملك إلا التعبير بمزيـــد مـــن الإعجـــاب :

- " لم أكتشف أنـــك فيلســـوف إلا الآن ..!"

وأجاب سعيد وهو يعالج غليونـــه :

- "حسنا فعلت .. فكلما تكشفت لـــك مواهـــبي .."

فـــأكملت :

- " زاد حبي لك .. قيل لي إنك معتق في كليـــة العلـــوم .. فاكتشـــفت أنـــك تحضـــر للدكتوراه ، وقيل لي إنك فاشل ، فتبين أنك عـــالم ، وتعجبـــت مـــن تواجـــدك في كليـــة الفنون ، فتبين أنك فنان .. وأي فنـــــان .. والحمـــد لله .. والله أكـــبر .. "

ثم أضـــافت :

- " ما يحسد المال إلا أصحابـــه .. "

ونظر إليها بعينيه الضيقتين ، كحبتي فيروز في بحر مـــن الجمـــال .. وأمعـــن النظـــر فيـــها .. حتى كأنهـــا شعرت ببعض الرهبة .. فتراجعت قليـــلا .. وقـــال :

- " أمال بقى لو عرفـــتي أن رســـالة الدكتـــوراه في العـــلوم هـــي نفســـها رســـالة الدكتوراه في الفنون .. وأن مناقشة الرسالة ربما تكون خـــلال أيـــام .. بعدهـــا أحصـــل على دكتوراه في العلوم وأخرى في الفنـــون ، في آن واحـــد !! "

ولم تتمالك منى نفسها من المفاجآت السعيدة .. الـــتي يزفـــها إليـــها ســـعيد واحـــدة تلـــو الأخرى.. فانهارت على الكرسي بـــلا حـــراك ..

٩- نوم القيلولة

كم كانت سعادة سعيد عندما أفاقت منى من الاغماءة الخفيفة التي انتابتـــها ، وعــزى ذلــك إلى أن عقلها لم يستطع أن يستوعب كل ما ساقه لها من ثقافة وأخبار مفرحـــة ، أو لعلـــها تعـــانى من بعض الهبوط ولم تكتشف ذلك إلا بعد أن استعادت رشـدها ، فتعلقــت بـــه واحتضنتـــه ، وهي تردد عبارات الحب التي اختزنتها ، وهو مازال يدلك يديـــها ، ويربـــت علـــى خديـــها ، حتى يتأكد من أنها في كامل وعيها ، فقد انهار هو الآخر عندما وجدهـــا تســـقط علـــى الكرســـي بلا حراك ، وحاول أن يستجمع ما درسه مـــن علوم الإسعافات الأوليـــة ، وفنـــون رجـــال الكشافة التي يشرفه الانتماء إليهم ، لكن أين يجد أيا من ذلك عندما يحـــدق الخطـــر .

حمد الله ، واستشعر دفء حبها ، وسعادة ارتباطها به ، لكن اصفرار وجهـــها ، جعـــل الخـــوف يتســـرب إلى نفسه ، فأراد أن يحملها ويذهب بها سريعا إلى الفيلا علـــه يجـــد مـــن يســـتطيع أن يساعدها ، أو يطلب لها طبيبا ، لكنها طمأنته ، فلقـــد تـــأثرت بســـهرة الأمـــس وانفعالاتهـــا ، والاستيقاظ مبكرا ، والجهد منذ الصباح ، فنصحها بنوم القيلولـــة ، وســـارا ســـويا إلى داخـــل الفيلا ، فقابل صفيه ، التي قامت كما الطبيب بفحـــص النبـــض ، وتحســـس أمـــاكن معينـــة ، وعندما اطمأنت ، أمرت لها بكوب مـــن عصـــــير الليمـــون ، وصحبتـــها إلى غرفتـــها ، وأعطتها ملابس للنوم ، وأغلقت الغرفة بعد أن اطمـــأنت عليـــــها .

وبعد أن ارتاح بال سعيد ، اندفع إلى غرفته لينام نوم القيلولة ، فأوقفته صفيـــه ، واتجـــهت بـــه إلى الأتيليه ، حيث تم تجهيز غرفة خاصة له ، وشرحت له الأمـــر ، لكنـــه لم ينتظـــر لتكمـــل ، فألقى بجسده على السرير ، وأصدر الأنغام التي تعودوا عليها في البيـــت ، فانســـحبت صفيـــه بهدوء وهي تتمتـــم :

- " عافاك الله يا زوجي الحبيب ، لا نوم قيلولة ولا خلافة ، وقتك كلـــه للعمـــل ولنـــا ، أعطاك الله الصحة والصبر .. جيل آخر زمن ، ماذا سيفعلون بعـــد الـــزواج ؟ "

وتبينت أنها هي أيضا مرهقة ، فإن ما قاموا به منذ ليلة الأمس لم يكن عاديـــا ، حـــتى الوالـــدة ، دخلت غرفتها وربما تكون قد استغرقت في النوم ، فذهبت إلى غرفـــة الأولاد ، وتمـــددت إلى جوارهم ، وأخذها النوم في سبات عميـــق .

جـــابت زنوبه البيت تبحث عن أي متيقظ ، هناك ضيـــف في غرفـــة الاســـتقبال ، الأتيليـــه ليس به أحد ، وغرفة الست صفيه تنام بها الست منى ، وغرفـــة ســـي ســـعيد ، يرتـــاح فيـــها البروفيسور ناجاسيتو مع قراءاته ، أين الســـت صفيـــه ؟ فتحـــت غرفـــة الأولاد ، وجدتهـــا مسكينة قد تمددت إلى جوار مريم ، وقد ذهبت في نوم عميق ، تذكرت أن سي ســـعيد لابـــد لـــه من نوم القيلولة ، والرجل طلبه بالاسم ، وقد تم نقل غرفته . أســـــرعت إليـــه ، وأيقظتـــه ، لم يكن قد أخذ كفايته من النوم ، فأعادت عليه عبارة وجود رجل خواجـــة في الصـــالون عشـــرات المرات ، لكن هيهات أن يتنبه ، إن النوم عنده سلطان ، ونوم القيلولة شـــئ مقـــدس ، وهـــو لم يكتف بعد ، فعادت لتقدم للضيف واجب الضيافة ، وذهبت إلى الســـت مـــنى ، فوجدتهـــا قـــد نهضت ، فأخبرتها بأمر الضيف ، وأن السيد سعيدا لا يريد أن يســـتيقظ ، فذهبـــت ســـريعا مـــع زنوبه إليه ، وأيقظته ببعض الغلظة ، وتنبه لوجودها إلى جانبه ، لكنه أسلم نفســـه للنـــوم ثانيـــة ، وهو يقول :

- " أي ضيف ثقيل هذا الذي يحضر في مثل هـــذا الوقـــت!! "

فقالت بـــدلال :

- " إنها الخامسة ، والمغرب أذن .. ألا تصلى المغرب في المســـجد ، ثم إن موعـــد التســـليم قد حان ، هل سيأتي العملاء ليجدوك نائما ، والرجل في الصـــالون ، ينتظـــر ، وأنـــا الـــتي قدمت لأكون إلى جوارك .. هل تتركني وتنام .. أي حب هذا الـــذي تدعيـــه .."

فغاص في السرير ، وتمطى بصوت مسموع ، وتمتم بكلمـــات لا تســـمع إلا بصعوبـــة :

- " لكنى لا أستطيع أن أفعل شيئا دون أن آخذ حقي مـــن النـــوم ، ألا يكفـــى أنكـــم أيقظتموني مبكـــــرا ؟ "

لاعبته بالألفاظ وكأنما هي تتعامل مع طفل ، وليس مع عالم كبـــير وفنـــان مرمـــوق :

- " استقبل ضيفك .. ثم أكمل نـــوم القيلولـــة .. "

وصحبته بعد أن غسل وجهه سريعا ، فقـــد نـــام بملابـــس العمـــل ، وأســـرعت لـــترحب بـــالضيف ، وسألت عن صفيه أو أي من أهل البيت ، فقـــد اكتشـــفت أنهـــا وحيـــدة مـــع سعيد والضيف . أحضرت زنوبـــه عصيرا لمنى وسعيد ، بينما الضيـــف يتجـــاذب الحديـــث

عن اللوحات التي زينت بها الجدران ، وحانت من سعيد تصرفات تستحث الضيف على الإفصاح عن مطلبه ، فقدم إلى سعيد بطاقة العمل ، حيث قرأها سعيد بسرعة دون تركيز ، بينما بدأ الرجل كلامه ، فقال :

- " لقد جئت بشأن الاكتشاف .. "

وتساءل سعيد :

- " ماذا بشأنه .. ؟ "

وأكسب الرجل حديثه قدرا كبيرا من الجد ، وبدأ عرض الأمر مستخدما من العبارات ما قد يصعب فهمه ، لاختلاف اللغة على الأقل :

- " بعض الشركات عندنا ، تريد شراء حق الاستغلال .. أو لنقل إنها تود أن تكون وكيلة لكم بالسويد ، أو دعنا نقول .. إنها تود مشاركتكم بالنسبة التي تحددونها .. المهم أن يكون هناك تعاون بشكل ما بينهم وبينكم .. "

كانت منى قد ذهبت إلى الأتيليه لتعده لاستقبال الزبون ، وعندما عادت ، سمعت كلمات الضيف الأخيرة ، وقبل أن يرد سعيد ، أشارت بإصبعها إلى أعلى .. بما يفيد أن يترك هذه الأمور لمصطفى ، فهو ضليع في الأمور التجارية .. لكن هذا لا يمنع من التعرف على ما يعرضونه ، فقال الضيف :

- " الحقيقة أنه قد وردت إلينا في السفارة فاكسات من أكثر من شركة ، تريد التفاوض معكم بشأن استغلال لاكتشاف ، ومعرفة شروطكم .. "

ولما وجدت منى أن سعيدا تلكأ في الرد ، فهو لم يكن مستعدا لمثل هذه الأمور ، إضافة إلى أنه شعر بالفخر والزهو أن اسمه أصبح عالميا ، حيث نظر إلى منى بسعادة ، طالبا منها التدخل ، قالت منى :

- " يهمنا أن نعرف طبيعة المفاوضات ، وما هي شروط وإمكانيات التعاون ، والفائدة التي تعود على بلدنا بصفة عامة ، وعلينا بصفة شخصية .. "

وتعجب سعيد .. من أين لها بكل هذه المعلومات ، فهمست في أذنه بأنها كانت كثيرا ما تذهب مع أبيها إلى عمله ، وتعلمت فن التفاوض والسياسة من مجالسه ، واستعد الضيف للرد عليهما ، فقد تصور أنهم قد رتبوا لكل هذه الأمور :

- " لقد تركت لكم تلك الشركات كل هذه الأمور .. "

وأسقط في يد سعيد ومنى ، وتمنيا لو حضر مصطفى ، وانتظر كل منهما أن يتدخل الآخر بالحديث ، ثم مالت منى على سعيد وهمست :

- " إن المسألة تحتاج إلى وقت .. "

وأيد سعيد الفكرة ، فقال :

- " حقا .. إننا نحتاج إلى وقت للتفكير ، وحتى يحضر مصطفى .. "

وتأكد الرجل من أنهما ليسا على استعداد للإجابة الفورية .. فرجاهما إشعاره بالشروط في أسرع وقت ممكن ، وأعاد التأكيد على أرقام التليفون والفاكس بالبطاقة التي أعطاها لسعيد .

وتنهد سعيد وكذلك منى . وقبل أن يغادر الرجل الصالون ، تساءل بعربية ركيكة :

- " هذه اللوحات من أعمالك .. لقد قرأت توقيعك عليها .. "

ولما لاحظ إمارات الدهشة على وجهيهما .. أكمل :

- " صار لي أكثر من ثلاث سنوات بالقاهرة العظيمة ، والمثل عندكم يقول من عاشر القوم .."

وتساءل سعيد :

- " ولماذا الإنجليزية منذ البداية ..؟ "

وأجاب الرجل الدبلوماسي ، باعتباره موضوعا عاديا :

- " إنما المسئولية يا عزيزي ، لقد تم تسجيل الحديث الذي دار بيننا حتى لا يفوتني شئ منه ."

فقال سعيد ثـائراً :

- " أما كان يجب أن تأخذ موافقتنا قبل قيـامك بذلـك .. ؟ "

وشعر الرجل بالإحراج ، فقال معتـذراً :

- " إنها أمور عادية في الأعمال الرسمية .. ثم أنني تصورت أنكم قد تجهزتم بشروط واتفاقات من الصعب متابعتها أثناء الحديث ، ولا يمكنني كتابتها أثناء النقاش ، لكن .. إن كان ذلك قد أغضبكم ، فأنا على استعداد لمسح ما تم تسجيله .. "

ثم أردف :

- " هل تجيد الرسم .. ؟ "

وأجاب سعيد ببعض الفخر :

- " معظم أنواع الفنون تقريبا .. "

بينما تدخلت منى التي قامت بإعداد الأتيليه ، وشعرت بأن هناك احتمالاً أن يتحول هذا المفاوض العلمي إلى زبون فن ، فألحت على الرجل أن يذهب معهما إلى الأتيليه ليرى عظمة إنتاج خطيبها من لوحات وتماثيل ، واستجاب الرجل ، بينما سعيد يسير مصاحبا لهما ، وقد بدأ تثاؤبه يتتابع ، فأبدى الضيف اعتذاره لحضوره في وقت ربما كان غير مناسب ، مما جعل منى تلكز سعيداً بخفة ، أن يخفي بعض تثاقله ، ولم يستطع الرجل أن يخفي سعادته وهو يتفحص أعمال سعيد ، وتساءل إن كانت هذه حرفته ، فقد لاحظ أن الاستعدادات تؤكد ذلك ، وانتهزها فرصة ، وطلب عمل تمثال له ، ولم ينسَ أن يقدم بعض الاعتذارات ، وإن لم يكن في ذلك ما يزعج ، وأضاف الرجل بأنه سوف يحضر زوجته وابنته أيضا ، وتساءل عن الأتعاب ، ولما كانت منى مفاوضة جيدة ، فقد وجدتها فرصة للتعرف على الأتعاب المناسبة ، فسألته بذات الأسلوب الذي اتبعه معهما :

- " كم تعتقده مناسبا .. ؟ "

وأجاب الرجل بعفوية ، وهو يعاود الفحص مرة أخرى بتمعن أكثر ، وقال :

- " أعتقد أنه لو كان في أوربا ، فلن تقل الأتعاب عن عشرات الألـــوف ، وبعــد رحيـــل الفنان قد تصل إلى مئات ، وربما ملايـــــين .. "

فنظرت منى إلى سعيد ، الذي أغبطته هذه العبـــارات .. وأشـــعلت فيـــه الحمـــاس ، فنســـى التعب ، وأحضر دفتر الاسكتشات ، وبدأ يرسم الضيف ، وكأنما هو يريـــــد أن يثبـــت لـــه ، كم هو فنان موهوب، بتوع أوربا جنبه لا شئ ، واستوقفته عبارة بعد رحيلـــه تصـــل إلى مئـــات الآلاف وربما ملايين الجنيهات ، فنظر إلى منى التي كانت الدهشة قـــد باغتتـــها ثم قـــال :

- " لا تنعى همًا يا عزيزتي .. إذ أنه بعد رحيلي ستكونين أكـــــثر ثـــراء .. "

وشارك الرجل سعيدا الضحك .. بينما شعرت منى ببعض الحـــزن المفـــاجئ ، فـــهي تحبـــه ، وتتمنى الحياة معه ، لا رحيله .. وأحس سعيد بمشاعر منى ، فترك كل شــــئ ، وأمســـك بيدهـــا يعتصرها بحب صادق عميق ، يملأه الشجن ، فوجدت نفسها وقد ألقت برأســـها علـــى صـــدره وخرجت بعض العبرات بصوت هامس ، وتساقطت بعض الدموع ، فاحتضنـــــها ســـعيد وهـــو يهون عليها من مشاعرها القاتمة ، التي اجتاحتها في لحظة مـــــزاح عفـــوي ، لم يكـــن لاختيـــار الألفاظ فيها النصيب المناسب ، بينما شعر الضيف ببعض الحرج ، لما ســـببه لهمـــا مـــن شـــجن ، فأبدى بعض الاعتذارات والأسف ، مما نبه الحبيبـــان الغارقـــان في دمـــوع المحبـــة والشـــجن ، فكفكفت منى من أدمعها ، وأوصلها سعيد إلى أحد الكراســـي ، فقـــد خشـــــــي أن تصـــاب بدوار آخر ، وقال للضيـــــف :

- " اعذرنا عرسان جدد بقي بعد حـــب ســـنين .. "

فابتسم الضيف ، وتمنى لهما السعادة ، بينما أمسك سعيد بمعداتـــه ، وأكمـــل عملـــه ، حيـــث ظهرت علامات الانبهار على الرجل من دقة التعبير ، وحرر شيكا بمبلغ يزيـــد عمـــا يتقاضونـــه بقليل ، فنبهه سعيد إلى ذلك ، لكن الضيف أكد لسعيد أنه راض عمـــا حـــرر ، وأخـــذ ســـعيد الشيك ، شاكرا له رقته ، وحدد موعدا للاستلام ، نهضـــت مـــنى مســـرعة لتســـجيله ، فقـــال الضيف :

- " سوف تحضر معي زوجتي وابنتي ، وتكون شروطكم العلمية قـــد تم تحديدهـــا .. "

ثم تساءل عن مصطفى ، وأوصى سعيدا بإبلاغه تحياته ، وتصور سعيد أنه سؤال عابر عن أخيه شريك المؤتمر ، وقبل أن يصل سعيد والرجل إلى الباب الخارجي للفيلا ، قابلهم مصطفى ، فتوقفوا جميعا ، وقام سعيد بتقديم مصطفى للضيف ، إلا أن ذاكرته عجزت عن ذكر اسم الضيف ، ففوجئ بأن مصطفى ينادي الضيف باسمه مجردا ، بينما يبادله الضيف مشاعر الصداقة العميقة ، ترتب عليها عناق طويل ، وأصر مصطفى عليه بالعودة ، ومع كثرة انشغال مستر نرسنج ، ساق له من الأعذار ما جعله يكتفي بالحصول على وعد بالحضور هو والعائلة ، لقضاء يوم كامل معهم ، وأكد مستر نرسنج على ذلك بالتذكير بموعد استلام تمثاله ، إذ لابد من حضور العائلة ليصورها الفنان العبقري دكتور سعيد ، ثم تساءل :

- " ألم تتوصل بعد إلى معرفة مكان ابنتك .. ؟ أنت تعرف يا مصطفى أن جميع العاملين بسفارتنا لم يألوا جهدا في مساعدتنا لمعرفة مكانها .."

وتعجب أولف من أن مصطفى يجيبه ضاحكا :

- " بالطبع يا أولف ، فأنا أعرف كم هي معزة الصداقة التي جمعتنا ، لقد كان عيش وتمبورا ، على رأي المثل .. "

ثم أردف :

- " ستعجب يا أولف ، إنها معنا هنا .. "

فأظهر مستر نرسنج سعادته بذلك ، رغم ما شعر به مصطفى من أن هناك بعض الانزعاج الذي سيطر على نرسنج ، ذلك أنه يعرف مقدار الحزن والأسى الذين أصابا مصطفى نتيجة فقده لابنته ، مما كان له أكبر الأثر في تركه اليابان والعودة إلى مصر . وقدمت مايسه يتبعها أحد العمال وكل منهما يحمل صناديقا وأكياسا ، فأسرع عم محمد ليحمل عن مايسه ما معها ، بينما أرشدته هي إلى مكان وضع هذه الأحمال ، ومصطفى يوعز لمستر نرسنج أنها تتصرف على طبيعتها ، في بيتها منذ اللحظة الأولى ، ونشوة السعادة تكاد تكون إعلانا يسمعه جميع خلق الله . وقدم مصطفى مستر نرسنج إلى مايسه ، فأمعنت مايسه النظر فيه ثم صافحته بحرارة ، وهي تناديه باسمه الأول مسبوقا بكلمة " عم أولف "

ودهش الجميع من قوة ذاكرها ، ونظراً لأنها تصورت أنه قادم ، فقد أمسكت بيده ، ويد أبيها ، واتجهت إلى الداخل ، بينما سعيد يسبقهم للتجهيز لاستقبالهم ، لكن مستر نرسنج أبدى اعتذاراته مرة أخرى ، فقالت مايسه ببراءة ابنة الرابعة :

- " إنك تهرب يا أنكل ، خوفا من أن يهزمك أبي في الشطرنج ..؟ "

وقال الرجل وهو في شدة الدهشة من قوة ذاكرتها :

- " حتى هذه لم تنسها .. لكنني سأضيف إلى معلوماتك شيئاً هاما .. لقد تعلمت إجادة الشطرنج خلال السنوات الماضية ، وربما لن يحصد أبوك سوى .. "

وقبل أن يكمل .. قال مصطفى :

- " الماء يبين الغطاس .. "

وكان هذا التحدي كفيلاً بأن يعيد مستر نرسنج مرة أخرى إلى الفيلا ، وكان سعيد قد وصل إلى التراس ، حيث مني تتابع الأمور عن بعد ، وانتهزت منى الفرصة ، وأوحت إلى سعيد أن ينهي تمثال مستر نرسنج قبل انصرافه ، ولما أبدى سعيد تململاً واضحاً ، نظرت إليه منى نظرة تحدٍ ، وأشارت إلى مصطفى الذي نام متأخرا ، ربما بعد سعيد بمدة ، واستيقظ لصلاة الفجر ، وأنهى أمورا غاية في الأهمية تخص الأتيليه وتعريف كل منهم باختصاصاته ، ولم يرحمه سعيد الذي يعد للدكتوراه في الفنون ومصطفى يلقنه تاريخ كل عمل من الأعمال التي علقت لوحاتها سواء في الصالون ، أو في الأتيليه ، وذهب إلى عمله ، وخرج بعد صلاة العصر مع ابنته ، وهاهو في قمة نشاطه ولياقته ، يتحدى الضيف على لعب الشطرنج ، ولم ينم لا نوم القيلولة ، ولا حتى نوم العوافي .

وشعر سعيد بالخزي أمام كل ذلك ، فقد وعى الدرس جيدا ، كان زمان مصطفى ، لا يترك له فرصة للراحة والتكاسل ، وقد انضمت إليه منى الآن .. ومن هي منى .. ؟ لن ينسى كلمات التقريظ التي أفلتت منها عندما طلب التقدم لخطبتها في بداية علاقتهما ، وبعد أن كان قد وصلها عنه كل ما أرادت سميحه القرنفلي أن تشيعه عن هذه العائلة من افتراءات ، خاصة ما يتعلق بموضوع بقائه في كلية العلوم لمدة تزيد عن ثماني سنوات ، ولم تكن تعرف أنه يحضر للدكتوراه ، فقد جرى العرف على أن الدراسات العليا حكر على

المعيدين ، وهيئات التدريس ، وهو ليس معيدا ، فظنه الجميع بليدا ، وكالتـــها لـــه مـــنى بـــدون تحفظ ، رغم اعترافها بحبها له . فذهب إلى الأتيليه ، ومنى تتبعه ، وهـــو يقـــول لهـــا :

- " لا تذكري موضوع دكتوراه الفنون أمام أحد أفـــراد العائلـــة .. "

وتعجبت منى .. حيث تســـاءلت :

- " إنه مجال يفخر به كل من ينتسب إليكم .. فما بـــالك تتكـــره عليـــهم .. "

وأظهر بعض التردد وهو يقول لها الســـبب :

- " إنك لا تدرين ، إن أبي قبل وفاته ، أوصى وصية تخصـــني ، مـــن أهـــم شـــروطها أن أكون عالما ، ويا حبذا لو أمكنني التوصـــل إلى إعـــادة الأمجـــاد العربيـــة والإســـلامية في العلـــــوم .. "

ورغم علامات العجب التي صدرت عنـــها دون ســـيطرة منـــها ، تســـاءلت تســـاؤل إقـــرار بـــــالواقع :

- " ألهذا كان تصميم مصطفى على استكمال دراساتك العليـــا في العلـــوم .. ؟ "

فأظهر لها مدى حرص مصطفى على تنفيذ وصيـــة والـــده :

- " لقد كان مصطفى على استعداد أن يتحمل تكـــاليف دراســـتي بالخـــارج ، عندمـــا تعثرت دراسة الماجستير في الجامعة المصرية لأسباب خارجة عـــن إرادتي ، لـــولا أنـــه نجـــح في تسجيلي بالجامعة الأمريكيـــة في القـــاهرة .. "

ثم أردف :

- " أتدرين .. ؟ إن المعلومات التي قالها مصطفى عن اللوحـــات الفنيـــة الـــتي أحضرهـــا من أصدقائه ، أو اشتراها من المعارض الفنية ، فيها الكثـــير مـــن المغالطـــات ، وكنـــت أعرف ذلك ، لكني لا أملك إلا مسايرته ، فمقاطعته معناها أنني خـــالفت وصيـــة أبي ، ويـــا ويله ، يا سواد ليله ، من يتجرأ .. مجرد جرأة على مخالفة وصايا الموتـــى مـــن آل الخوجـــة الكرام رحمهم الله أجمعـــين .. "

فسارعت بمقاطعتـــه :

• " ماذا تقـول .. ؟ "

أشعل الغليون ، وأخذ يحك في شعيرات ذقنه بحركة لا إرادية ، ثم أخـذ يـهمس كمـا لـو كان يقـرر حقائق لا تقبل المناقشـة :

• " الحقيقة أنه لا توجد لوحة واحـدة أصليـة .. "

وكانت هذه الجملة التي تتعارض مع ما سبق أن وافق على مـا قـرره مصطفـى مـن قبـل دون اعتراض منه ، كفيلة بأن تحظى بتفسـير مقنـع :

• " كيـف .. ؟ "

وكانا قد وصلا إلى الأتيليه ، فقام بالتقليب في أوراق الغرفة التي أعدوهـا لنومـه ، وعـاد بكتالوج ، به جميع الأعمال الفنية المشهورة ، وتنقلها بين كل ممـن تملكـها .. والأسـعار الـتي دفعت في كل عملية بيع ، ومكانها الآن .. ومن هذا الكتالوج أو لنقل الموسـوعة ، يتـأكد أنـه لا تتواجد أعمال أصيلة في مصر إلا في المتاحف ، وقصور الملوك والأمـراء والباشـاوات الـتي تم مصادرتها ، ومنها لوحة واحدة عندهم ، قـام بشرائها مـن أحـد المـزادات عندمـا كـان صغيرا ، فقد استحوذت على إعجابه بشكل وجد نفسه يعرض كل ما يملك ثمنـا لهـا ، ونظـرا لأن المزادات كانت تقام في تلك الصالات من البائعين والموظفين بها ، عندمـا يلاحظـون رغبـة ملحة من أحد الزبائن في شراء أحد المعروضات ، ويتم البيع عندما يصل الثمـن إلى آخـر مـا يعرضه الزبون ، حيث يكتشف صورية المزاد لكن بعد فـوات الأوان ، ولا يسـتطيع الـتراجع عن الرقم الأخير الذي زايد به ، ولم يبيعوها له إلا عندما توقف عند مبلغ تبين لهم أنـه آخـر مـا يملك ، وعلقها في غرفته ، فقد كان ممنوعا تعليق صور تحمل ملامـح بشـرية في الفيـلا ، ولمـا اكتشف أصالتها ، وأن قيمتها اليوم تصل إلى مئات الآلاف ، قام بإخفائها بـين كـثر أعمالـه في الغرفة المهجورة بالحديقة ، ذلك أنها لو ظهرت فإما أن يتهم بسـرقتها ، أو أن يتـم الاسـتيلاء عليها لأي سبب من الأسباب ، أو أن يصل إليها لصوص التحف العـالميين ، وقـد يفقـد فيـها عمـره ..

ومع علامات الدهشة التي تابعت بها منى حديث سعيد وهي تعـد لـه مسـتلزمات العمـل ، وتحثه على الاستمرار بينما هو يتحدث ، أخرج سعيد تحفة فنية تحمـل ملامـح مسـتر نرسـنج

بوضوح يكاد يطابق الأصل ، لولا جمود المواد .. وعظمة الخـــالق ســبحانه وتعـالى ، الــتي لا يمكن لمخلوق مهما بلغت قدراته أن يجاريها ، وعرضها سـعيد لمروحـة حـتى يسـاعدها علـى الجفاف السريع ، وطلب من مى أن تنادى على عم نعيم ليحمـل التمثـال ، ويذهـب بـه إلى حيث مصطفى ومستر نرسنج يتباريان في لعب الشطرنج بعد أن تتأكد مـن جفافـه ، أي بعـد نصف ساعة تقريبا ، وظنته سيذهب للنوم ، لكنها فوجئـت بـه يتوضـأ ويسـتعد للصـلاة ، فأسرعت للوضوء هي الأخرى ، ووقفت خلفـه يؤمـها .

أسرعت مايسه تنادي خالها ناجاسيتو ، فقدمه مصطفى إلى مسـتر نرسـنج ، حيـث تفحـص كل منهما الآخر ، فتساءل مصطفـى :

- " لعلكما أصدقاء سـلفا . "

فقال ناجاسيتو باليابانيـة :

- " لم أعرف عنك ضعف الذاكرة يا سـيد مصطفـى !! "

بينما أكمل مستر نرسنج باليابانية أيضـا :

- " أو لعله نسى أن صداقتنا قد بدأت في بلدكم العظيم يـا بروفيسـور ناجاسـيتو .. "

وتشابك مصطفى ومستر نرسنج في لعب الشطرنج .. جيش ضـد جيـش ، وعقـل ينـاطح عقلا ، وأعاد مصطفى الترحيب بمستر نرسنج ، بينما اصطحبت مايسـه خالهـا إلى الحديقـة ، وقال مصطفى مستخدما لغة بلاد مسـتر نرسـنج :

- " أي ريح طيبة أهدتك إلينـا ؟ "

وأجابه نرسنج ، وقد استغرق تفكيره في اللعبـة التاليـة :

- " إنه العمل يا بروفيسور مصطفـى .. "

وهز مصطفى رأسه كما لو كان يؤكد أن رده هذا ليـس مفاجـأة لـه :

- " آه .. لقد صدق حدسي .. فقد خمنـت ذلـك .. "

وشعر نرسنج أن مصطفى قد آلمه أن يكون في مصر ولا يسأل عنه ، فساق له بعض المبررات :

- " الحقيقة أنني منذ أن قدمت إلى القاهرة ، وأنا أخطط لزيارتك .. لكن الظروف كانت دائما تعاكسني فأنت تعرف الأحداث التي مرت بها بلدنا ، من اغتيال لرئيس الوزراء .. إلى .. "

وقاطعه مصطفى :

- " ومتى قدمت إلى القاهرة ..؟ "

آه .. ألا يكفي ما يسببه له من جهد ذهني كبير في اللعب ، حتى يجهده في البحث عن كلمات مناسبة ردا على أسئلته المحرجة ، قال له :

- " منذ حوالي ثلاث سنوات .. يخيل إلى أنك لا تطالع وسائل الإعلام .. "

إنها مدة طويلة ، ولم يخطر على باله أن يتصل به ، سأل مقرظا :

- " أكان الخبر بها .. إذا مركزك مهم .. "

وقاطعه نرسنج ، حيث استطاع أن يفلت من حصاره له في اللعب ، فكان ذلك بادرة خير للرد عليه ببعض الشجاعة :

- " جدا .. أكثر مما تتصور .. "

وشعر مصطفى ببعض الخجل ، إنه يجالس شخصية مهمة جدا في الحكومة السويدية ، ولا بد وأن يلتمس له بعض العذر ، لا أن يتناوله بمثل هذا التوبيخ ، فقال مستفسرا :

- " سفير .. "

ورد نرسنج بما أثلج صدر مصطفى ، وفي نفس الوقت جعله يقف عند حده :

- " فوق العادة يا عزيزي .. "

وضحك الاثنان ، بينما دخلت منى ، يتبعها عم نعيم وقد حمل تمثال مستر نرسنج مغطى بالقماش ، ودخل سعيد بحركة استعراضية ، كأنما هو ساحر وليس فنانا ، وعزف بفمه لحنا

استعراضيا ، وطلب من مستر نرسنج رفع الستارة ، لتكشف عـــن تمثـــال لـــه ، صيـــغ بدقـــة عقدت ألسنة الجميع ، فاحتضن مصطفى أخاه للمرة الثانية ، معترفا بعبقريتـــه الفنيـــة ، بينمـــا تبادل نرسنج الحديث مع مصطفى بلغة بلده القريبة من الألمانية حيا فيها عبقريـــة ســـعيد وإنمائـــه لتمثاله في هذا الزمن القياسي ، وأكد على مصطفى وكذلك ســـعيد وخطيبتـــه ، أ لا يذكـــروا شيئا لناجا سيتو .. أو حتى مايسه .. عن السبب الحقيقي لزيارتـــه لهـــم ، فقـــط أنهـــا زيـــارة مجاملـــة ، وحسنا أن مايسه لم تشهد أول اللقاء بينهم ، ويكتفـــي بـــأن يذكـــر بـــأن الســـبب الحقيقي لحضوره هو التمثال ، وليبقى على هذه الحالة حتى عودة ناجاســـيتو ، ومايســـه .

وتعجب مصطفـــى :

- " هل تشك فيـــهما .. "

وبعد برهة قضاها في صمت ربما كان متعمدا ، مط شـــفتيه وقـــال :

- " عزيزي مصطفى .. إن الظروف التي مرت بها بلدنـــا ، تجعلـــني أشـــك في نفســـي .. ثـــم ألا تلاحظ أن شكل ناجاسيتو مختلف تماما عن الشكل الذي كنـــا نعرفـــه بـــه .. ؟ "

وعلق مصطفـــى :

- " ربما السن .. وربما لأنه حلق شاربه وذقنه .. ونحف جسده كثـــيرا .. إذ كيـــف لـــه أن يعرف بعلاقتنا إن لم يكن هو .. ثم إن مايسه تعرف كل شئ عن البيـــت ، وعـــن حياتهـــا السابقة معنا هنا ، وفى اليابـــان .. "

وهز مصطفى رأسه في أسى ، فقد أفسدت عليه ملاحظة نرسنج ســـعادته بلقـــاء ابنتـــه :

- " لا .. لا يا أولف .. لا تقل ذلك أرجوك .. إنها مايسه ، ما كـــان قلـــبي لينفتـــح لهـــا إن لم تكن هي ، والله إن ظروف بلدكم قد أثرت عليكـــم كثـــيرا .. "

ولم يرد أن يثقل عليه ، فوضع حدا للنقـــاش :

- " حسنا .. لك أن تعيش مع نواياك الطيبة كيفما تشاء مثلما هو بـــاقي أبنـــاء شـــعبكم الطيب ، أما أنا فيهمني جدا أن يظل ذلك الموضوع سرا .. فنحـــن لا نحتمـــل مزيـــدا مـــن

القلاقل ، لذلك أرجوكم أن تحددوا شروطكم أثناء زيارتي العائلية لكم ، باكر إن شاء الله .. "

وتعجب مصطفى :

- " أية شروط .. ؟ "

وتدارك نرسنج أن سعيدا ومنى هما اللذان ناقشا معه هذا الأمر ، وأنه لم تتح لهما الفرصة بعد لإبلاغ مصطفى ، وعندما لاحظ أن كلامه بالسويدية قد أثار استياء سعيد ومنى اللذين كانا لا يزالان واقفين فطلب نرسنج منهما الجلوس ، وأعاد ما سبق قوله لمصطفى مستخدما اللغة العربية .

واستمهله مصطفى بدعوى أن الوقت لم يحن بعد ، فثار نرسنج متسائلا عن الوقت الذي يراه مناسبا ، وطلب منه أن يطالع الجرائد والمجلات العالمية ، أو حتى يشاهد محطات التليفزيون العالمية التي ليس لها إلا الحديث عن الاكتشاف ، منذ الإعلان عنه في ذلك المؤتمر ، وأكد له أن زيارة ناجاسيتو غالبا ليست لإحضار ابنته ، فقد كان أمامه ستة عشر عاما ليقوم بهذا العمل الإنساني النبيل ، إنما هذه الزيارة لابد وأن لها علاقة بالاكتشاف ، فلا يجب أن ننسى كم هي اليابان في حاجة إلى استنبات هذه الأشجار لديهم ، نظرا لأن المساحة الزراعية لديهم محدودة ، وتكلفة تربية المواشي مرتفعة ، وهم شعب يقدرون الأهمية الكبيرة للوقت والتكلفة ، وهذا ما جعلهم في هذه الدرجة العالية من التقدم العلمي والاقتصادي ، خلال تلك الفترة القصيرة من عمر الشعوب ، وعن له أن يذكره بحالة اليابان بعد استسلامهم في الحرب العالمية الثانية :

- " فلا تنسى أن اليابان خرجت من الحرب العالمية الثانية معدمة تقريبا ، وهم يعتمدون كثيرا على استيراد اللحوم ، و سوف ترى مندوب الهند بأسرع مما تتصور ، فإن هذا الاكتشاف يحقق للهند توفير البروتين الحيواني من النباتات ، وليس من البقر الذي يقدسونه ، أما عن الصين فيكفي تعداد سكانها الذي يتضاعف عاما بعد عام ، لكي يتأكد لك مدى أهمية هذا الاكتشاف لهم فيما يسمونه بالأمن الغذائي .. "

وظل يسرد له مقدار حاجة الدول إلى هذا الاكتشاف ، ثم طلب من مصطفى الاهتمام بالأمر ، فإن كانت هناك نية لاستثمار هذا الاكتشاف خارج حدود مصر ، فإن بلاده ستعتبره شرفا عظيما أن تكون من أوائل الدول التي تتعاون معهم في استغلال هذا الكشف بما يرونه مناسبا من شروط ..

فشرح مصطفى له السبب المباشر في إرجاء التفكير في هذه الأمور ، ذلك أنه لم يتم بعد التأكد من صلاحيته للاستخدام الآدمي ، ثم أنهم لم يستطيعوا أن يستنبتوا سوى شجيرة واحدة ، والأبحاث جارية لاستنبات المزيد ، ومعالجة كل المشاكل التي قد تظهر في أعمال الزراعة والتسميد .. ثم عرج مصطفى بسرعة على موضوع آخر ، حتى يغير من النبرة الحادة التي نحاها الحديث :

- " أنسيتني أن أقوم معك بواجبات الضيافة ، ماذا تشرب يا سيد نرسنج .. ؟ "

ثم سارع مصطفى مقترحا:

- " آه .. ما رأيك في المغات .. أنا على يقين من أنك لم تتذوقه من قبل .. "

وأخذ مصطفى يشرح لمستر نرسنج ما هو المغات ، وكيفية صناعته ، وأهميته الطبية والغذائية ، بينما هو يحصد قطع الشطرنج الخاصة به واحدة تلو الأخرى ، ومنى تخشى أن يكلفها مصطفى بعمل المغات فهي لا تعرف أي شئ عن المطبخ في بيتهم سوى مكانه ، والأمر أكثر تعقيدا بدون شك في بيت سعيد لكن مصطفى أنقذها بأن أعلن لمستر نرسنج أن أفضل الأخصائيين في صنع المغات موجودون لحسن حظه في ذلك البيت ، زوجته ، بعد والدته طبعا ، فهي التي علمتها .

وكان مصطفى قد وصل إلى الملك في جيش مستر نرسنج ، بينما كانت مايسه وخالها قد عادا من الحديقة ، وقد اتسخت ملابسهما وأيديهما ، فقد انهمكا في مزيد من استزراع تلك الأحجار ، وغمز نرسنج لمصطفى بما يفيد أن اليابانيين لا يضيعون الوقت ، وشعر مصطفى ببعض الانقباض خشية أن تكون تلك الفاتنة التي تحمل ملامحه ، وجمال والدته ، وطيبة المصريين ، وبراءة زوجته ماي سيتو ، ليست ابنته ، وأن الأمر كله خطة ذكية وضعها هؤلاء القوم للاستحواذ على هذا الاكتشاف ، عندها سيثبت للعالم ، كم هو غبي .. واستأذن

مستر نرسنج في الانصراف ، وودع ناجاسيتو الذي كان يهم بالانصراف لتنظيف نفسه ، بينما مايسه التي كانت قد عادت بعد الاغتسال ، سارت مع الركب لوداع مستر نرسنج حتى الباب الخارجي للفيلا ، وعم نعيم خلفهم بالتمثال ، وما إن هموا بالعودة حتى توقفت سيارة فخمة جدا ، تتقازم أمامها سيارة السفارة اليابانية ، وكذلك سيارة السفارة السويدية ، ووقف الجميع بانبهار يتابعون السائق وهو يفتح الباب للرجل السكران الذي كان بالملهى ليلة الأمس وخلفه زوجته ، فنظر مصطفى في سلعته ، فقال الرجل :

- " إنها السادسة تماما يا سيد مصطفى أي شرف هذا الذي عرفنا ببروفيسيرات القرن العشرين ، يالها من مصادفة لا يمكن تصورها إلا في الأفلام ، سهرة لاهية ساكرة ، تعرفنا على أعظم مكتشفي هذا الزمان ، ويا للشرف .. أننا أصبحنا أصدقاء .."

ورحب بهما مصطفى وسعيد وكذلك مني ومايسه ، حيث احتضنتهما السيدة ، وهي تمتدح فيهما الجمال والرقة ، ولم تنس أن تكيل لمايسه مزيدا من المديح ، مضيفة أن عريسها عندها ، ابنها اسم الله عليه .. وأخذت تصف وتزيد وتعيد في ابنها ، وشطارته ، وتفوقه في دراسته .. فأبدى مصطفى بعضا من عدم ارتياحه ، فسيارة كهذه في رأيه أنها أكبر بكثير من أن يمتلكها رجل شريف ، ولاحظ الرجل هذه الريبة ، خاصة وأن طريقة زوجته في الإعراب عن جمال مايسه ، شابها بعض السوقية في التعبير فأخرج بطاقتي عمل ، وأعطى لكل من مصطفى وسعيد واحدة ، ثم قدم نفسه بتواضع جم :

- " عبد السلام الشنواني .. دكتوراه في الفنون من إيطاليا وفرنسا ، وزوجتي ساميه هانم البرعي ، بنت حامد باشا البرعي .. "

ورحب بهما مصطفى أيما ترحيب ، وكذلك فعل سعيد وباقي أفراد العائلة ، حيث انضمت إليهم صفيه بناء على استدعاء مصطفى لها ، ودارت أحاديث متفرقة ، عن الفن ، والعلم ، والاكتشاف ، وذهب سعيد ، فأحضر تمثالي الرجل وزوجته ، وكم كانت سعادة الرجل بفن سعيد ، حيث عرض عليه التعاون معه في كل شئ ، كما أبدى استعداده لإقامة معرض خاص بأعماله .. وعرض عليه مشاركته في أتيليه خاص به ، فأراد سعيد أن يظهر له مدى رسوخه في الفن ، فاصطحبهما إلى الأتيليه ، وكم كان إعجاب الرجل به ،

لدرجة أنه اقترح عليه إقامة معرض فيه ، كما أبدى استعداده لأن يعرض لوحات سعيد وتماثيله بمعارضه بالقاهرة والإسكندرية ، حتى يكون له الانتشار الذي يساعد في نجاحه .

وعادوا جميعا إلى الصالون ، حيث قدمت المشروبات ، وحرر الرجل شيكا لسعيد بمبلغ أكبر مما كان متفقا عليه ، وهو يقول :

- " لقد كنت صادقا عندما قلت إن مال الدنيا يقل كثيرا عن ثمن تماثيلك ، والله إنك لتستحق أكثر من ذلك بكثير .. "

ثم أطرق الرجل برهة ، وهو يحاول أن يتذكر :

- " سيد سعيد .. سعيد الخوجه .. أليس هذا هو اسمك كاملا .. ؟ هل لك دراسات علمية في الفن .. ؟ آه تذكرت .. لعلك لا تعرف أنني أحد الذين انتدبتهم الجامعة من الخبراء والمختصين في الفنون لمناقشة رسالتك عن الاستخدام الكيميائي لتحديد أعمار الأعمال الفنية ، ومدى حقيقتها من زيفها ، لقد قرأتها .. إنك حقا عبقري فما أحوجنا نحن محترفي الفن إلى وسيلة علمية تحقق لنا الأعمال الفنية حتى لا نقع فريسة للنصابين .. "

وكانت مفاجأة لمصطفى أن يكتشف أن أخيه ليس فنانا بالفطرة فقط ، وإنما هو دارس للفن ، متعمق فيه ، وله دراسات عليا وصلت للدكتوراه ، فنظر إليه لائما ، فطأطأ سعيد رأسه خجلا من أخيه ، بينما علق مصطفى على عبقرية أخيه بما أثلج فؤاده ، وابتسامة العتاب الممزوج بالسعادة تكاد تفضح ما يحمله مصطفى لأخيه من فرحة ذهبت بكل ما كان يتصوره مصطفى بلادة من أخيه لبطئه في إنهائه لدراسات الماجستير والدكتوراه في العلوم ، ولمح منى وهى تنظر إلى سعيد ، وقد ملأت وجهها البشاشة ، وكأنها تود أن تقول له أن ما كنت تخشاه قد تم فضحه على أيدي خبير الفنون الذي كانوا يظنونه سكيرا من أرباب النعم التي بدأت تظهر في مجتمعنا كالطفيليات تمتص عرق الناس ، وتذهب بأرواحهم ، وسمع نداء الحق لصلاة العشاء ، فأعلن مصطفى عن الصلاة ، وتعجب الدكتور عبد السلام من أنهم يصلون رغم أن لقاءهم كان في ذلك الملهى ، وعلق مصطفى على ذلك بأنهم لا يشربون الخمر ، وأن المتع البريئة قد تفرض على الإنسان بعض الأمور

التي يحرمها الدين ، لكن أين هو الملهى الذي يقدم تلك المتع بدون خمور أو رقص ، وأعلن الرجل :

- " صدقت ، إنني على وضوء .. هيا بنا .. "

ولما كانت زوجته ليست على وضوء ، وفي حاجة إلى ملابس مناسبة للصلاة ، فقد اصطحبتها صفيه كي تستعد للصلاة ، بينما انتظروهما حتى حضرتا ، وذهب الركب بعد انضمام والدة مصطفى إليهم وكذلك الأولاد .

١٠ - تشهير

قرر شكري بك زيارة عائلة سعيد في الفيلا الخاصة بهم ، فبغض النظر عن كل المشاعر الطيبة والأفكار الرومانسية وحسن النوايا والمؤتمر والنجاح العلمي والفني .. لكن لابد من التعرف على جميع الجوانب الأخرى التي تكمل شخصية العريس أولا .. ومن ثم عائلته ، ولا أفضل من زيارة للبيت ، فقد تكشف أسلوب التعامل بين أفراد الأسرة ، وتعاملهم مع الغير ، على الأقل أولئك الذين تربطهم بهم صلات مباشرة ، وأقربهم الخدم إن وجدوا ، ثم إنهم يريدون أن يتعرفوا على شخصية سعيد عن قرب ، والتعرف على ما فعلته ابنتهم مع تلك الأسرة لمدة يوم كامل ، هي بعيدة عنهم ، مع عريس لم يتم التعرف عليه إلا أمس ، وعائلة لم تربطهم بها مودة إلا أمس . وتجمعت العائلتان في الصالون ، فانتهزها أحمد وحاول أن ينفرد بمصطفى على أمل أن يحفزه حتى يمكنه الحصول منه على أكبر قدر ممكن من المعلومات ، فبدأه بالاتهام :

- " مصطفى بك .. أنت لغز كبير .. "

وشد ذلك انتباه مصطفى ، الذي أدرك ما يرمي أحمد إليه فقال بهدوء :

- " حياتي الشخصية أو العائلية ليست للنشر ، فأرجو عدم الإحراج .. "

وشعر أحمد بالإحباط ، ولاحظ شكري بك ذلك بطرف عينيه التي لا يغيب عنها شئ رغم ضعف بصره ، والنظارة السميكة التي تغطي وجهه ، فقال بدبلوماسية :

- " مصطفى يا ابني ، أنت تعلم جيدا أننا كصحفيين ، يهمنا أن نقدم الخبر مقرونا بما يحويه من معلومات يستفيد منها القارئ ، فيكون له منها العبر ، أو نقدم له القدوة التي غابت عن الكثيرين ، فلم تقدم لهم إلا شخصيات الجريمة والفهلوة ، لذلك تلاحظ أن اهتمام القراء بالحياة الشخصية للنجوم والمشهورين ، ربما يفوق اهتمامهم بأعمالهم ، وعلى وجه الخصوص غير المتخصصين من القراء ، وهم يمثلون الغالبية العظمى من القراء .. "

وحاول مصطفى مقاطعته ، موضحا أن حياتــه العائليــة والشــخصية ، لا يجــب أن تمــس ، وشرح لــه شكري بك أن ما سيتم نشره لن يتعرض للحيـــاة العائليــة إلا بكــل الخــير ، ثم أضـــاف :

- " لكن المهم هو أن نعــرض للشــباب قصــة كفــاح رجــل يحمــل الماجســتير أو الدكتوراه ، أو أيا كانت الشــهادات العلميــة ، لم ينتظــر أن يحصــل عليــها بــالدعم الحكومي الذي أدى إلي استفادة البعض علــى حســاب الكــل ، والكثــير مــن هــؤلاء البعض ينتظرون الدعم الحكومي لحياقم حتى بعد التخــرج ، ليــس هــذا فقــط ، بــل يريدونه لرفاهيتهم وقد يكون ذلك بأساليب غير مشروعة ، بينمــا هنــاك مــن لا ينتظــر تحميل الدولة بتكاليف دراسته ، ولا حتى بعد التخــرج ، بــل ينفــق علــى أبحاثــه مــن عمله الخاص الذي يقدم به جــهده وخدماتــه للنــاس بمقــابل مناســب ، بالإضافــة إلى المهارة في العمــل ، والدقة في المواعيد ، ويصل بأبحاثه إلي نتــائج مشــرفة لــه وللبلــد ، إنها يا مصطفى يا ابني ، قصة كفاح حقيقيــة ، تحتــاج إلى مجلــدات ، نريــد أن نعرضــها على الشباب لتكون لهم القدوة الحسنة التي نتمناها لهم ، بعــد أن غــابت تلــك القــدوة عن شبابنا ، وبغيابها .. ضاع شبابنا ، وإذا ضاع الشــباب ، ضــاعت البلــد .. "

وعلق مصطفــى :

- " عزيزي شكري بك ، مع كــل الاحــترام ، فــإن التعــامل مــع الصحافــة شــئ مرعــب ، لأنها بصراحة وبدون زعل ، عملــة ذات وجــهين .. "

وزاده شكري بــك :

- " بل قل حية ذات مائة نــاب .. "

وتمسك بكلمته ، فســارع :

- " قلتها يا شكري بك ، فما أراه هذه الأيام من تطاول علـــى عظمــاء شــهرت بهــم الصحافة ، فأسقطت مـــن كـــان في بـــرج عـــال ، وأدت إلى انتحــار مــن اختشــى ، وسفهت من كان احترامهم فوق القانون في بعــض الأحيــان ، لا ... لا يــا شــكري بك .. لن أكون هذه الضحية التي تلوكها الألسن ، يكفينا مــا نحــن فيــه .. "

وسارع شكري بك محاولا إزالة الشكوك عـــن نفســـه :

- " لكن لا تنس يا مصطفى يا ابني أننا أصبحنا أهلا ، ومـــهما كـــانت الأمـــور ، فلـــن تصل لا للتشهير ولا التســـفيه .. "

وقاطعه أحمد ، رغم علمه بما ســـيقوله مصطفـــى :

- " مع احترامي لشكري بك ، الوالد قبل الرئيس ، فلعلك يـــا مصطفـــى بـــك لم تقـــرأ تعليقات صحف اليوم على أسئلة السيدات ، وعلى وجه الخصوص مـــا لاكتـــه المجـــلات النســـائية .. "

وتساءل مصطفى مغاضبـــا :

- " مـــاذا ..؟ "

واسترسل أحمـــد :

- " لقد عقدت مجموعة من الصحفيات مؤتمـــرا آخـــر عقـــب مؤتمركـــم ، للســـيدات اللاتي هاجمنك ، واللاتي قللت من شأنهن بعبـــارتك الـــتي لم أنســـها ، أنـــه تـــار بـــايت ، وأفرغن ما لديهن بالإضافة إلى ما أملاه عليـــهن خيـــالهن مـــن تشـــهير بـــك ، وتمـــادت الصحفيات باستكمال الأحداث من زوجتـــك الســـابقة .. "

وأمسك أحمد بمجموعة من الصحف ، وأخذ يلوح بها عينيه ، ممـــا أثـــار فضـــول مصطفـــى ، فاستسمحه مصطفى بالإطلاع عليها ، حيث بدأ يقـــرأ مـــا كتـــب خاصـــا بهـــذا الموضـــوع ، بينما أحمد يشير إليه بالمهم منها ، حيث سبق أن أحاطه بدوائر حمـــراء حـــتى يســـهل الوصـــول إليـــها .

وقال شكري بك هامســـا :

- " أظن يا مصطفى يا ابني ، أحمد كان عنـــده حـــق .. "

وكان مصطفى منهمكا في القراءة ، وقد بدأ وجهـــه ينقبـــض ويعلـــوه الغضـــب ، ويحمـــر خجلا ، ويشعر بالاشمئزاز والقرف من سوء ما يقرأ ، ولاحظـــت والدتـــه تلـــك العلامـــات ، فهي تعرف معناهـــا جيدا ، فحاولت التدخل عساها بذلك تخفف مـــن حـــدة غضبـــه :

- " فيه إيه يا مصطفى يا ابـــني ؟ "

وعلق مصطفى بصوت يرتجف من الغضـــب والعصبيـــة :

- " بنت القرنفلي باشا يا مامــــا .. ! "

وقالت الأم الطيبة ، بكل ما تحمله مـــن صفـــات ســـيدات جيلـــها ، مـــن أخـــلاق وطيبـــة وتديـــن ، وحرص على ولدها وحبها لــــه :

- " الله يسامحها يا ابـــني .. "

واستطرد مصطفى وقد أعماه غضبه ، وســـد أذنيـــه :

- " لكن ده تشهير يا أمي .. تشهير يعاقب عليـــه القـــانون .. "

واشترك الجميع في التهدئة من ثائرته ، وشعر أحمد بأن ما ظنـــه ســـبقا صحفيـــا ، انقلـــب إلى قضية أخلاقية سيخرج منها هو صفر اليدين ، وإن فاز ، فسيكون علـــى حســـاب سمعـــة هـــذه العائلة ، وهذا ما لا يرضاه ، بينما شكري بـــك بحاســـة الصحفـــي العتيـــد ، يراقـــب كـــل شـــئ ، كل الوجوه ، كل الأفعال وردود الأفعال ، قال بتأن وتـــؤدة ، وهـــو يضغـــط علـــى كل حـــرف :

- " هناك أمور كثيرة تحكم تصرفاتنـــا ، أولا أن القضـــاء باعـــه طويـــل ، والمحـــامين في أحسن الأحوال يحاولون المماطلة والتطويـــل لســـببين ، أولهمـــا أن التطويـــل يزيـــد مـــن الأتعاب ، وثانيهما أنه خلال فترة التطويـــل إن لم يتـــول القـــدر حـــل القضيـــة بمـــوت المتخاصمين جميعا ، فعلى الأقل واحد منهم سوف يتـــوفى مـــن الفرســـة .. "

وقبل أن يكمل استغرق البعض في الضحك ، بينما مصطفى يســـتحثه أن يكمـــل ثانيـــا :

- " ثانيا يا مصطفى يا ابني ، إن لها ابنتـــين منـــك ، عنـــدك في بيتـــك ، ولا تتصـــور أن دخولكم في أمور قضائية سوف يسعدها ، فلا بـــد لهـــا أن تحـــرك ابنتيـــها ضـــدك ، إن لم يكن انتقاما منك ، فتعاطفا من البنتين معها ، وفي كلتا الحـــالتين أنـــت الخاســـر ، فحـــق لو فرضنا أن الحكم كان لصالحك ، فهل ستوافق علـــى أن تســـجن زوجتـــك الســـابقة ، أم ابنتيـــك .. ؟ "

فقال مصطفى بعد أن هدأ ، وبدأ يفكــر بعقلــه :

- " لكنها تفضحني ، إنها تقول ما من شأنه التأثـير علـى مسـتقبلي وعملـي ، وعلـى بناتي ، منها ومن غيرها ، ثم ما ذنب صفيـه هـائم في هـذا الأمـر ، وابنـها شـريف ، وأنت تعرف عائلتها ، وما قد يكون لهذه الأمور من عنتريات قـد يثيرهـا شـباب هـذه العائلة ، أو ما قد يتحملوه من إهانات أهالي سـوهاج كلـهم .. "

وقبل أن يكمل ، استأذنته صفيه ، فسـكت ، فقـالت :

- " إن ما يخصني أمره هين ، وقد قلتها مـرارا ومامـا تشـهد علـى ذلـك ، إن مـن ترتبط بك ، أقصد بهذه العائلة عموما ، فإن طلاقها حتى ولو كـان بنـاء علـى رغبتـها ، يعتبر خسارة كبيرة جدا ، وأنا في الحقيقة أعذرها في كل ما تقولـه ، وكـل مـا تفعلـه ، ولعلك تذكر حالة التمرد التي كانت تواجهني بها مريم ومها بعـد كـل زيـارة ، وكنـت دائما أعذرهما ، والتمس لها هي الأخرى العذر ، فلا تبتئـس ، وعـائلتي عندمـا سـتقرأ هذا الكلام ، سوف يضحكون من قلوبهم لأنهم يعلمـون أنهـا تقـول كلامـا مغلوطـا ، هم يعرفون حقيقته أكثر من أي إنسـان آخـر .. "

أنهت كلامها بأن ذكرت محاسـن مصطفـى وصفاتـه الحميـدة ، ومحاسـن العائلـة كلـها وصفاتهم الحميدة ، وعددت بعض الأمور التي لا يمكـن أن تصـدر إلا عـن أصـل كـريم ، ونبل عريـق .

وأخذت مني الحديث ، فأضافت ما مرت به في تجربتها مـع سـعيد ، وكـم كـان شـهما كريما عطوفـا ودودا عفيفا ، وهذه صفات قلمـا توجـد في هـذا الزمـان ، ومـا كـانت لترضى بغيره ، حتى ولو كان دون جوان ، أو حتى انشـتاين زمانـه .

وضج الجميع في ضحك من الأعماق ، ربما ليـهونوا علـى مصطفـى ، وزاد شـكري بـك من جرعـة التعاطف والتشجيع ، فقال برقة لم يعهدها فيه أحد مـن أفـراد عائلتـه ، وعلـى وجه الخصوص أحمـد :

- " الحقيقة أنني لم أقرأ سوى قصة كفاح عملاقـة ، وشـهامة فـاقت كـل الحـدود ، حاولت أقلام رخيصة أن تشوهها ، وهكذا نحـن ، عندمـا يعلـو شـأن واحـد منـا ،

شرعنا عليه السكاكين والنبال ، نشرحه ونقلل من شأنه ، ولا نعرف قيمته إلا إذا غادرنا ، إما بالوفاة ، أو إلى إحدى الدول التي لا تعرف للإنسان قيمة إلا بعمله ، وبما يقدمه للبشرية ، ويتناسون ما قد يكون متعلقا بنشأته أو بيئته أو أصله .. بل على النقيض من ذلك ، فإن من يرتفع شأنه عندهم ، ويكون من أسرة متوسطة الحال أو معدمة ، فإن ذلك يعد وسام فخر يعلق على جبينه ، أما أمور الزواج والطلاق والأولاد ، فهي عادية جدا هناك ، لأن القاعدة العامة ، قول المسيح عليه السلام " من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر " والقصة معروفة للجميع ولا تحتاج لشرح .. "

وانتهز أحمد الفرصة ، وهو يجد دافعا جديدا يؤدي بمصطفى إلى الكيل لهذه المغرورة التي أرادت أن تنال منه ، فقال بحماس :

- " لذلك ، أنا أعتقد أنه إذا تمكنا من إظهار الصورة البراقة لمصطفى بك وعائلته ، ونركز على الإنجازات بتصرف يجعل كل ما قيل مجرد فقاعات هواء حالما تنقشع ، يبقى كده بنقلب الترابيزة عليهم ، ونجعل الصحفيات اللاتي وجهن الهجوم على مصطفى بك وعائلته ، يشعرن بالخزي وقلة الخبرة الصحفية ، حيث كان من الواجب الاستماع لكلا الطرفين ، وليس عرض وجهة نظر طرف واحد .. "

وقاطعه شكري بك مفاكها :

- " ترابيزة إيه يا أفندي .. هو إحنا .. "

وانهمك الجميع في قهقهة عالية ، علها تخرج مصطفى من غضبه ، وفعلا نجحت حيث علا وجهه الابتسام ، ثم أطرق برهة ، وقال :

- " أعتقد أنكم على حق .. "

والتقطها شكري بك :

- " يبقى نرد بقدر ما ورد في هذه الأقوال من تجريح ، وبهدوء "

وأكمل مصطفى :

- " الحقائق .. الحقائق فقـــط .. "

وعلق أحمـد :

- " وإن زادوا زدنــا .. "

فقال مصطفــى :

- " اتفضلوا اسألوا ، وأنا سأجيب ، لكن اسمحوا لي بـــالإطلاع علــى الموضــوع قبــل نشـــره .. "

وقال شكري بــك :

- " أنا شايف أننا نحكي ما رأيناه هنا من سعادة وهنــاء عــائلي ، وفي ذلــك رد صريــح على التجريح الذي ورد في الجرائد والمجلات ، ثم نسرد قصـــة الكفــاح ، بعدهــا قصــة النجاح .. وأعتقد أننا بذلك نكون قد قدمنا وجبة دسمة كفيلـــة بــأن تلكــم كــل مــن سولت له نفسه التطاول على الشـــرفاء .. "

وانتهزها مصطفى فرصة ، فقـــال :

- " على ذكر الوجبة الدسمة .. إيه رأيكم نبدأ التحقيـــق بعــد العشــاء .. "

وقبل أن يحاول أحد الاعتذار ، ولو على سبيل التمنع ، كان مصطفــى يــأخذ بيــد شــكري بك ليجلسه على رأس الطاولة ، وسط عجب عائلته ، فـــهذا المكــان كــان لوالــده ، ثم لــه من بعده ، لكن مصطفى كان يريد لعائلته أن تكون حوله ، ولا يتــم ذلــك إلا بــأن يتوســط الطاولة ، ومها وشريف على رجليه كالعادة ، ومريم عن يمينه ثم والدتــه ، أمــا مايســه فقــد عادت ومعها خالها ، فأومأ إليها أن تجلسه علــى رأس الطاولــة في المكــان المقــابل لشــكري بك ، بينما دعاها ليجلسها عن يساره وزوجته إلى جانبــها ، وجلســت نــازلي هــانم وهــدى ومنى ثم سعيد وأحمد في الجانب المقابل لهم مـــن الطاولــة .

وكم كان إعجاب شكري بك بهذا الترتيب ، فقد تبين منـــه كــم هــو مصطفــى مرتبــط بعائلته ، يريدهم كلهم إلى جانبه ، يطعمهم بيده ، واحدة واحدة ، أمــا شــريف ومــها فــلا يأكلان إلا من يديه ، وقد سبق له أن لاحظ ذلك من قبل في الكـــازينو مــع زوجتــه وأمــه ،

والآن يراه مع جميع أفراد عائلتـــه حتى مايسه ، التي أسعدها أن تأكل مـــن يـــد أبيـــها ، تمامـــا كما كانت منذ أن ولدت وحتى بلغت السنوات الأربـــع ، قبـــل أن يختفـــي مـــن حياتهـــا ، أو هكذا تظـــن .

وتم قضاء السهرة في موضوعات شتى ، وكلمـــا حـــاول أحمـــد أن يتطـــرق إلى الحديـــث ، يرجئه مصطفى ، إلى أن أعلنها له صراحة ، فلا أحـــاديث الليلـــة ، ومـــن الغـــد هـــو تحـــت أمـــره ، ولم يجد أحمد بدا من الإذعان ، مع توعـــدات شـــكري بـــك لـــه بـــالهول والثبـــور وعظائم الأمـــور ، وزاد :

- " بس شاطر تخلي البوليس يقلق منامي الساعة ثلاثة بعـــد نـــص الليـــل .. "

ونظر الجميع بدهشة إلى أحمد الذي كان العرق يتصبب منه ، وهـــو يحـــاول بكـــل مـــا لديـــه من قدرة في التعبير أن يجعل شكري بك يصمت ، لكن الرجـــل كـــان قـــد أخذتـــه النشـــوة ، في هدوء الليل ، والسعادة التي تغمره بخطوبـــة ابنتـــه ، ووجـــوده في هـــذا الجـــو الأســـري البديـــع ، أكمل حكاية أحمد بك الصحفـــي النـــابغ :

- " ولا نابغ ولا حاجة ، وبكره إن شاء الله إذا مـــا كنـــش يخلـــص موضـــع التحقيـــق الصحفي ده ما يورنيش وشه ، وبما انه مش حيكمله ، يبقى الأفضل مـــا يورنيـــش وشـــه من دلوقتى ، وكفايـــة إنه بهدل بنتي في أقســـام الشـــرطة .. "

وبينما أحمد ينعي حظه ، كان الرجل يكيد له وكأنهمـــا أطفـــال في حضانـــة :

- " كسر إشارة مرور ، وقلنا معلهش ، يمكن يكون ســـكر علـــى الريحـــة ، إنمـــا فعـــل فاضح في الطريق العام ، يعني خلاص ، الحب مقطع بعضـــه يـــا خـــى .. "

ونظر إلى هـــدى :

- " في ذمتك ، بيعمل كده في البيت .. ؟ كان بان ، ســـنة جـــواز ومفيـــش أولاد .. "

ووجد مصطفى أن الأمور قد تأزمت بين أحمد وشكري بك ، وربمـــا يكـــون ذلـــك بســـبب التحقيق الصحفي معه ، فاصطحب أحمد إلى غرفة المكتـــب ، بينمـــا العـــرق البـــارد يتصبـــب من جبينه ، والدم يغلي في عروق شكري بك ، وهدى منكســـة رأســـها ، وعينيـــها لأســـفل ،

فالفضيحة ليست سهله ، وشكري بك لم يوضـــح أن الفعـــل الفـــاضح في الطريـــق العـــام لم يكن سوى قبلة برئيه من زوجـــها ، ولكنـــه للأســـف لم يســـتطع أن يثبـــت أنهـــا زوجتـــه ، فالبطاقة ما زالت شخصية ، إذ أنه لم يجد وقتا لتحويلـــها إلى عائليـــة ويضيـــف اســـم زوجتـــه فيها ، وقسيمة الزواج لم تكن معه ، ولم ينقذه إلا شكري بـــك بالقســـيمة الـــتي يحتفـــظ بهـــا عنده ، وبمركزه ، وبطاقته العائلية التي تثبت أن هدى ابنتـــه ، ولم يكتـــف شـــكري بـــك بمـــا نالهما من نظرات الاستهجان التي كـــانت تلاحقـــهما ، إلا أن أحـــد الضبـــاط علـــق تعليقـــا خفيفا عن أزمة السكن ، ولم يتركها شكري بك ، فصوب إليـــهما نظراتـــه شـــذرا .

خرج مصطفي من غرفة المكتب ليجد شكري بك قد هدأ قليـــلا ، لكنـــه مـــا إن رآه حـــتى ثارت ثورته مرة أخرى ، وأخذ يضرب الحـــابل في النـــابل ، ولم يســـلم واحـــد مـــن أفـــراد عائلته دون أن يصيبه بسهم أو أكثر من سهامه الطائشـــة الـــتي يطلقـــها هنـــا وهنـــاك كلمـــا استبد به قلق ، أو صادفته مشـــكلة يصعب عليـــه حلـــها ، وأدرك مصطفـــى ذلـــك ، فقـــال بهدوء ورويـــة :

- " ما كانش تحقيق ده اللي يغضبـــك هكـــذا .. "

ثم نادى زوجتـــه :

- " يا صفيه هانم ، فنجان قهوة سادة لشـــكري بـــك ، وعلينـــا بـــالحلوى ، أم تـــراك نســـيتيها !! "

فابتسم شكري بك وهو ينظر لمصطفى نظرة لها معناهـــا ، فبادلـــه مصطفـــى ذات النظـــرة ، فانفجر شكري بك مقهقها وهو يقـــول :

- " ما هو يا التحقيق يخلص الليلة ، يـــا خليـــها .. "

وقاطعه مصطفى قبل أن يكمـــل :

- " حيخلص .. إن شاء الله حيخلص .. بس حضرتـــك هـــدي أعصـــابك .. "

١١- التحقيق الصحفي

لاحظ مصطفى أن مايسه وحيدة شاردة ، تنظر إلى ما يدور حولها وتحاول استيعابه ، فسارع إليها بعد أن استأذن شكري بك ، وجلس إلى جانبها يحادثها وتحادثه ، ويشرح لها ما يدور حولها بأسلوب بسيط تفهمه ، وبلغة تختلط فيها العربية مع اليابانية ، ولاحظ أن حديثها معه تتخلله بعض اللكنة السورية ، وسألها ، فأجابت :

- " إن إمام الجامع الكبير في اليابان سوري .. هل نسيت يا أبي ؟؟ " .

واستوضحها عن علاقتها به ، أو علاقته بها ، وما دخل ذلك باللكنة السورية ، وكان لإجابتها ما أثلج صدره :

- " هل يرضيك أن أكون مسلمة بالاسم فقط ، أي لمجرد أن اسمي مايسه مصطفى الخوجه ، كان لا بد لي من أن أتعرف على الإسلام ، ومن أفضل من إمام الجامع الكبير ؟ وتصادف أنه كان سوريا ."

وابتسمت فلاطفها مصطفى مستفسرا عن مدى رضاها عن غرفتها .. بيتها .. عائلتها .. حياتها معه ومع اخوتها ، وأجابته بما أثلج صدره ، وتودد لها على أمل أن تفضل البقاء معهم ، لكنها ردت بأدب :

- " هذا منتهى ما يسعدني ، فقد كنت هناك وحيدة ، لا أب ، ولا أم ، ولا أخ ولا أخت ولا جدة ، ولا عم ، ولا حتى زوجة أب حنونة كما هي ماما صفيه ، ثم خطيبة عم ، وعائلة خطيبة عم ، إنما حياة كاملة ، وليست فقط خال غير متزوج ، وخادمات وخدم ، ودراسة ، وكأنني إحدى تجارب خالي العلمية ، التي يرى فيها نجاحه المستمر ، فقد علمني أشياء كثيرة حتى قبل أن أستوعب حروف الهجاء ، وقد أفادتني كثيرا في مستقبلي العلمي ، لكنها في الحقيقة أنستني نفسي ، حتى أنني لم أشعر بأنني فتاة ، إلا عندما تعرضت لمضايقات الشباب من حولي ، نسيت أنوثتي ، ففي الجينس والبلوزات وملابس الملاعب وبالطو المعامل ، يتساوى الجنسان ، وبالإرهاق الذي يصل إلى أكثر من ثمانية عشر ساعة يوميا ، دراسة ومساعدة للخال في تجاربه ومشاركة فعالة في إدارة ما تركته لي من شركات وأعمال ، لم يترك لي

الكثير من وقت لأفكر في حب .. سوى حبك ، ولا في مناجـــاة ، ســـوى مناجـــاة روح والدتي التي أرغمـــوني لأرى جســـدها المســـجى علـــى المحرقـــة ، والنـــيران تلتهمـــه .. ولكــــــن .. "

ثم أطرقت ، فاستحثها أن تكمــــل :

- " إنني يا أبي أدرس الماجستير .. وهنــــاك ارتباطـــات خاصـــة بالأبحـــاث والرســـالة ، والأساتذة المشرفين ، ولجنة المناقشة ، والإعـــداد للدكتـــوراه .. أم تـــراك تركتـــني دون أن تزرع في حبك للعلم ، ودأبك على البحـــث ، وكذلـــك عمـــي ســـعيد الـــذي يعـــد لرسالتي دكتوراه في وقت واحد وأنا كنت أظـــن أن نبوغـــي يرجـــع إلى عائلـــة والـــدتي فقط ، لم أكن أعلم أن عائلة الوالد أيضا فيها مـــن النبـــوغ مـــا يجعلـــني أعلـــو بـــالفخر والكبرياء ، فالأمر ليس فقط حضارة عشرات وربما مئـــات الآلاف مـــن الســـنين ، بـــل إن الحاضر أيضا له شـــأنه .. "

وقبل أن تكمل ، قال مصطفى بهـــدوء :

- " أضيفي إلى ذلك أن جدك رحمه الله كان مـــن العلمـــاء أيضـــا ، لكـــن .. ألا يمكـــن تأجيل الدراسة ، ولو لفترة حتى أعوضك ، وأعوض نفسي عن أيـــام غيـــابك عـــني ، أنـــا يا مايسه لم يهنأ لي عيش طوال السنوات الـــتي مـــرت بي بعيـــدا عنـــك ، ولـــولا تلـــك الغلالة من الأحقاد التي أثارها والدة مريم ومها ، لما كان هنـــاك مـــن هـــو أســـعد مـــني منذ حضورك ، ولعلك تلاحظين أنني لا أريد فراقك ، فأنت روحـــي الـــتي ســـلبت مـــني وردت إلي ، أريد أن أعيش معك ما فاتني من عمرك الذي أبعـــدوك فيـــه عـــني ، فـــالأب لا يكون أبا إلا إذا عاش حياة أبنائـــه .."

وقاطعته بـــأدب :

- " والابنة لا تكون ابنة إلا إذا عاشت حيـــاة أبيـــها .. "

احتضنها وهمس في أذنهـــا :

- " حياتي كتاب مفتوح ، ما عدا ما أمرنـــا الله أن نســـتره .. "

وقالت والدموع تكاد تتحجر في مقلتيـــــها :

- " أولا وقبل قصة تركك لي وحيدة في اليابان ، مـــا قصـــة الاقامـــات الـــتي أوردتهـــا عنك الجرائد والمجلات ؟ وما هي أسباب الهجوم علـــى مامـــا صفيـــه ؟ .. "

احمر وجهه خجلا ، فسألها بتودد يخفي به حمرة الخجل الـــتي أثارهـــا ســـؤالها :

- " أو قرأتينـــها .. ؟ "

وأجابت ، وقد شعرت بنبرة الغضب التي تعلو صوته رغم محاولاتـــه تصنـــع الهـــدوء :

- " إن كان في الأمر إحراج ، أو أنك لا ترغـــب في الإجابـــة ، أرجـــو اعتبـــار الأمـــر منته ، وأنا علـــى يقين من أنها افتراءات ، ولدى ما يؤكـــد ذلـــك ، فيكفيـــني مـــا قالـــه إمام الجامع الأكبر عنك ، وعن تدينك ، وكرمك ، ونزاهتك ، وأشـــياء كثـــيرة جعلتـــني أزداد فخرا وزهوا بانتسابي لك ، لكنني أريد توضيحـــا ، حـــتى إذا مـــا ســـأل ســـائل ، كان جوابي له قاطعا ومؤكدا بالحقـــائق .. "

وازداد توتر مصطفى ، فالأمر لم يعد مجرد كلام جرائد ومجـــلات ، إنـــه الآن صورتـــه الـــتي تهتز أمام ابنة لم تعش حياتها معه لتستطيع أن تحكم عليـــها حكمـــا فـــاصلا ، كذلـــك الـــذي أصدرته والدته ، أو ما تقتنع به زوجتـــه صفيـــه ، ولا حـــتى مـــا يشـــعر بـــه شـــكري بـــك وعائلتـــه ، فقد أدرك أن الرجل يريد أن يخرج العدد التـــالي مـــن مجلتـــه ، وقـــد فنـــد كـــل الهراء الذي لاك سمعة رجل ، لم يـــر منـــه إلا كـــل النبـــل والأخـــلاق الكريمـــة والصـــلاح والتقـــوى ، وما رآه من عائلة تتمسك بكل القيـــم والمبـــادئ الســـامية .

قال لها وهو يحاول أن يخفي ما يعتلج في صدره مـــن حـــرج :

- " اسألي ما شـــئت ! "

وبدأت الأسئلة ، وهو يجيـــب :

- " هل أنت مزواج ، تزوجت ثلاثة ، هل حقا تزوجت اثنتـــين بعـــد والـــدتي ؟ "

وأجابها بهـــدوء :

- " أجـــل .. "

فتمادت في أسـئلتها :

- " وهل حقا التقطت الثالثة من الشارع ؟ وكـانت حـامل !! "

وأجاب بنبرة غضب واضحة ، تكاد تكـون انفعـالا :

- " هناك تشويه للحقـائق .. "

فسألته بهـدوء :

- " وما هي الحقـائق ؟ "

أمعن النظر إليها ، وكأنه يراها للمـرة الأولى ، عقـل راجـح يزيـد كثـيرا عـن سـنها الحقيقـي ، جمال رائع زاده روعة توترها ورغبتها في معرفة حقيقـة والدهـا الـذي انتظـرت ردحا من الزمن تتمنى رؤيته ، متدينة .. سعت لتنهل من علـوم الإسـلام بكـل مـا ملكـت من قوة ، وثقافة تزيد كثيرا عما قد يقدره لها أي مثقف ، وبكـل هـذه الأمـور ، فلابـد وأن ما قرأته يتنافى مع بعض المفاهيم التي تقتنع بهـا ، والأمـر يحتـاج إلى مجلـدات توضـح لهـا الصورة ، وتعيد إليها مكانته ، مكانة الأب القدوة . ليس هـذا فقـط ، لكـن لا بـد لهـا أن تعرف ماضيه كله ، ربما منذ أن ولد ، وربما بما يسبق ذلك بكثـير ، لابـد أن تعيـش حياتـه كلها ، ويجب أن يمهد لذلك ، فيذكر لها كل شيء عـن عائلتـه ، عائلتـها .

ربت عليها بكل الحب والحنان ، واحتضنها إلى قلبه ، وقـال لهـا :

- " ترين شكري بك والأستاذ أحمد ، إنهما صحفيان ، وبحكـم الرابطـة الـتي تجمعنـا ، فقد أصبحنا أهلا ، فقد أثارهما ما نشرته الجرائد والمجـلات النسـائية ، وربمـا أكـثر ممـا شعرنا به ، ذلك أنهما قادران على توضيح الصورة بأكثر مما أسـتطيع ، ولذلـك كـانت ثورة شكري بك ، حيث أنه يريد أن ينشر الحقـائق في العـدد التـالي مـن مجلتـه الـتي تصدر بعد غد ، فما رأيك لو اشتركنا جميعـا في الحديـث ؟ "

وأومأت برأسها موافقة ، بينما كـانت آذان شـكري بـك مشـرئبة ، وعينـاه مصوبتـان نحوهما ، منذ أن سمعه يذكر اسمه ، وينظر نحوه ، فاصطحب مصطفـى ابنتـه محتضنـا إياهـا ،

ونظر إلى سعيد الذي نهض من فوره ، بينما تأبط ذراع شكري بـــك ، واتجــه بهــم إلى غرفــة المكتب حيث أحمد في الانتظـــار .

كانت صفيه قد أحضرت الفواكه والحلويات ، فانشغلت معـــها هـــدى ومـــنى في التقـــديم ، بينما نازلي هانم ومريم هانم في حديث لا يمكن أن ينتبها منه على مـــا يـــدور حولهمـــا ، فـــهما حماتا المستقبل ، أم العروسة ، وأم العريـــس .

لكن .. أين تذهب مريم هانم بالنسبة لنازلي هانم ؟ مـــلاك وديـــع ، حبســـت أيـــام زواجـــها عندما كانت في شبابها تستطيع أن تعمل ما يفرضه عليها ســـن الشـــباب ، لكنـــه كـــان عيبـــا أن تخرج المرأة من بيت زوجها ، إلا لزيارة أهلـــها ، أو زيـــارة أوليـــاء الله الصـــالحين ، أو إلى القبر ، ونازلي هانم ، زوجة رئيس تحرير إحدى كبريـــات المجـــلات الأســـبوعية ، نـــالت مـــن العلم والثقافة ما جعلها تتعرف على أفكـــار قاســـم أمـــين التحريريـــة ، وســـاهمت في بعـــض الجمعيات النسائية التي تطـــالب بالمساواة بالرجل ، ومطلعـــة علـــى أحـــدث مـــا يجـــري في العالم من أمور تتعلق بالمرأة ، سواء في الموضة ، أو التقـــاليع الجديـــدة فضـــلا عـــن القديمـــة ، والحديث كان عن ترتيبات الزواج ، زواج سعيد ومنى ، وكما لـــو كانتـــا قـــد اتفقتـــا علـــى أن يكون الكلام بالرمز ، نازلي هانم تعرض ما يحدث هذه الأيام مـــن اتفاقـــات عـــن الشـــبكة والمهر والجهاز وحفلة الخطوبة وحفلة الـــزواج ، ومـــن يتحمـــل مـــاذا ؟ والتكـــاليف الـــتي كادت تصعق منها مريم هانم ، فالمسكينة ليس لها تجارب في هـــذا الأمـــر ، إلا عندمـــا تـــزوج مصطفى بزوجته السابقة سميحة هـــانم القرنفلـــي .

أما ماي سيتو اليابانية ، فقـــد تزوجـــها في الأزهـــر الشـــريف ، وتـــولى مشـــايخ الأزهـــر الاحتفال الديني المناسب لهذه المناسبة ، ولم يتكلف مصطفى ســـوى مـــا أمـــر بإحضـــاره مـــن أحد محلات الكباب المشهورة في المنطقة ، تحولق حولهـــا الســـادة المشـــايخ علـــى اســـتحياء ، وشاركهم مصطفى وماي سيتو الطعام ، والمشروبات الغازية الـــتي أحضـــرت مـــع الطعـــام ، بكل الحب والود والسعادة ، فقد عد مشايخ الأزهـــر أن مشـــاركتهم في الاحتفـــال بإســـلام ماي سيتو ، وزواجها من رجل مسلم تأكيدا لإســـلامها ، واجـــب ديـــني ســـوف يؤجـــرون عليه ، وما كان يجب عليهم الحصول على مقابل ، حـــتى ولـــو كـــان مشـــاركة في طعـــام أو شراب ، لولا إلحاح مصطفـــى .

أما زواجه من صفيه فله قصة أخرى ، وأيضا لم يكن فيـــه لا مـــهر ولا شـــبكة ولا حفـــلات ولا خلافه ومريم هانم ليس لها بنات ، لا متزوجات ولا غيرهن ، لذلـــك فقـــد كـــان الحديـــث من طرف واحد ، ولا يوجد سوى تعبيرات الدهشة مما اعتبرتـــه مـــريم هـــانم مغـــالاة في كـــل شئ ، ولم تعلق سوى بعبارة واحـــــدة :

- " مساكين بنـــات اليومـــين دول ، علشـــان كـــده بيعنســـوا ، الله يكـــون في عـــون الشـــباب .. "

وتلقت نازلي هانم الرسالة بتأفف واضـــــح ، فابنتـــها مـــتى ليســـت في ســـن يســـمح لهـــم بالتشرط ، ومريم هانم تعتبر البنـــت الـــتي تجـــاوز ســـنها العشـــرين ، وفي أقصـــى الحـــالات الخامسة والعشرين ولم تتزوج ، دخلت من ذلك البـــاب الـــذي يوصـــد في وجهـــها الـــزواج إلى الأبد ، وتكون والدتها راضية عليها تلك التي يأتيها الله بعريس بعـــد هـــذه الســـن .

ومتى تجاوزت الخامسة والعشرين ، بل وقاربت على الثلاثـــين وهنـــاك غيرهـــا الكثـــيرات ، بل إن معظم البنات اللاتي في سنها وربما أكبر منـــها لم يـــتزوجن ، لكـــن الأمـــر فعـــلا محـــل نظـــر ، فهي أيضا ليست فينوس ولا المونا ليزا ، إنها فتاة عادية ، مثـــل بـــاقي بنـــات مصـــر ، حباهن الله بجمال طبيعي في تقـــاطيع مسمســـمة متناســـقة ، وجـــال روح يغلـــب علـــى أي مواصفات جمال أخرى ، وتختلف فتاة عن أخرى ربما بلـــون البشـــرة بحســـب الاختـــلاط مـــع الجنسيات الأخرى ، التركية أو الفرنسية ، وفي الإسكندرية يكـــثر الذيـــن مـــن أصـــل أو أب أو أم يونانية ، وجنسيات أخرى من جميع أنحـــاء العـــالم .

والعجيب أنك ترى نتاج الجنسية الواحدة أقـــل جمـــالا مـــن ذلـــك الهجـــين مـــع الجنـــس المصري ، رجل كان أو امرأة ، فهذه بيضاء وهذه قمحية وتلك سمراء ، مـــع درجـــات لكـــل من هذه الألوان ، وكأنما جمال نساء العالم كلـــهن تركـــز في بنـــات مصـــر ، وطبعـــا هنـــاك الشقراوات ، والجمال الزنجـــي الجميـــل الـــذي يؤكـــد أن هنـــاك اختلاطـــا بالســـودان أو الصومال ، فما أجمل الجمال الأسود في هـــاتين البلديـــن .

وعلقت نازلي هـــانم :

• " لا تنسي يا مريم هانم أن منى كانت في انتظار سعيد ، وقد ضاع من عمرها أكثر من أربع سنوات في هذا الانتظار .. "

وسارعت مريم هانم :

• " والحمد لله .. أهو جه بفائدة .. "

ووجدت نازلي هانم أن السيدة رغم كبر سنها وما قد يبدو عليها من أنه سذاجة ، ليست بهذه السهولة ، وأدركت أي مستقبل في انتظار ابنتها ، فما تقوم به صفيه هانم في المنزل ليس بالقليل ، ويلاحظ كم هو النظام السائد ، والسمة العامة أنه يشمل الجميع ، رجالا و نساء أو حتى الخدم والأطفال ، وهذا يدل على أن هناك عقلا واحدا يقود كل هذه المجموعات ، لكن بالنظر إلى جيش الخدم والخادمات ، فلا يخشى من هذا الأمر ، لكن مريم هانم لن تترك ابنها ليكون لعبة بين أيديهم فعرجت على مواضيع أخرى ، تاركة هذه الأمور للرجال ، فالكلمة الأخيرة دائما لهم .

دخل مصطفى ومايسه وشكري بك وسعيد غرفة المكتب ، وأوصد الباب بعد أن أومأ إلى صفيه أن تحضر قهوة شكري بك والحلويات الخاصة بهم ، وأن يتركوا دون إزعاج . جلس على الأريكة وقد احتضن ابنته ، بينما شكري بك وأحمد على الكرسيين المكملين لطقم مكتب من الجلد الأصلي الذي يبدو عليه التنجيد دون تغيير الخامات ، وجلس سعيد على أحد الكراسي مكملا الحلقة ، وبدأ مصطفى الحديث :

• " أنا تحت أمركم ، لكن اسمحوا لي أن أبدأ أولا بملخص عن عائلة الخوجه ، ثم بعد ذلك سوف أجيب أنا أو سعيد على كل ما تطرحونه من أسئلة .. ولك كل الحق يا مايسه أن تستفسري عما لا تفهمينه من اللهجة المصرية ، فاسمحي لي أنني سأتكلم باللغة العربية الفصحى ما وسعني ذلك .. "

وطلب شكري بك منه خلفية تاريخية ، فبدأ في سرد قصة عائلته :

• " طبعا اسم الخوجة غير عربي ، والحقيقة أنه ليس اسما ولكنه وظيفة ، ويعني بالعربية مدرسا ، ذلك أن جدي الأكبر قام بتطبيق الحديث الشريف " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " فبدأ بتعليم القرآن الكريم ، ولكي يعلم القرآن الكريم لابد

وأن يعلم القراءة والكتابة ، لذلك أطلقوا عليه اللقب الـذي لازمـه وأصبـح معروفـا به ، عائلتنا ريفية ، من قرية في شمال الدلتا لها صـولات وجـولات مـع المسـتعمر أيـا كان ، تركي ، مملوكي ، فرنسي ، إنجلـيزي ، الجميـع بـدون اسـتثناء ، وباعتبـار أن جدي كان مدرسا للقرية ، فقد كان الجميع يكنون له احترامـا وتبجيـلا جعـلا لـه دور الريادة ، وكان ذلك سببا لتعرضه المسـتمر للاضطـهاد مـن المسـتعمر ، حـتى وصـل الأمر للسجن ، ولما كان رجال القرية جميعهم ، بل ونساؤها أيضـا ، علـى قلـب رجـل واحد ، فما كان يتعرض له جدي من اضطهاد ، يعوضه لـه أهـل القريـة .

• وعندما أدخله الأتراك السجن احتال أهل القرية في إخراجـه ، وحـالوا بـين المسـتعمر وبينه ، ولم يجد رجال المستعمر أمامهم سوى استمالته إلى صفهم ، فاسـتصدروا لـه فرمانـا بالباشوية ، وأشاعوا في القرية أن السلطان أعجـب بشـجاعته واستبسـاله وتجمـع أهـل القرية حوله فمنحه الباشوية ، وقرروا تعينه عمدة للقريـة ، لكنـه اشـترط عليـهم إخـلاء القرية من جنودهم ورجالهم ، وسوف يقوم هو بتنفيـذ طلبـاهم المعقولـة بعـد أن يوافـق أهل القرية عليـها .. "

وصاح أحمد مقاطعـا :

• " يعني ديموقراطيـة .. "

فأكمل مصطفي بعد أن أظهر بعض علامات الاستياء مـن مقاطعتـه ، خاصـة وأنـه يكـره تعبير ديمقراطية هذا ، فله رأيه الخاص عن العلاقة الـتي يجـب أن تسـود بـين أيـة تجمعـات يحكمها ميثاق أو لائحة أو دستور ، في ظل القـانون والشـرع والعـرف :

• " تمام يا أستاذ أحمد ، لكن جدي رحمه الله لم يكـن يسـميها كذلـك ، وإنمـا أطلـق عليها المشاركة في الـرأي وفي الحقـوق والواجبـات والمسـئولية ، وقـد كـان لهـذا الأسلوب أثر كبير في استتباب الأمـن ، ومـع الأمـن زادت الإنتاجيـة ، ومـع زيـادة الإنتاجية زادت الرفاهية ، وزادت مساهمة القرية في حصيلة الجبايـة للـوالي ، بالإضافـة إلى الإصلاحات الهامة واللازمة للقريـة ، والإنشـاءات مثـل المـدارس والمستشـفيات ونظافة الشوارع وتمهيد ساحات للتدريب على الفروسـية والرمايـة ، وتخصيـص مكـان من البحر أو فرع النيل الذي يغذي القريـة للسـباحة ، حـتى أصبـح جميـع شـباب

القرية مدربين على السلاح والفروسية ، وبناتها مدربات على أعمال المنزل ، والإسعافات الأولية وأمور أخرى أكثر إنتاجية كالحياكة والغزل والتريكو والسجاد وغيره .

- وأدخل جدي الكثير من الزراعات الجديدة التي لم تكن معروفة لأهل القرية وطرقا جديدة للري ، إلى جانب تربية النحل ، والثروة الحيوانية والداجنة ، وتربية الحمام ، وأمورا كثيرة لم تكن معروفة ، استدل عليها من الكتب التي كان دائم الإطلاع عليها ، ومن الخبرات التي كان يحصل عليها من زملاء دراسته ، أو من أصدقائه . لم يكن حاكما لهم ، ولكنه كان أخا أكبر ، أو والدا ، يجلس معهم ويشاورهم ويستشيرهم ، فإذا طلب الوالي ضرائب ، بدأ في مناقشتها معهم ، حتى يصلوا لما يجدونه مناسبا ، فيتولى إقناع الوالي به .. "

وعلق شكري بك :

- " لقد كان رجلا متفتحا .. "

واستطرد مصطفى :

- " هذه هي فائدة العلم ، لقد كانت حربه معهم بأسلوب سلمي منتج حديث ، استخدم فيه العلم ، ولم يكن كفاح سلبي كما كان كفاح المهاتما غاندي ."

وسألت مايسه ببعض الشقاوة :

- " حدثني يا أبي عن بعض نوادر جدي مع المستعمر التركي .. "

وابتسم مصطفى ، بينما قهقه شكري بك وهو يقول :

- " والله يا ابنتي سبقتيني .. "

ولم تستوعب مايسه كلمة سبقتيني ، فشرحها لها مصطفى ، ثم أكمل :

- " أتذكرون حكاية طز يا عاشور ..؟ "

وهز الجميع رؤوسهم ، فهي مشهورة ومعروفة ، لكن مايسه لا تعرفها ، فقصها لها مصطفى ، وتبينت مايسه ماذا تعني الحرية عند المصريين ، ألا يجبروا على شئ ، فالمصري

على استعداد لتقديم حياته وأولاده وكل ما يملك من أجل قضيـــة يقتنـع بهـا ويؤمـن بهـا ، لكنه ليس على استعداد أن يعطي درهمـا لمـن لا يسـتحق ، أو فيمـا لا يجـب ، وتعرفـت مايسه على أسلوب الفكاهة الذي كان يختلـط بـالعمل ضد المسـتعمر عنـد المصريـين ، وكيف كان لجدها الكبير دوره في ترسـيخ مفـاهيم الحريـة باسـتخدام العقـل لا العنـف ، وتسـاءلت :

- " من أين جاءوا بكل هذا الملـح .. ؟ "

وبسط لها مصطفى الأمر ، فالقرية قريبة من البحر ، والبحر يلقـي بـالملح علـى شـاطئه ، ويقوم الفلاحون بجمعه بطريقة نظيفة ، لذلك ظـن عاشـور محتسـب السـلطة المسـتعمرة في البداية أنه أرز ، لكنه عندما أكتشف أنه ملح ، وتساءل هـل هـذا أرز " طـز " رد الجميـع في صوت واحد بشكل أرعبه " طز يا عاشـور" ولم يعقـب ، فقـد انسـحب سـريعا لأنـه خشي بطش أهل القرية ، فقد شعر في وحدهم بـالخوف يسـيطر عليـه .

وشمر أحمد عن ساعديه ، وبدأ في تسـجيل بعـض النقـاط ، لكـن مصطفـى اسـتوقفه ، وأظهر له جهاز التسجيل الذي بدأ تشـغيله منـذ أن بـدأ التحقيـق الصحفـي ، ثم نهـض مصطفى وأخرج من أحد أدراج المكتب فرمان منح الباشـوية لجـده ، حيـث أخـرج أحمـد كاميرا وقام بتصويره ، وهو يـردد :

- " أظنه دليلا ماديا دامغا ، فيه الرد الكافي على افتراءاتهـا بـأنكم تدعـون أن جدكـم كان باشـا . "

وقال العبارة الأخيرة بذات الطريقة الـتي رددتهـا الفنانـة القديـرة شـويكار ، فابتسـم شكري بك ساخرا ، بينما تساءلت مايسه عن المعنى ، وشرحه لهـا أبوهـا ، وقهقـه سـعيد ، فقد كانت الطريقة التي قلد أحمد بها الفنانـة شـويكار مضحكـة فعـلا بغـض النظـر عـن سخرية شكري بـك .

سمع مصطفى طرقا خفيفا على الباب ، فهم بالنهوض لكي يفتح بينمـا تحـرك سـعيد علـى كرسيه وكأنما يهم بالوقوف ، لكن مايسه سارعت تفتـح البـاب لصفيـه ، الـتي أحضـرت الحلويات والشاي وقهوة شكري بك ، على طاولة متحركة تدفعـها زنوبـه ، وبـدأت صفيـه

بصب القهوة لشكري بك بينما تولت مايسه صب الشـاي وتقديمـه بطريقـة غريبـة علـى الجميع ماعدا مصطفى ، فقد أرادت أن تعيـد والدهـا إلى بعـض مظـاهر حياتـه باليابـان ، وجمال فتيات الجيشا وهن يقدمن الشاي بالطريقة التي تجعل من شـرب الشـاي متعـة ، ليـس فقط طعما ونكهة ، ويضـاف إلى ذلـك التمتـع بحسـن النظـر إليـهن وهـن بملابسـهن المزركشـة ، وتمايلهن بالرقة المعهودة فيـهن والأناقـة الـتي تضفـي عليـهن سمـات الأدب المبالغ فيه ، والاحترام الذي يفرضه على ضيوفهن ، حتى كأن صفيـه بـدأت تشـعر بجمـال أسلوب التقديم ، فعن لها أن تحذو حذوها عندما شاركتها تقـديم الحلويـات ، واختـار كـل من الموجودين ما شاء له أن يضع في طبقـه ، بينمـا اكتفـى مصطفـى بطبـق مـن سـلاطة الفواكه حيث زينته صفيه بطبقة من القشدة ، وتناولت مايسـه طبقـا آخـر ولكـن بـدون قشدة ، فهي تحافظ على رشاقتها ، وخرجت صفيه تتبعها زنوبه ، وقـد تركـت الطاولـة بمـا عليها ، فقد يرغب أحدهم في المزيد ، وأغلقت البـاب بهـدوء .

أنهى شكري بك قهوته ، وطلب نصيبه من الحلويات ليتناولها مـع الشـاي ، وقضـم قطعـة كبيرة من الكيك ، ورشف من فنجان الشاي بصوت مسموع كعادتـه ، وبـدأ أسـئلته :

- " قل لي يا مصطفى يا ابني .. الكفاح السـلمي ، والنـهوض باقتصاديـات القريـة ، واستخدام العلم مع العمل لتحسين ظروف ومستويات معيشـة أبناءهـا ، أمـور جميلـة جدا ، لكن هناك جوانب أخرى في حياة هذا الرجل الأسطورة ، الـذي أغفـل التـاريخ ذكره فيما عدا ما يحكى عن قصة طز يا عاشور ، وحتى هـذه لم تذكـر كتـب الـتراث اسم قائد هذه العملية ، وسردها بـدون إثبـات قـد يفقدهـا أهميتـها ، حيـث يمكـن تصويرها على أنها تلفيـق .. "

واشرأبت الآذان ، فقد كان سؤالا يستحق الاهتمام ، ويرغـب الجميـع بمـا فيـهم سـعيد نفسه معرفة الإجابة عليه ، فمن الواضح أن والده قد اختص مصطفـى بهـا باعتبـاره الابـن الكبير ، أما سعيد فقـد كان للدراسة والفن الاهتمام الرئيسـي في حياتـه ، وفـهم مصطفـى المغزى من سؤال شكري بك ، فالروايات بدون إثبات تكـون هشـة ، ولا معـنى لهـا ، بـل ربما تعرضه للمزيد من الهجوم ، فجمع تلابيب أفكـاره ، وبـدأ في محاولـة لترتيبـها بـالقدر الذي يصلح للنشر لكنه عندما رأى ما لفرمان الباشوية من تأثـير كبـير علـى الجميـع ، بمـا

فيهم مايسه بعد أن شرح لها مصطفى ما يحويه الفرمان وما يعنيه ، آثر أن يكون حديثه كله موثقا بالمستندات ، فنهض إلى المكتبة ، وأخرج سجلا قديما متهالكا مخطوطا بخط اليد ، ووضع يده عليه وهو يقول :

- " كله يا شكري بك مدون في هذا السجل ، فهو يحتوي مذكرات جدي ومحاضر جلساته مع أهل القرية لتقرير وتصريف شئونها ، وكل من الحاضرين من أهل القرية قام بالتوقيع أو البصم أو الختم علي تلك المحاضر ، وهذا السجل يعتبر بحق توثيقا لهذه الفترة ، وربما منه يمكن معرفة شجرة العائلة لأي من أحفاد هؤلاء الأجداد " .

وأمسك أحمد بالسجل ، واحتار ماذا يفعل ، هل يصوره كله ، أم يكتفي بالإشارة إليه مع تصوير بعض صفحاته ، وسأل سؤالا ظنه ساذجا ، عما إذا كان هناك سجلات أخرى ، ليفاجأ بأنه واحد من أكثر من خمسين سجلا ، لقد سجل الخوجة باشا في هذه السجلات كل شئون أهل القرية ، حتى عمليات الزواج والطلاق ، فقد كان هو مأذون القرية أيضا ، وكذلك أسماء المواليد وتواريخها والنوع ذكر أم أنثى ، وكرر مصطفى عبارته السابقة أن هذه السجلات يمكن استخدامها لإثبات نسب أي من الأحفاد ، فتبسم أحمد وهو ينظر لشكري بك الذي سعد بتلك المستندات وهو يمني نفسه بأمرين ، الأول أنه ما من مجلة أو جريدة تستطيع الحصول على هذه المعلومات ، وثانيا أن في تقديم هذه الحقائق ما يدمغ الافتراءات التي أوردتها المجلات النسائية عن عائلة أبي نسب الجديد ، فقد أحب هذه العائلة ، أحب فيها توادها وترابطها ، وأحب فيهم صدقهم وتدينهم وأحب فيهم صراحتهم وطيبتهم ، وأشياء كثيرة لا يستطيع التعبير عنها ، وعد نفسه مسئولا عن الدفاع عن قضيتهم ، ولمحت له فكرة عرضها على مصطفى بتحفظ :

- " ما رأيك لو أخرجنا هذه المذكرات في كتب ، نقوم بنشرها ، ويقرأها الناس ليأخذوا منها العبر .. "

وتردد مصطفى ، فالمجلدات أصابتها الأرضة ، وتحتاج إلى معالجة ، بينما سعيد يلح ويشجعه أحمد ويدفعانه دفعا للموافقة ، وعندما أعلن مصطفى تخوفه ، حلها له سعيد بسرعة ، فأين هذا من اكتشافه للمركب الكيميائي الذي سيتقدم به في رسالته للدكتوراه ، والذي يمكن من كشف التزوير في الأعمال الفنية .

لقد اكتشف مركبا كيميائيا آخر أثناء تجاربه على المركب السـابق يستطيع أن يقضـي بـه على الأرضة ، ويعيد إلى الأعمال القديمـة بعـض عافيتـها ، وبنـاء علـى ذلـك ، وافـق مصطفـى ، وصفق شكري بك ، وتبعه تلقائيـا أحمـد وسـعيد ومايسـه ، وقدمـت بـاقي النسوة على التصفيق ، وشاركن فيـه دون أن يعرفـن لـه سـببا ، وسـارع شـكري بـك بالتوضيح ، حيث أطلعهن على السر الخطير للخوجه باشا الكبـير ، عمـدة كفـر الغلابـة ، وزعيم الكفاح السلمي العلمي العملي بها ضد الاستعمار ، ومعلم أبنـاء الكفـر ، وأنـه تـرك مذكراته ، التي بها توثيق دقيق لتاريخ هذا الكفر خـلال تلـك الفـترة ، وأن طباعـة هـذه المذكرات مهمة من الناحية التاريخية والعلمية والحضارية ، فضلا عن أنهـا دليـل دامـغ علـى عراقة هذه الأسرة التي بلاها الله بزوجة سابقة مثل بنـت القرنفلـي باشـا ، أرادت أن يكـون لها مكانا في هذا الفخر العلمي ، ففعلت مثلما يقولون في المثـل العـامي الشـائع :

- " جاءت تكحلـها .. "

وهي لا تدري أن من تهاجمهما هما والد وعم ابنتيها ، يعـني مـن المفـترض أن ترفـع مـن شأنهما لا أن تفعل ما فعلت ، لكنها معذورة ، فإن أي مدح لهما لن يكـون لـه سـوى معـنى واحدا ، ألا وهو أنها هي المخطئة ، أو أن يظن زوجها الحالي أنهـا مـا زالـت تكـن لمصطفـى مشاعر معينة ، لكن .. هل كل طلاق يعني أن هنـاك عيبـا في الـزوج أو الزوجـة ؟ وهـل كل انفصال بين زوجين معناه إحلال الكره مكان المودة والرحمة ؟ ولمـاذا لا ينظـر كـل مـن الطرفين إلى ثمرات الزواج السابق ؟ وأن مـن حـق هـؤلاء الأبنـاء أن ينعمـوا بالاسـتقرار حيثما شاء الله لهما أن يستقروا ، مع الزوج أو مـع الزوجـة أو حـق أحـد الأقـارب مـن الدرجة الأولى أو العاشـرة .

ثم نظر شكري بك إلى أحمد وأكمـل :

- " هل تستطيع أن تكتب ذلك .. ولو في باب النصف الآخـر الـذي كـانت تشـرفنا بالتحرير فيه صفيه هانم ، ويؤسفني أنه لم يحظ بالاهتمام المناسـب منـذ أن غادرتنـا .. "

كان في عبارته الأخيرة ما يوحي بحثها على الموافقـة للعـودة إلى المجلـة ، وفـهمت صفيـه المغزى ، وقبل أن ينطق مصطفى بكلمة ، كـانت تهـز رأسـها رافضـة ، وعلقـت تعليقـا لطيفـا :

- " أشكر لشكري بك هذا العطف الأبوي ، الذي شرفني بـــه طـــوال عملـــي بالمجلـــة ، لكن رسالتي في مملكتي ، واهتمامي بأمر رعيتي ، لهـــا الأوليـــة في الوقـــت الحـــالي علـــى الأقـــل .. "

وابتسم الجميع ، بينما كانت للعبارة الأخيرة مغزاها ، فهمـــها أحمـــد الـــذي كـــان حـــاضرا المؤتمر ، ورد مصطفى بها على سؤال إحدى السيدات ، وتـــأكد مصطفـــى مـــن أنهـــا قـــرأت كل ما قيل في المؤتمر فنظر إليها بشيء من القلق ، لكنها هـــزت كتفيـــها وقـــالت :

- " المستقبل بيد الله ، ومن يدري .. فقد يكون للتعاون شـــكل آخـــر ، حيـــث يمكـــن تحرير المقالات في البيت وإرسالها إلى المجلة .. مثلما هـــو الأمـــر في الخـــارج .. "

وقبل أن تكمل .. أعلن شكري بك موافقته بسرعة ، وكلفها مـــن تلـــك اللحظـــة بمتابعـــة الرد علـــى افتراءات بنت القرنفلي باشا ، على الأقل في الجانب الخـــاص بهـــا ، وســـوف يمـــر أحمد باكر صباحا لأخذه ، وعندما أبدت ترددها ، قـــال بحمـــاس :

- " لو توليت أنت الرد ، فهذا دليل عملـــي علـــى اقتنـــاعك بزوجـــك ، واســـتعدادك للدفاع عن هذه العائلة ، ولن تجرؤ هذه السيدة علـــى مـــهاجمتكم مـــرة أخـــرى ، علـــى الأقل في الجانب الذي يخصك فمن أفضل منك في الـــرد عليـــها .. "

وحاول مصطفى التعليق ، كما حاولت صفيـــه التخلـــص مـــن الموقـــف ، فقـــد تطـــورت الأمور بســـرعة لم يكن أي منهما مستعدا لها ، لكن شكري بـــك بدبلوماســـيته أقنـــع الاثنـــين أن عدم الموافقة لن يغضبه لكنه يسعده أن تشارك في هذا الحـــدث ، وعلـــى تلـــك الصـــورة ، وقبل أن ينتشر خبر زواج سعيد من منى حتى لا يفسره الشـــامتون تفســـيرا خاطئـــا .

وجلس الجميع ، واستحث شكري بك مصطفى أن يكمـــل ، فـــالمجلدات تحتـــاج إلى معالجـــة كيميائية سيتولاها سعيد ، وهذا سيأخذ وقتا قد يطول ، إلى جـــانب أنـــه غـــير واثـــق مـــن أن المعلومات المطلوبة ستكون على مســـتوى الأهميـــة بالكيفيـــة الـــتي يرتبـــها بهـــا مصطفـــى ، ولذلك فهو يفضل أن يتم تسجيلها وفق مـــا يـــدلي مصطفـــى بهـــا ، وســـتكون المجلـــدات في شكل مذكرات ، تتمم الخبر وتؤكده وتوثقه ، واســـتكمل مصطفـــى الحديـــث :

- " إننا نتبع أساليب كثيرة توارثناها عن أجدادنا المصريين القدماء ، وعلى وجه الخصوص في الزراعة ، وأهملنا أمورا مع الأسف استفادت منها الأمم الأخرى التي أخذتها عنهم ، ولقد تحدث شكري بك عن شواهد القبور التي يتم بناءها على ضفاف النيل ، على حساب الأراضي الزراعية ، حتى تحولنا من بلد زراعية كانت تصدر القمح واللبن والبيض والتبغ ، إلى بلد نستورد كل شئ ، لذلك لو قارنا ما كان يفعله القدماء ، لوجدنا أنهم لم يكونوا ليقيموا أية إنشاءات على الأراضي الزراعية ، إلا ما ندر .

- ولعل ذلك أمر كانت تحتمه طبيعة ديناميكية الحياة ، فالفيضان يغمر الأراضي الزراعية ، وما عليها من منشآت ، وهذا بالطبع يحول دون إقامة أية منشآت في مجال مياه الفيضان ، أي في الأراضي التي يمكن زراعتها ، لذلك فإن الكثير من الآثار التي تم اكتشافها ، لا توجد إلا في الصحراء ، بعيدا عن الأراضي الزراعية ، وقد اتبع العرب عندما قدموا إلى مصر نفس الأسلوب ، فأقاموا مدنهم بعيدا عن النيل .

- حتى صلاح الدين ، بنى قلعته بعيدا عن النيل ، وقام بإنشاء مجرى العيون ، أحد عجائب تلك الحقبة من التاريخ ، وأظنها لو بقيت كما هي بعد ترميمها ، لأدرجت ضمن عجائب الدنيا وأصبحت الثامنة ، إذ أن عملية نقل المياه من النيل إلى القلعة أمر يكاد يكون مستحيلا ، فالنيل ينخفض كثيرا عن القلعة ، ناهيك عن المسافة الطويلة التي تفصل بينهما ، لكن العقل المصري الحديث أيضا ، لا يقل ذكاء عن أسلافه ، فقد تم ذلك باستخدام أسلوب عرف فيما بعد بنظرية الأواني المستطرقة ، حيث قام بتشييد مجرى مائي فوق تلك العيون .

- ولقد فعل جدي رحمه الله شيئا من هذا القبيل ، فقد حرم على أهل القرية البناء على الأراضي الزراعية إلا أكشاك ، يأوون إليها أيام الزراعة وأثناء الحصاد ، أما المساكن فقد كانت على هضبة صخرية عالية ، وكان البناء يتم من المصادر الطبيعية الموجودة في المنطقة ، رمال الصحراء ، والحجارة التي يقتطعونها من الجبل ، أما الأسمنت ، فقد كانوا يستخدمون ما هو أفضل منه ، وهو الأسرمل ، والأسقف من جذوع الأشجار وجذوع النخيل على وجه الخصوص .. "

وتساءلت مايسه وكذلك أحمد عن الأسرمل ، فقص عليهما مصطفى قصة أذهلت الجميع :

- " مشكلة كبيرة تواجه الدول الآن .. مخلفات المنازل ، أما أجدادنا القدماء فقد أوجدوا لها حلا اقتصاديا لا وجود له في بعض الدول الكبرى ، وقد عايشنا هذا الحل إلى زمن قريب ، فجامعي المخلفات يجمعونها من المنازل ، ثم يفرغونها في مناطق مخصصة لهم تسمى عزب الخنازير ، ذلك أن الخنازير تتغذى على المخلفات الغذائية ، وتخضع هذه المخلفات لعملية تصنيف جيدة .
- فالأوراق والأقمشة القديمة ، يتم تجميعها وتباع لشركات تصنيع الورق ، والمعادن التي قد يعثرون عليها سواء ذهب أو ملاعق وشوك وسكاكين ، أو معادن أخرى ، يتم تجميعها والتصرف فيها كل بحسب طبيعته ، أما العظام ، فتباع لمصانع تكرير السكر ، ومصانع صناعة الزراير وخلافه ، وتبقى المخلفات الغذائية حيث تترك للخنازير تتغذى عليها ، وتتوالد بأعدادها الكثيرة التي تباع وتدر عائدا مجزيا ، وما يتبقى من هذه المخلفات يترك ليجف ، ثم يباع إلى مستوقدات تدميس الفول المدمس ، حيث يتم حرقها وينثر الرماد المشتعل على قدور الفول المدمس المصنوعة من الفخار السميك والتي تغطى فوهاتها بإحكام ثم تغلف بطبقة من الطين ، فتصبح مثل ما يطلق عليه الآن أواني البخار " البرستو " فتبقى في هذا الرماد المشتعل لمدة تتراوح بين اثنى عشر وثماني عشر ساعة ، بعدها تسلم القدور لبائعي الفول المدمس ، الذي لا يضارعه في الطعم والنكهة والقيمة الغذائية ، ما يصنعونه اليوم من فول يسلق في قدور من النحاس أو أي معدن آخر .
- أما ما يتبقى من الرماد ، فإن لونه يتحول إلى الأسود ، وهو ما يطلق عليه أسرمل ، يدخل في خلطة الطين التي يصنع منها الطوب اللبن ، ويستخدم بديلا عن الأسمنت ضمن خلطة المونة ، وما يفيض يستخدم كسماد . "

وتساءل شكري بك عن أساليب الزراعة ، والتسميد ، والأجر ، والضرائب .. وكل هذه الأمور وكيفية تصرف جده فيها ، فقال مصطفى :

- " أما عن الزراعة ، فقد أعد جدي بالاشتراك مع أهل القرية جدولا يبين أنواع الزراعات والمساحات التي تزرع من كل منها ، آخذين في الاعتبار صلاحية كل قطعة أرض لزراعة كل نوع من النباتات ، كل هذا بالخبرة ودون تحليل تربة أو خلافه ، فلم يكن على أيامهم كل هذه التقنيات ، وكان أول الأوليات وأهمها ، احتياجات أهل القرية من المزروعات والمحاصيل ، سواء لهم أو لتربية الحيوانات والدواجن ، ثم التركيز على المحاصيل التي يسهل بيعها لتحقيق عائد مناسب من كل زراعة أو إنتاج حيواني ، يمكنهم من شراء ما يحتاجونه من ملابس وأثاث وخلافه ، وذلك طبعا بعد إخراج الزكاة حسب الشرع ، وسداد جباية الوالي بناء على موافقة أهل القرية .
- وكانت هذه الزكاة ترسل إلى الفقراء والمساكين في الكفور الأخرى ، ذلك إنه لم يكن هناك من يستحق الزكاة في كفر الغلابة ، حتى أن اسمه اصبح على غير مسمى ، لكنهم لم يغيروه ربما لأنهم كانوا يتوقعون عودة أهله إلى الغلب مرة أخرى ، وربما مرات .
- أما التسميد ، فإن النيل العظيم ، هبة الله سبحانه وتعالى لمصر ، يأتي بالخير كل عام ، الفيضان يحمل معه الطمي الذي يغمر الأراضي الزراعية ، وبعد أن تنحسر المياه ، تكون قد تركت طبقة من الطمي الذي يحتوي على العناصر الأساسية لتغذية التربة وتحسينها ، ويضاف إلى ذلك كميات السماد البلدي الذي يأتي من الثروة الحيوانية والداجنة والحمام ، وبذلك فلا يحتاجون لأسمدة مصنعة تفسد طعم ورائحة المزروعات ، وقد تضيف إليها موادا تضر بالصحة العامة ، لعل ما نراه الآن من فشل كلوي وفيروسات الكبد الوبائي بعض آثار تلك الأسمدة ، إضافة طبعا إلى المبيدات الحشرية التي تزايد استخدامها ، فيمتصها النبات وتدخل مع الطعام إلى جسم الإنسان فتؤدي إلى الإصابة بالأمراض والتسمم ، أما زمان ، فقد كانت مكافحة الحشرات والأوبئة تتم إما بانتزاعها من النباتات يدويا وحرقها ، أو باستخدام مواد غير سامة ، أو لا يمتصها النبات مثل الجير والكبريت وخلافه .."

وقاطعته مايسه :

- " ما هو السماد البلدي يا بابـــا .. "

ورد شكري بك مفاكـــها :

- " ده بجى لا مؤاخذة ، يبجى مخلفـــات البـــهايم .. "

وضحك الجميع ، لكن مصطفى شرحها لها قبل أن تسأله عـــن معـــنى بهـــائم ، وشـــرح لهـــا أن الفلاح المصري كان يخصص مكانا ملاصقا لداره ، يخصصـــه لمبيـــت المواشـــي والحيوانـــات الحقلية ، وكان يبذل جهده في تنظيف هـــذه الأمـــاكن والـــتي كـــان يطلـــق عليـــها تعبـــير زرائـــب ، فيرفع مخلفاتها كل صباح ويحملها معه وهو ذاهـــب إلى الحقـــل ، ويحضـــر معـــه في المساء تربة نظيفة لمبيت الحيوانات عليها ، أما خلال النهار ، فالمواشـــي لابـــد لهـــا أن تتمشـــى وتسعد بوجودها في الحقل ، وتلهو بالمياه وفي الميـــاه ، خاصـــة الجـــاموس .

ثم أكمل إجاباته على أسئلة شكري بـــك :

- " أما عن الأجر ، فقد استخدم جـــدي أســـلوبا ســـهلا لحســـابه ، فـــالكل يعمـــل ، ويحصل على حاجته مـــن الحبـــوب والخضـــراوات دون أن يجـــور ، وكـــان كـــل شـــئ يســـجل ، وبعد الانتهاء من الموسم وبيع المحصول ، يتـــم حســـاب صـــافي الربـــح بعـــد خصم الزكاة والجباية ، ويقسم هذا الصافي عـــلى الجميـــع بنســـبة مـــا يمتلكونـــه مـــن مساحات بعد خصم ما سبق أن حصلوا عليه لمعيشـــتهم ، وبغـــض النظـــر عـــن نوعيـــة الزراعة التي حملت بهـــا الأرض ، ولأي مـــن المعـــترضين الحـــق في الاســـتقلال بزراعـــة أرضـــه ، أو بيعها للمجمـــوع ، فتدخـــل بذلـــك في ملكيتـــهم المشـــاعة ، تمامـــا مثـــل الأراضي التي كانوا يستصلحونها ويضمونها إلى المساحات الـــتي تـــزرع ، حيـــث كـــانت تعامل كملكية مشاعة لكل من أهـــل القريـــة الذيـــن ســـاهموا في الاســـتصلاح نصيـــب متساو ، ذلك طبعا بعد اقتطاع نصيب مميز لجدي ، فهو الـــذي يتـــولى الأمـــور الإداريـــة مع المستعمر للحصول على مستندات الملكية ، ثم يتولى بعـــد ذلـــك تحديـــد المســـاحات التي تخص كل منهم ، حتى إذا ما قرروا فض هذا النـــوع مـــن المشـــاركة ، يصبـــح مـــن السهل على كل منهم أن يتولى زراعة أرضـــه المخصصـــة لـــه ، والـــتي تثبتـــها ســـندات الملكية ، وقد أفادهم ذلك عندما طبقت الثورة قـــانون الإصـــلاح الزراعـــي . "

وتساءل أحمد :

- " وماذا حدث بعد وفاة جدك الأكبر .. هل استمر الوضع كما كان .. ؟ "

وأجاب مصطفى :

- " بعد وفاة جدي الأكبر ، صدر فرمان بمنح ابنه الأكبر الباشوية ، وتعيينه عمدة للقرية مكان والده ، وقد سار الابن على خطى الأب ، حيث أصر كبراء العائلات على اعتبار هذه الإجراءات دستورا لا يجوز لأي عمدة الخروج عليه .. "

وعلق شكري بك :

- " وما قصة نزوحكم إلى القاهرة ، وترك كل هذا المجد .. ؟ "

وأجاب مصطفى بشيء من التحسر :

- " كان والدي رحمه الله رجل علم ، درس في الأزهر الشريف ، وكرس نفسه لخدمة الدين الإسلامي ، فأنشأ جمعية أسماها جمعية التوفيق الإسلامية ، قامت بإنشاء جامع به مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، واتفقت الجماعة البيومية ، وهي جماعة صوفية ، على تنصيبه خليفة خلفاء لها ولما توفى والده ، تنازل عن العمدية لمن تختاره القرية ، واختارت القرية واحدا ظنته من أبنائها ، لكنه للأسف تبين أنه مدسوس عليهم ، فكانت تحركه أهواؤه الخاصة ، فعمد إلى التصرف في القرية كما نرى في بعض الأفلام والمسلسلات ، حتى أنه كان يحرم على الفلاحين المرور أمام داره وهو ينتعل نعاله ، أو راكب ركوبته سواء كانت حمارا أو خلافه ، وكانت السرقات والنهب وقتل المواشي وحرق المحاصيل تتم بموافقته ، وله طبعا نصيب الأسد في كل شئ ، والتحقيق صوري ، والنتيجة ، ضد مجهول ، وكان الجميع يهرعون إلى والدي الذي أعيته محاولات الإصلاح .
- ولما فشل في خلعه من العمودية ، وتبين أن الوضع على هذه الصورة يوافق هوى المستعمر والحكومة ، وأنه متفش ليس فقط في قريتهم ، وإنما تقريبا في معظم إن لم يكن في كل القرى والنجوع ، لم يكن أمامه إلا القيام بتنظيم مجموعة مهمتها وضع العدل في نصابه ، تتناوب السهر على مصالح الناس ، فإذا سرق شئ ، نال اللصوص جزاءهم

العادل من قطع اليد أو التعزير ، وردت المسروقات إلى أصحابها قبل أن يشعر أحد بما يحدث ، وإذا قدمت زانية إلى القرية وما أكثرهن ، أو انحرفت إحدى فتياتها ، قام بدراسة حالتها والتعرف على أسباب الانحراف ، فان كانت الرغبة في الزواج لبلوغها سن العنوسة ولعدم رغبة الرجال فيها إما لفقرها ، وإما لأنها ليست جميلة ، زوجها لمن تغلبت النوازع الدينية عنده على كل اعتبار ، وإن كان الفقر هو الدافع ، كفل لها حياة كريمة بطريقة أو أخرى ، وذلك بتدبير وسيلة من وسائل الكسب الحلال ، وما أكثر أولئك اللاتي قدمن إلى القرية من هذه النوعية ، فقد تفتق ذهن المستعمر ، عن أن الظلم ، والفساد ، هما أساس الهلاك .

- والقرية كانت تدار بأسلوب عادل ، مما شجع الكثير من القرى المجاورة على طلب الانضمام إليها ، وقبول عمدتها عمدة لهم والالتزام بالدستور الذي يحكمهم في علاقاتهم بالعمدة والحكومة ، وفي علاقاتهم بعضهم بعضا ، وطبعا حدود الله سبحانه وتعالى كانت هي المطبقة ، فقد وضع جدي الأكبر رحمه الله الآيات الكريمة التي وردت في سورة المائدة موضع التنفيذ ، " ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون (٤٤) ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون (٤٥) ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون (٤٧) " صدق الله العظيم.

- والله سبحانه وتعالى قرر الحدود ، وهي القصاص في القتلى ، وقطع يد السارق والسارقة ، وجلد شارب الخمر والزانية والزاني غير المحصنين وقاذف المحصنات ، ورجم الزانية والزاني المحصنين (المتزوجين) ."

وقاطعه أحمد :

- " ولماذا لم ينفذ والدك هذه الحدود .. "

وأجاب مصطفى بهدوء :

- " متى .. ؟ في زمن التشجيع فيه على الفسق والفجور هو الأساس ، لقد أدرك والدي أن معظم ما يحدث في القرية والقرى المجاورة لها ، سياسة مستعمر وتجاوز حكومي ، ومصالح موظفين عموميين ، وفي هذه الحالة يصبح المجرم مجنيا عليه ،

والإصلاح بتطبيق القاعدة الشرعية التي وردت في حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليقومه) لا يكون بالقتل أو النهب أو الإفساد في الأرض ، والتقويم باليد في مفهوم الحديث ، هو العمل على تغيير المنكر ، فلو فرضنا أن هناك عدم توازن بين الأجور والأسعار ، فلا يكون العلاج بالسرقة أو الرشوة ، ولكن يكون إما برفع الأجر أو تخفيض الأسعار ، ولقد قام الكثيرون من أهل الخير ، بمعالجة هذا الأمر بفتح مجالات الرزق أمام الكثيرين ممن تنخفض أجورهم عن حد الكفاف ، كما قام آخرون بتوفير السلع والخدمات بأسعار معقولة وفي متناول الجميع ، وحتى أقرب لك المسألة ، فأنت هنا في المدينة ، المدرسون الخصوصيون يتقاضون أجرا مغاليا فيه من الطلبة ، لعلمهم أن أولياء الأمور أغنياء ، بينما في الأحياء الشعبية تكاد تكون مثل هذه الأجور رمزية لو قيست بما يحدث في المدن ، وكذلك الأسعار فإنها تختلف .. وحتى أقرب لك المسألة أكثر ، فعلى أيامنا ، كان المدرسون يساعدون الطلبة مجانا .. " .

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل ، والجلسة ممتدة ، والكل سعيد بهذا الجمع ، وبهذه المعلومات التي يستمعون إليها لأول مرة ، ونهضت مايسه ووجهها يتلألأ من السعادة ، فقد ازداد تمسكها بعائلتها ، وبجدها الأكبر الذي حارب الاستعمار بأسلوب سلمي ، قبل أن يبتكر غاندي أسلوبه في الكفاح السلمي ، وفرق بين الأسلوبين ، فهذا يعتمد علي الوقوف في وجه المعتدي بما يشعره بقوته ، وأنه قادر على سحقه ، رغم عدم خبرته بالقتال فيما عدا التحطيب ، بينما أسلوب غاندي عرض شعبه للقتل والتعذيب ، لكن أسلوب غاندي كان له صدى عالمي ، نتج عنه جلاء المستعمر ، أما أسلوب جدها ، فقد أجبر المستعمر على احترام المواطن المصري ، وأن يعمل له ألف حساب ، ومع تعاون السياسيين في هذه الفترة وقيام شبابه البواسل بالأعمال الفدائية التي أخذت تستأصلهم واحدا بعد الآخر ، لم يجد الاستعمار بدا من الجلاء .

بدأها شكري بك :

• " ياه ، دي الساعة جربت على نص الليل ، الحجيجة يا مصطفى بك الجعدة معاكم حلوة جوي ، والواحد وده ما يغادرش ، لكن بجى الالتزامات ، نتركم على خير ، ولنا لقاء آخر باكر إن شاء الله. "

لكنه وقبل أن يكمل ، فاجأهم نازلي هانم بضرورة تحديد موعد الزواج ، والاتفاق على ترتيباته ، فقد أقلقتها مريم هانم أثناء حديثها معها ، وحيث أنهما تركا الأمر للرجال ، والرجال من وجهة نظرها لا يفهمون شيئا في مثل هذه الأمور ، فلابد وأن تكون لها الكلمة الأولى والأخيرة ، لكن شكري بك ، وقد بدأت عيناه في النعاس ، والتثاؤب الذي لم يتمكن من إخفائه ، ثار فيها لتأجيل الحديث في هذا الأمر :

• " ثم إنت مالك ومال المواضيع دي ، من امتى .. ؟ "

وأمسك قبل أن يظهر بعضا من عيوبه في توجيه إهانات لفظية لزوجته ، إذا قامت بما يستوجب ذلك خاصة عدم احترامها لوجوده كزعيم لهذه الأسرة ، وتصافحت العائلتان ، بينما هناك من تعلقت يداه بيديها ، وذلك بعد أن تعلق قلبه بها ، لا يريد أن يتركها ، لكن هدى أختها انتزعتها منه انتزاعا ، قبل أن يفيق الرجل الصعيدي على هذا الغزل العلني ، وفي تعبه ، قد ينسى أنها خطيبته ، وحتى في غير تعبه ، فهي له بعد عقد القران ، ولا هذا أيضا ، هي له عندما يجمعهما بيت الزوجية أما قبل ذلك ، فلا يجوز ، ولا يحل ، ولا يمكن ، ومئات اللاءات ، وانسابت يدها من يديه ، والشوق يكاد يفطر قلبيهما ، همست هدى في أذنها :

• " ألم يكفك قضاء اليوم بطوله معه ، بنات آخر زمن .. "

فجحدتها منى بعينيها ، وهي تذكرها بزوجها عندما كان لا يكتفي ببقائه إلى جانبها في مكتبها طول اليوم ، بل كان يأتي إلى البيت ليمضي الليل بطوله تقريبا معها ، أما هي ، فمع مسكين يعمل طول النهار ، وحتى اللحظات التي كان من الممكن أن يختليا فيها بنفسيهما ، قدمت عائلتها لتحولها إلى جلسة عائلية ، حالما انقلبت إلى تحقيق صحفي ، حتى لا يفصل الشملول جوزها ، وقصت لها كم كان سعيد مرهقا عند وصولهم ، ولولا الخجل والعيب لتركهم وتمدد ولو للحظات وساد الصمت بينهما ، فقد آثرت كل منهما أن تكتفيا بما تنشرانه عن فضائحهما .

١٢- أخبار سارة

أثارت الضجة التي خرجت بها الصحافة النسائية سخط عائلة صفيه ، حيث بدأت الألسنة تلوك سمعتها ، والتساؤلات عن مفهوم التقاطها من الشارع ، وأنها كانت حاملا ، وتلك العبارات الكبيرة التي تحمل أكثر من معنى ، هم يعلمون جيدا أن جميعها خطأ ، وأن الحقيقة التي لم تذكر قد تكون أخطر من كل ما قيل ، تلك الحقيقة التي لا يعرفها أحد سوى مصطفى - حتى صفيه نفسها ربما لا تكون على علم تام بها ، لكن أيا كانت النتائج ، فلا بد لكل الألسنة أن تخرس ، وإن كانت هناك هفوات ، أو تصرفات غير مسئولة ، فقد تمكنت العائلة بمساعدة مصطفى من إصلاح ما فسد لكن هذه التلميحات التشهيريه المسيئة للسمعة ، يجب وقفها بأي ثمن ، وأي ثمن عند السهايجة أمر مزعج حقا ، وهذا ما كان يخشاه شكري بك ، فهو سوهاجي ، ويعلم جيدا ماذا سيترتب على هذا التشهير ؟ ومصطفى لديه خلفية جيدة عن هذا الأمر ، ولولا قضاء الله لقضي على هذه العائلة بتحمل وزر الثأر مدى الحياة ، يعلم الله ماذا كان يمكن أن يحدث خلال تلك الفترة ؟ ولا متى كان سيتوقف هذا الثأر ؟ ومع خيوط الفجر الأولى ، كان الأب والاخوة وأولاد العم ، يطرقون باب فيلا الخوجة باشا ، وفزع عم محمد ، لكنه بالنظر لمعرفته بالأب ، قام متثاقلا وفتح البوابة لهم ، وتوجه بهم إلى الصالون . كان مصطفى والعائلة في طريق عودتهم من صلاة الفجر ، وفوجئوا بهم .

كان مصطفى على يقين من حضورهم ، فما قيل أكبر بكثير مما قالته صفيه لتهون من شأنه ، لكنه لم يكن يتصور أن يحضروا بهذه السرعة ، وقبل أن يبادر الأب بالسلام على أي من عائلة مصطفى وبينما ابنته تهرول نحوه شارعة أذرعها لتلقاه بين أحضانها ، فإذا به يتلقاها بصفعة قوية أطارت صوابها فاهتزت عدة مرات قبل أن تستقر على الأرض فاقدة النطق والحركة ، بينما هو يرفع يده ليكيل لها الصفعة الثانية ، لكن مصطفى سارع يمسك يده بقوة وعنف ، تحرك على أثرهما باقي أفراد العائلتين ، وكأنهم على وشك الاشتباك في صراع ، أما سعيد الذي ليس له في مسألة العراك هذه ، أسرع يحمل صفيه إلى الداخل ، بينما وقفت مريم هانم تحول بين أولاد وأولاد اخوة الحاج وهدان وبين ابنها ، ثم وجهت كلامها لوالد صفيه :

- " ما هذا يا حاج ، أهكذا تدخلون بيوت بناتكم ، وتتعـــاملون مـــع أزواجـــهن ؟ "

وأجاب الرجل بعصبية واضحـــة :

- " مش كفاية جابت لنا العـــار .. " .

وتساءلت السيدة بشيء من التلطـــف :

- " أي عار هذا الذي تتحدث عنه يا رجل .. هـــل زواج صفيـــه مـــن مصطفـــى ابـــني عار ؟ إنه شرف لها ولكم ، أن تتزوج مـــن ابـــن عائلـــة الخوجـــة باشـــا ، البروفيســـور مصطفى الخوجة ، الرجل الذي تتحدث عنـــه جميـــع الصحـــف والمجـــلات والإذاعـــات والتليفزيونات في العالم ، منقذ البشرية من الجوع ، ومكتشـــف أشـــجار الـــبروتين .. " .

وقبل أن تكمل ، قاطعها الرجل متســـائلا :

- " كل الكلام ده إحنا عارفينه ، لكن كون الست سميحـــه هـــانم الجرنفلـــي ، زوجتـــه السابقة ، تتجول على بنتنا الكلام الماسخ ده .. ده ما يرضيـــش حـــد واصـــل .. " .

ونظر إليه مصطفى بقهر ، وتركه مســـرعا إلى زوجتـــه ليطمئـــن عليـــها ، بينمـــا أكملـــت والدتـــه :

- " وده خطأ صفيـــه .. " .

وقال الرجل ، وقد شعر بخطئه ، فبدأت حدة ألفاظـــه تخـــف :

- " هي السبب ، لولاها ما كنـــش ده حصـــل .. " .

وعلقت الســـيدة :

- " حاج وهدان .. إنت واثق انك ربيـــت بنتـــك كويـــس أم لا .. ؟ " .

وسارع الرجـــل :

- " طبعا واثق .. إيه لزومـــه الســـؤال ده .. ؟ "

فقالت السيدة بهـــدوء :

- " لأن ما فعلته الآن يثبت غير ذلك .. وفي هذه الحالـــة ، تبقـى شـهامة ابـني ومـا فعله معها ومعكم في غير محلــها ، ويبقـى أولادك وتصرفـهم معـاه غلـط .. وتبقـى حاجات كثيرة قوي محتاجة تصحيـــح .. " .

وبدت عصبية الرجل في رده الذي كان قنبلـــة موقوتـــة :

- " تقدري تقولي لي ، ليه اسم النبي حارسها ما خلفتـــش لدلوكيـــت .. هـي وعندهـا ولد ، وهو وعنده بناته ، يعني محدش منهم عنده موانـــع ، وده معنـاه إن الكـلام اللـي جالته سميحه الجرنفلـي صح ، مصطفى ولــدك مـش مقتنـع بيـها ، علشـان كـده ، خلف من النسوان اللي تزوجهم كلياتهم ما عداهـــا ، طـب مطلجـهاش ليـه ؟ مخليـها على ذمته لدلوكيت ليـــه .. ؟ "

وتساءلت السـيدة :

- " آه .. بقى هـــو ده الســبب ، وبرضــه يبقـى التفــاهم بالشـكل ده ، والا الأول تعرف الحقيقـــة وبعدين تعمل اللي إنــت عــايزه .. "

وفوجئوا بمصطفى يخرج مـــهرولا ، ويديـر قـرص التليفـون بانزعـاج ، طالبـا الطبيـب ، وتسرب إلى الرجل الشعور بالخوف على ابنتــه ، فقـد كـانت الصفعـة قويـة ، وسـقوطها على الأرض أفاقه من لحظات الضعف البشري التي تصيـب الإنسـان في غضبـه ، ولـولا أن مصطفى أمسك بيده ليمنعه من أن يكيل لها صفعة ثانية ، لكــانت يـده قـد تسـاقطت مـن التخاذل الذي انتابه بعد أن عادت إليه مشاعر الأبوة ، لقد أخـذ شـباب العائلـة يوغـرون صدره ضد ابنته ، وتسبب ذلك إلى جانب أمور أخـرى ، في انقطاعـهم عـن زيارتهـا ، بـل وتحريم زيارتهم لها ، وزيارتها لهم ، كأنما ما حدث لهـا رغمـا عنـها ، هـو جريمـة يجـب أن تعاقب عليها ، وذلك بالرغم من زعمهم أن ذلك كـان حمايـة لهـا ولزوجـها ممـن قـاموا بخطفها ، أو من والدة أسامه حيث ربما تعتبرهما مسـئولين عـن موتـه ، وقـد تجمـع كـل غضبه في اللحظة التي رآها فيها ، فكان صفعـة قويـة أفقدتهـا الصـواب ، والله أعلـم بمـا هـو آت .

أمر مصطفى بالكرسي المتحرك الذي كـــان يســـتعمله والـــده في أيامـــه الأخـــيرة ، عندمـــا أصيب بالشلل بعد صدور قرارات التأميم الـــتي نقلتـــهم مـــن الـــثراء إلى الفقـــر ، ووضـــع زوجته عليه وهي ما زالـــت في غيبوبتها ، وأسرع بوضعها في الســـيارة ، وقـــال لوالدتـــه :

- " إحنا رايحين المستشفى يا ماما .. أرجوك مفيـــش حـــد ييجـــي .. "

كان هذا معناه ألا يحضر أحد من عائلتـــها ، بينمـــا ركبـــت مايســـه إلى جـــوار صفيـــه في الكنبة الخلفية ، وتولى سعيد القيادة ، فقال مصطفـــى لســـعيد :

- " أما كان يجب أن تكون إلى جـــوار والدتـــك .. "

فأجاب سعيد ، وكأنما هو أعلم بمثل هـــذه المواقـــف :

- " لا تخشى شيئا ، فما كان لي أن أتركك تقود الســـيارة وأنـــت في هـــذه الحالـــة ، ثم إنهم الآن يضربون أخماسا في أسداس فيما عساه يكـــون قـــد حـــدث لصفيـــه ، وعلـــى كل ، فأنا بمجرد وصولنا المستشفى سأطلب من منى أن تذهـــب فـــورا إليـــها .. "

وسارع مصطفـــى :

- " لا لا .. لا تزعج منى ، اتصـــل بـــالوالدة فـــور وصولنـــا المستشـــفى ، وطمئنـــي عنـــها ، إلى أن تعود صفيه إلى وعيـــها .. "

ثم استدرك بعد فترة صمـــت :

- " لكن لابد من تلقينهم درسا لن ينسوه .. إلى مـــتى ســـتظل هـــذه الجفـــوة وتلـــك العصبية ؟ ألا يتبينون أولا ثم يحكمون ثم ينفذون ، لكـــن التـــداول والحكـــم والتنفيـــذ في لحظة واحدة ، أنا لا أنكر أن الكلام الذي كتب في الجرائد يثـــير أي والـــد عنـــده نخـــوة وشرف ، لكن معرفة الحقيقة أهم بكثير مـــن التـــهور .."

وصمت سعيد ، فهو يعرف أن أخاه على حـــق ، لكنـــه هـــو نفســـه لا يعـــرف الحقيقـــة ، فعلقت مايسه بشيء من الدهـــاء :

- " وما هي الحقيقة يـــا أبي .. ؟ "

وبدأت صفيه تصدر أنات ألم ، وحرقة قلب ، ما إن أفاقت منـــها حـــتى انخرطـــت في بكـــاء حار وصل إلى درجة التشنج ، بكاء ابنة في شوق لعائلتـــها بعـــد غيـــاب أكـــثر مـــن ثـــلاث سنوات ، وكأنما زواجها كان فرصة للتخلـــص منـــها ، وعندمـــا تراهـــم ، وتفتـــح ذراعيـــها لملاقاقم بالأحضان والقبلات ، إذا بهم يقابلونها بالصفعات ، فطلب مصطفـــى مـــن ســـعيد أن يوقف السيارة ، وأمر مايسه بالجلوس إلى جوار عمها ، بينمـــا جلـــس هـــو إلى جـــوار صفيـــه يهون عليها ، احتضنها وأخذ يربت على ظهرها ويدلـــك يديـــها ووجنتيـــها وقلبـــها ، لكنـــه فوجئ بها تفيق فجأة ، وتطلب منه الطلاق ، وأن يتركهـــا في الشـــارع الـــذي انتشـــلها منـــه ، حتى يرضى أبوها عنها ، وعن شهامة مصطفـــى معـــها .

وتصور الجميع أنها تحاول التعبير عن الاعتذار لما أصـــاب هـــذه العائلـــة الـــتي كـــانت ومـــا تزال كريمة معها ، بينما يقابل أبوها وعائلتها هذا الكرم بهذه الصـــورة العجيبـــة مـــن التعبـــير عن الشكر والامتنان ، إلا أنها في حركة سريعة غير متوقعة ، فتحـــت بـــاب الســـيارة وألقـــت بنفسها منه والسيارة على سرعتها ، لولا أن أســـرع مصطفـــى بالإمســـاك بهـــا ، وأوقـــف سعيد السيارة بشكل مفاجئ ، الأمر الذي مكن مصطفى مـــن التقاطـــها وإدخالهـــا الســـيارة وإلا لكانت سقطت في الشارع ، ولامها على ما فعلتـــه ، فأجهشـــت في البكـــاء ، ومصطفـــى ومايسه يهونان عليها ، وكلما تذاكرت ما مر بها مـــن أحـــداث تمنـــت لـــو مســـحتها مـــن ذاكرتها ، زادت حدة البكـــاء .

وعندما وصلوا المستشفى ، ذهب سعيد ليطمئن على والدتـــه ، بينمـــا هـــم مصطفـــى بـــأن يطلب حقن صفيه بمهدئ ، لكنه تدارك سريعا ، فقد يكون للمـــهدئ آثـــار عكســـية ، فقـــام الطبيب بفحصها ، وخرج يزف البشـــرى لمصطفـــى :

- " المدام سليمة والحمد لله .. بس خلي بالك منها بقى يا بطل ، الحمـــل بتاعـــها المـــرة دي مش سهل ، طبعا يمكن علشان الصعوبات اللي واجهتـــها في الحمـــل الســـابق .. "

وعاد سعيد ليطمئن مصطفى على هـــدوء الأمـــور ، فكمـــا توقـــع ، الجميـــع قـــابع في أي مكان شاءت الصدف أن قادته قدماه إليـــه ، وقـــد اتكـــأ برأســـه علـــى يديـــه ، في انتظـــار الأخبـــار ، ولكن سعيدا فوجئ بمصطفى ومايســـه وهمـــا يحتضنـــان صفيـــه ، والابتســـامات التي انطلقت من الوجوه تعلن أنباء سارة ، لكنـــها مختلطـــة بـــالدموع ، فســـرها ســـعيد أنهـــا

دموع الفرح ، وهم مصطفى أن يتكلم ، لكن سعيداً سارع يبرز مواهب جديدة من مواهبه المتعددة :

- " عارف .. المدام حامل .. مبروك يا مدام ، مبروك يا أبيه "

وسأل مصطفى كيف عرف ؟ فقص سعيد عليه أنه لاحظ ذلك منذ مدة ، لكن مصطفى نظرا لانشغاله الدائم ، فإنه لم يلاحظ ، والحقيقة أن والدة منى منذ أن شاهدتها في الحفل الساهر ، أخبرتهما بأن شكل مدام صفيه يتبين منه أنها حامل ، وأضاف سعيد :

- " وبما أن القلم الذي صفعك أبوك به ، كان لكلمة قالتها بنت القرنفلي باشا من إن مصطفى لا يريدك ، ولذلك فهو لم ينجب منك حتى الآن ، فأعتقد أن الله سبحانه وتعالى ، أراد أن يكون ما حدث هو الرد العملي على افتراءات هذه السيدة .. وحتى يطيب أبوك نفسا .. اسمحوا لي أن ابلغهم هذه البشارة .. "

لكن مصطفى بنظرة دهاء مصحوبة بابتسامة لم تلمحها صفيه فيه من قبل ، استوقفه وهو يقول :

- " لا .. مش قبل ما أرد لهم الصفعة دي صفعات ، كان لازم يفهموا أخلاق بنتهم قبل ما يقدروا مواقفي معها ومعهم .. "

ونظر إلى صفيه بحنان وهو يعتصرها :

- " جهزي نفسك يا مدام لإقامتهم عندنا شهر كده ، والا يمكن أكثر .. "

وفهمت صفيه ما يريد مصطفى أن يقوله :

- " بس مش شايف إن شهر كثير على رقدتي في السرير .. "

فأجابها مصطفى :

- " وهي الصفعة تبقى صفعة ازاي بدون ألم ومعاناة ، وكمان بقى أهي فرصة ، تشوفي فيها والدتك ، اللي حرمها أبوك من أن تراك ، تيجي وتقعد معاك ، وتفرح أول فرحة ليها بمولود تعيش معاك حمله وولادته بصورة طبيعية تنسيها مرارة الحمل الأول ."

وبعد أن عبرت صفيه بكل ما تستطيع ، عن شكرها لمصطفى الذي لا يترك مناسبة دون أن يثبت لها كم هو نبيل ، أبدت صفيه مشاكل رقدتها ، فالأولاد في حاجة لمن يرعاهم ، والبيت مهما كان الأمر في حاجة لها ، ومصطفى نفسه في حاجة لرعايتها ، وإذا لم يكن هو في حاجة لها ، فهي لا تستطيع أن يغيب عنها ولو لحظة ، فهو الظل الذي تحتمي به ، وهو الحب الذي تجسد في شخصه ، وهو الحنان الذي لم تجده من أقرب الناس إليها ، وأمور كثيرة منها أنه في انشغال بين قمورتهم حبيبتهم مايسه ، والرد على افتراءات سميحه هانم ، وشغله ، وعندما أبدى سعيد ملاحظة تشعرهم بوجوده ، أجابت صفيه :

- " لا .. إنت كفاية عليك مني هانم ، وفنك .. "

وقبل أن تكمل ، قاطعتها مايسه :

- " والاثنين دكتوراه ، والا نسيت يا أنكل .. وكمان الاكتشاف .. "

ثم أضافت مايسه :

- " ولا يهمك يا ماما .. لن أسافر قبل أن أطمئن عليك ، ويقرر أبي الصفح عما حدث .. "

ونهض مصطفى يلقف مايسه بين أحضانه ويشبعها قبلا ، وهو يقول :

- " سبحان الله .. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. صفعة أطاحت بزوجتي الحبيبة ، علمنا على أثرها بنبأ سار أسعد قلبنا ، وقرار تأديبي بسيط ، أسعد قلبنا ببقاء حبيبتنا معنا ، أحمدك يا رب .. "

ثم نظر إلى سعيد ومايسه ، وهم على وضوء ، وسجدوا لله شكرا على هذه النعم ، ثم لحقت بهم صفيه بعد أن عدلت من نفسها ونهضت من رقدتها . حضر الطبيب ورآها وهي تقف بعد السجود فنظر إليها وإلى مصطفى ، وعبر عن سعادته باستعادتها لعافيتها ، وطلب من الجميع الخروج ، فالمستشفى في حاجة إلى الغرفة للمستحقين من المرضى ، لكن مصطفى نظر إليه نظرة ذات معنى ، وهو يقول له :

• " ألم تقل إن الحمل يحتاج إلى رعاية خاصة ، هل نسـيت يـا طبيـب ؟ "

وقال الطبيب وقد فهم ما يرمي مصطفـى إليـه :

• " هو كلامك مضبوط ، بس أنا أعلم بأنكم خـير مـن يرعاهـا بالمـترل ، وسأرسـل معها إحدى الممرضات لتكون في خدمتها ، مـا رأيـك ؟ "

لكن مصطفى أصر على بقائها في المستشفى ولـو لمـدة أسـبوع ، لعمـل تحـاليل وسـونار وعلاج من الدوخة الـتي تعـاني منـها ، ووافقـه الطبيـب ، ثم أن مصطفـى همـس في أذن الطبيب بأنها طالما هي في المترل ، فلن ترحم نفسها ، لكـن وجودهـا في المستشـفى سـيكون له أثر جيد على صحتها ، وتنصتت صفيه علـى الحديـث ، فـهو بـدون شـك يخصـها ، وحاولت أن تعترض ببعض عبـارات الشـكر لمصطفـى علـى اهتمامـه بصحتـها ، لكـن اهتمامها بالبيت والبنات والأولاد ، شئ يتطلب وجودها هنـاك ، واقـتراح الطبيـب جيـد ، فنظر إليها مصطفى مذكرا إياها بما اتفقوا عليه ، فمهما حـاول أن يشـرح لعائلتـها حالتـها ، فسوف يذهب كل ما رتبوا له أدراج الريـاح بمجـرد عودتهـا معـهم ، لكـن حجزهـا في المستشفى أمر آخر قطعـا .

وفعلا ، عاد سعيد إلى الفيلا وحيدا ، فاستقبله الجميـع بشـوق ولهفـة لمعرفـة الأخبـار ، ولماذا لم تعد صفيه ؟ ولماذا مصطفى هنـاك ؟ وآلاف الأسـئلة ، وسـعيد مطـأطئ الـرأس ، وكأنما في الأمر شئ ، وكاد الرجل يجثو أمامه طالبـا منـه الإفصـاح عمـا حـدث لابنتـه ، وسعيد يحاول الإخفاء مكرها ، ولم يستطع كعادتـه ، فـهمس في أذن والدتـه الـتي أسـعدها الخبر ، فأعلنت بشيء من السـعادة والتشـفي :

• " يا ما إنت كريم يا رب .. يا ما أنـت كـريم يـا رب .. الحمـد لله .. مـبروك يـا حـاج .. ابنتك حامل في شهرين .. شفت بقى .. لـو صـبر القـاتل.. ".

واحتضن الرجل أبناءه وأبناء اخوته بسعادة ، وقـد اغرورقـت عينـاه بـالدموع ، وانتقلـت العدوى للباقين ، والرجل يردد حمده وشكره لله .. فبـادره سـعيد إن الشـكر لله لا يكـون إلا بالسجود ، فاستأذن الرجل ليتوضأ ، وكذلك فعـل الجميـع ، وسـجدوا لله شـكرا ، ثم أنه تساءل عن سبب عدم حضورها ، فأجابه سعيد بأنها لا لابد لهـا مـن البقـاء في المستشـفى

لعمل تحاليل وفحوصات ، فأمر الرجل أحد أبنائه ليطلب والدتـــه تليفونيـــا للحضـــور فـــورا ، وأدرك سعيد بأن ما خطط له مصطفى سار ربما بأكثر مما يجب ، بينمـــا الرجـــل يعيـــد ويزيـــد من أسفه لوالدة مصطفى ، وينظر إليها بخجل وكأن ما فعله شئ شنيع ، ليتـــه تريـــث ، ليـــت يده قطعت قبل أن تمتد إلى ابنته ، وأخذ يثني على مصطفى بكـــل الصفـــات الجميلـــة ، ويثـــني على هذه العائلة بكل ما هو شرف وعفة وخلق ونبل وشهامة ، والســـيدة الطيبـــة تثـــني علـــى صفيه بكل ما هو خير ، فهي نعم الابنة لأم ليس لها سوى أبنـــاء ذكـــور ، ونعـــم الأم لابنـــتي من تتطاول عليها ، وأضاف سعيد بأنها نعم الأخـــت الـــتي لم يـــر منـــها إلا كـــل الخـــير ، وتحولت الضغينة إلى تسابق في المديح ، وطلب العفـــو والمغفـــرة .

صدر للمؤلف قصة زفاف بالملابس السوداء

موافقة إدارة الرقابة على المصنفات الفنية رقم ٢٥٤ بتاريخ ١٩٩٧/٣/١٩

للمؤلف تحت الطبع

مقبرة الأحياء	غريب في بلدي	دائماً المرأة
العذاب الأسود	الملك القرصان	خزعبلات
أغنياء ولكن فقراء	لحظات الندم	جرائم قدرية